الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 385
تشرين الثاني: 2016

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

اشتراك السنة 2000 :ريال يمني
(100) مائة دولار امريكي (50) خمسون دولار امريكي
.للاشتراك والاعلان

:للاشتراك والاعلان

:للتواصل

Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

:البريد الالكتروني
thakafajadida@hotmail.com
:البريد الالكتروني
thakafajadida4u@gmail.com

:الموقع الالكتروني
http://www.althakafaaljadeda.com
.مجلة الثقافة الجديدة - مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
.تصدر عن مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
:رقم الايداع
:الترقيم الدولي

* تنشر المجلة الدراسات والبحوث والمقالات والقصص والشعر والترجمات والتقارير والحوارات والمراجعات الكتب والمتابعات الثقافية ... الخ
* تخضع المواد المنشورة للتحكيم من قبل هيئة التحرير
* يحق للمجلة نشر المواد المرسلة في أعدادها الورقية والالكترونية
* المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها
* المواد المرسلة لا ترد سواء نشرت أو لم تنشر
* المجلة غير ملزمة بنشر المواد في الأعداد التي تلي تاريخ استلامها
* المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة إليها

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- من أجل نظام ديمقراطي تعددي في بلداننا ودولة مدنية حديثة ..... كريم مروة
18- مفهوم "البروليتاريا الرثة" لدى ماركس..... سعد عبد الرزاق حسين
26- الازمة المالية في العراق والقرض الدولي - الأسباب والحلول..... حاكم محسن محمد الربيعي
34- المنافسة الرأسمالية والروح الهجومية للتحالف الاطلسي..... لطفي حاتم
41- تعلّم ام تعليم؟المناهج التدريسية المعمارية العراقية .. الى أين؟..... موفق جواد الطائي
45- التأهيل والتنمية.....مجيد مسعود

طاولة حوارية

50- بعنوان : (ازدياد حالات الطلاق وأثره على المنظومة القيمية للأسرة - مدينة الصدر نموذجا)

نصوص مترجمة

104- (من أرشيف الكومنترن) رسالة رقم7 ..... ترجمة : عبد الله حبة

حوارات

114- حوار مع الفنان التشكيلي ضياء العزاوي ..... اجرى الحوار: فيصل لعيبي صاحي

أدب وفـــــن

كلمة "أدب وفن"

126- الكتابة المختلفة ..... نضال القاضي

في الحدث الادبي والفني

128- (أبو يعكوب) ينزل من قطار الشوك

دراسات نقدية

130- مسرحيات يوسف العاني بين الرمز والموروث الشعبي ..... صباح هرمز

142- الخرافة في الأدب بين الماضي والحاضر..... ترجمة : باسم العودة

قصص

151- أصابع الشهداء في كل مكان ..... حسب الله يحيى

155- زهوق في رحاب النغمات (تلك الباقية أبدا)..... عبد الله عبد الكريم

163- متابعات في الصحافة الثقافية العالمية..... ترجمة: جودت جالي

من أدب الرحلات

181- من أدب الرحلات : بكّين جوهرة الصّين ..... محمود سعيد

188- أوراق أوكرانية، بقية مجد مضى..... ياسين طه حافظ

190- نشاطات ثقافية: منبر العقل في الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق

لوحتا غلافي العدد: للفنان شاكر حسن آل سعيد

كلمة العدد

عملية تحرير الموصل .. لحظة تاريخية نادرة لا ينبغي اضاعتها

لا شك في أن انطلاق عمليات تحرير الموصل من براثن "الدولة الاسلامية – داعش"، بعد انتظار طويل وممل، شكّل لحظة تاريخية نادرة يجب على جميع العراقيين الحريصين على بناء وطن حر وسيد نفسه استثمارها الى اقصى حد لبناء عراق ما بعد داعش. ومن المؤكد أنه وبرغم كل التضحيات سينتصر العراق وقواته المسلحة بمختلف تشكيلاتها في هذه المعركة.

نشير الى هذه اللحظة الفريدة وفي الذهن ما يقوم به بعض سياسيي اللحظة العابرة الذين ما زالوا يتصرفون وكأنهم خارج التأريخ؛ فتارة يراهنون على الهاء المجتمع في قضايا ثانوية، لحرف الصراع عن وجهته الصحيحة، وتارة اخرى يسعون الى العنف ويروجون التخندق الطائفي – الإثني. ويغذي هذا الواقع ما يجري من عمليات تفجير تلتهم شهريا المئات من الشهداء والجرحى والمعوقين.

طريق المصالحة الوطنية الحقيقية... وحده القادر على بناء دولة مدنية – ديمقراطية عصرية

وبرغم مشاعر الغضب ونبرة الكلمات الحزينة والوداع المؤثر لمن رحلوا... برغم كل تلك الكلمات، لكنها لن تغيّر شيئا من المشهد السياسي الفعلي، ويبقى السؤال التقليدي الذي يصفع بقسوته: كيف السبيل الى إخراج البلاد من الاحتقان والاستعصاء وتجاوز مشاهد العنف الدائم وإعادة إنتاجه باستمرار؟ ثم كيف يمكن توظيف نتائج معركة تحرير الموصل التي ستتوج بالتأكيد بطرد "داعش" من العراق في بناء مشهد سياسي جديد؟

ثمة جواب واحد لا غير. المطلوب من جميع الاطراف والأقطاب، ومن باب أولى المتمترسين وراء حروب الطوائف العبثية، اتخاذ خطوات جريئة واعتماد حلول وتنازلات متقابلة تشكل الارضية لتغيير الوضع الراهن الذي وجد المجتمع العراقي فيه، والذي بلغ درجة كبيرة من الخطورة لا يمكن معها الاستمرار في التخندق خلف المواقع المتقابلة، والمواقف المتنافرة. فلا بدّ من التشاور والحوار، بهدف التوصل الى توافقات وابتكار آليات قادرة على وضعها موضع التطبيق العملي.

وننتهز الفرصة هنا، لننوه بالبيان الصادر عن أعمال المؤتمر العلمي الأول لمنبر العقل في الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، الذي انعقد ببغداد في 15 تشرين الأول 2016، تحت شعار (ماذا حدث..؟ ماذا نصنع..؟)، وبمشاركة أكثر من عشرين متخصصاً في الشؤون السياسية والاجتماعية والانثروبولوجية والفكرية والفلسفية والأدبية. فقد اكد البيان مثلا في الفقرة (2) على "العمل على تبني ثقافة التسوية التاريخية بين مكونات الشعب العراقي، وعلى أسس مقتضيات وطنية واضحة، تتعمقُ من خلالها المواطنة والمشاركة والتفاعل".

نعم، المطلوب في هذه اللحظات المتوترة والمفتوحة أن يرتب جميع الفرقاء التناقضات بشكل صحيح وأن

يركزوا على تحشيد القوى لحل التناقض الرئيسي وهو التناقض مع "داعش" حتى دحر الاخير. وهذا يتطلب تجنب صب الزيت على نار الصراعات والتناقضات المشتعلة أصلا، بل ضرورة طرح أفكار وابتكار حلول وتقديم تنازلات متبادلة ومقبولة للخروج من الاوضاع الراهنة والأزمة البنيوية العميقة التي أوصلنا إليها النظام المحاصصي، وقبل ذلك الاحتلال وأدواته المحلية والخارجية. وحتى لا نبسط الأمور علينا أن نذكّر ان الكرة الآن ليست في ملعب أحد... أنها في ملاعب الجميع، فالمسؤوليات متقابلة وان كانت متباينة في حجمها كل حسب موقعه في هرم السلطة. ولهذا فان المطلوب من الجميع إعادة النظر في المواقف والطروحات التي تعتبر بمثابة "مسلمات" لا تقبل النقاش، للاقتراب خطوة واثقة نحو طاولة الحوار، للبحث عن حلول وسط تجنب البقاء في "خنادق المتحاربين" والأيدي على الزناد!

في مثل هذه اللحظات المضطربة والمفتوحة النهايات لا بد من التأكيد مجددا على تجنب الخيارات "السهلة" وتلك الحلول التي ما زالت تراهن على تصعيد العنف اللفظي والفعلي والوصول به الى الذروة وتثمير نتائجه المغمسة بالدم لفرض شروط على الآخرين. ولا نجد طريقا آخر للخروج من هذا الوضع سوى طريق المصالحة الوطنية الحقيقية، فهو وحده القادر على بناء دولة مدنية – ديمقراطية عصرية وعراق حر وسيد نفسه.

لينتبه الجميع... الانتصار في عملية تحرير الموصل، سيضع العراق أمام خيارين!

وما ينبغي الإشارة إليه في خاتمة هذه الملاحظات هو التذكير بأن الانتصار في عملية تحرير الموصل، سيضع العراق أمام خيارين؛ إما الاتفاق على حلول سياسية كبرى عينها على المستقبل وغير مسكونة بروح الماضي والحاضر واستقطاباته المعروفة من خلال تقديم تنازلات متقابلة، قد يكون بعضها مؤلما، عبر طريق الحوار، أو خيار البعض على التوظيف الخاطئ لنتائج المعارك العسكرية لفرض تناسب قوى جديد بقوة السلاح! مما سيعني الذهاب مجددا الى الفوضى والاحتكام الى "الشارع" المستنفر المتوتر! ويعني ذلك أيضا العودة مجددا لمنطق صقور الخيارات العنفية وحروب الطوائف، وتوظيفها كأدوات في التعبئة اليومية لتزيد من مشاعر الحقد والكراهية المتقابلة. وسيعني هذا كله خسارة البلاد للحظة نادرة لن تتكرر.

لقد حان الوقت، بعد تبديد سنوات في الاحتراب والاستقطاب الطائفي – الإثني، لأن يرتقي الساسة وخصوصا المتنفذون والماسكون بزمام السلطة والحكم الى مستوى المخاطر التي تحيط بالوطن. ويحدونا أمل صادق في انه برغم حدّة الاستقطاب المجتمعي وما تركه ويتركه من آثار سلبية ومخاوف عميقة، ما زال هناك ساسة عقلاء يتمتعون بقدر من الحصافة السياسية والوطنية العالية، يمكن الرهان عليهم في تجاوز هذه اللحظات المتوترة. نعم، بلادنا بحاجة الى هؤلاء وليس الى "ساسة" محرضين ومولعين بالخطابات التحريضية المحمومة، ممن اعتادوا التفرج على طقوس دفن الشهداء الذين ذهبوا وقودا وضحايا لبعض الساسة الطارئين وقصيري البصر والبصيرة.

وليتذكر الجميع، بمن فيهم الذين انخرطوا في حروب الطواحين الطائفية لتحقيق أهدافهم وهي ليست أهدافنا قطعا، أن حروبهم ومعاركهم العبثية لم ولن تغير لا التاريخ ولا الجغرافية... فهما بنات الحكمة العراقية الأصيلة التي جمعتنا سوية، وعبر قرون طويلة في وطن واحد اسمه العراق يمتد من زاخو حتى البصرة ومن الرمادي حتى خانقين، وسيبقى موحدا بحكمة أبنائه وبناته وسينتصر في معركته ضد "داعش" وأخواتها.

وأخيرا، وبعيدا عن اللحظة الراهنة نعود الى التاريخ. ففي السابع من تشرين الثاني 2016 تحل الذكرى التاسعة والتسعون لثورة اكتوبر العظمى، وبغض النظر عن النهاية المأساوية لهذه التجربة، ورغم اللحظات المشوبة بمشاعر مختلطة بين حلم مؤجل وأمل آت، إلا ان مجرد استذكار هذا الحدث الذي غيّر العالم لأكثر من سبعين عاما، إنما يعني أن هذه الثورة ومبادئها الكبرى في: السلم والخبز والأرض لم تتسربل بالنسيان، فما زال بيرق النضال ضد الاستغلال والظلم والعسف يرفرف، رغم كل الضجيج بـ "نهاية التاريخ ونهاية الإيديولوجيا".

المجد لذكرى ثورة اكتوبر العظمى قاطرة تاريخ القرن العشرين!

مقـــــالات

من أجل نظام ديمقراطي تعددي في بلداننا ودولة مدنية حديثة على قاعدة الفصل بين الدين والدولة *

كريم مروة
مفكر يساري ماركسي لبناني

1 - قراءة مبدئية في المسألة القومية وفي تجلياتها القديمة والحديثة في بلدان المنطقة ومن ضمنها بلداننا العربية.

كيف تعاملت الأنظمة بأسمائها وصيغها المختلفة في هذه البلدان وكيف تعاملت القوى السياسية فيها يساراً ويميناً مع المسألة القومية في المراحل الأولى لتأسيس بلدانها وفي المراحل اللاحقة حتى أيامنا هذه؟ والسؤال يطال جميع بلدان المنطقة. لكنني أركز فيه على بلدان المشرق التي كانت المسألة القومية فيها موضع صراع وأحكام جائرة ومظالم. هذه البلدان هي تركيا وإيران والعراق وفلسطين وسوريا. فمن المعلوم أن أتاتورك مؤسس تركيا المدنية العلمانية المنفتحة على العصر قد تابع في سياساته القومية سياسة السلطنة العثمانية في اضطهاد القوميات الأخرى بالقتل والتهجير. وكان الشعبان الأرمني والكردي ضحية تلك السياسة. وما تزال تلك السياسة ذاتها تمارس في العصر الحديث تحت قيادة الرئيس الحالي لتركيا أردوغان. أما في إيران التي شهدت في عام 1946 تأسيس أول جمهورية كردية هي "جمهورية ماهاباد" وإلى جانبها جمهورية أذرية لم تعيشا إلا عاماً واحداً أو أقل؛ إذ ما أن خرجت القوات السوفياتية من إيران بموجب اتفاق يالطا، وبقرار من ستالين، حتى انقض شاه إيران على الجمهوريتين وسحقهما وقتل قادتهما. ويتحمل ستالين بقراره ذاك المسؤولية عن الكارثة التي لحقت بالشعبين الكردي والأذري. وما تزال قضية هاتين القوميتين والقوميات الأخرى في إيران من دون حلّ يحقق لها حقوقها. أما في العراق فقد سادت أوضاع مختلفة بالنسبة للشعب الكردي بين تعايش راق مع سائر مكونات الشعب العراقي في بعض المراحل التاريخية وبين ثورات استمرت طويلاً إلى أن استقرت في مطلع تسعينات القرن الماضي بتأسيس إقليم كردستان في صيغة حكم ذاتي واتحاد فدرالي مع

العراق. وهو إنجاز تاريخي يستحقه الشعب الكردي بعد ثورات ونضالات لم تنقطع على امتداد عشرات السنين كانت مليئة بالآلام وبالتضحيات الجسام. أما الشعب الفلسطيني، الذي تتحمل الدول العربية بحربها الفاشلة في عام 1948 المسؤولية عن مأساته الراهنة، فهو ما يزال منذ أكثر من نصف قرن يعيش في ظلّ الظلم والقهر من قبل دولة إسرائيل وسلطاتها المختلفة المتعاقبة. والملفت للنظر في هذا الموضوع ما جاء على لسان رئيس الأركان السابق لدولة إسرائيل مؤيداً من وزير الدفاع السابق في وصف تعامل الجنود الإسرائيليين مع الشعب الفلسطيني بالطريقة ذاتها التي كان يتعامل فيها النازيون مع اليهود خلال الحرب العالمية الثانية. أما أكراد سوريا الذين بلغ عددهم ما يقرب من مليونين فقد حرموا من حق امتلاك الجنسية السورية ومن سائر الحقوق التي تعود لهم.

ما يهمني في هذا السياق أن أتوقف عند ظاهرة عمّت في بلدان المنطقة، بما في ذلك في بلداننا العربية، تتمثل في التعامل باسم القومية الأكبر في صورة تمييز في اتجاه القوميات الأخرى، اتخذ في كل بلد شكلاً مختلفاً عن البلد الآخر. لكن جوهره واحد هو عدم اعتراف القومية الأكبر بحقوق القوميات الأخرى. وتعامل السياسيون من الأحزاب القومية العربية مع القوميات الأخرى بنفس المنطق الذي تعاملت فيه السلطات الاستبدادية بأسمائها وصيغها المختلفة، ضد الأكراد وضد البربر وضد الأمازيغ وضد أبناء جنوب السودان وضد سائر القوميات في الشرقين الأدنى والأوسط. ولم يختلف عن تلك الصيغة في التعامل مع القوميات الأخرى إلا الشيوعيون في بلدان المنطقة، لكن من موقع الضعف.

انطلاقاً مما تقدم أؤكد من موقعي اليساري أن الحلّ الصحيح للمسألة القومية إنما يكمن في إعطاء جميع القوميات حقوقها في كل بلد حسب شروطه، إما في صيغة حكم ذاتي أو في صيغة اتحاد فدرالي أو في صيغة كيان وطني شامل تتآلف فيه جميع القوميات في صيغة تعبّر عن وحدة مكونات كل من هذه الشعوب المتعددة القوميات، أو حتى في صيغة كيان قومي مستقل. وهي صيغ متعددة ينبغي أن تتحقق في شكل ديمقراطي حقيقي يتم الإستناد فيه إلى الواقع القائم، ويتجاوزه عند الضرورة في شروط واقعية وعقلانية. وهي صيغ ينبغي أن تستند إلى شرعة حقوق الإنسان التي أقرّتها الأمم المتحدة في مؤتمرها التأسيسي في عام 1945 في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ودائماً على قاعدة الواقعية والعقلانية. هكذا أفهم وأقرأ المبدأ الأساسي في المسألة القومية استناداً إلى ماركس ولينين، لكن في شروط العصر الجديد الذي نحن فيه. وهي شروط مختلفة عن التواريخ السابقة في الأفكار وفي السياسات المتصلة بها.

2 - سؤال كبير تطرحه الوقائع الراهنة في بلدان المنطقة وفي العالم: لماذا ظهر تنظيم داعش في هذا الوقت بالذات، وفي هذه السرعة الفائقة وبهذه القوة الاستثنائية وفي هذا التوحش المفرط وفي هذا الانتشار الذي تجاوز المنطقة إلى العالم؟

لهذا السؤال الكبير في تفرعاته مشروعيته في هذا الوقت بالذات. ومشروعيته هذه تأتي من كون ظاهرة داعش، التي أصبحت ظاهرة تشغلنا وتشغل العالم، لم تأت من الفراغ. لكن السؤال ذاته يستدعي سؤالاً آخر له مشروعيته أيضاً: من المسؤول عن بروز هذه الظاهرة الغريبة المليئة بالتوحش كما لو أن البشرية عادت من جديد إلى عهود البربرية؟ جوابي السريع عن السؤالين ينطلق من الواقع القائم في بلدان المنطقة، لا سيما في بلداننا العربية، الواقع المؤهل بطبيعته لكي يهيئ الشروط المولدة لمثل هذه الظاهرة. أول ما يشير إليه هذا الواقع هو ما نشهده في بلدان المنطقة من مظاهر سائدة ومتواصلة من الظلم والقهر الاجتماعي والقومي والديني والمذهبي، الظلم والقهر اللذين ولّدهما ويولّدهما الاستبداد بأسمائه وصيغه المختلفة. وهذان الظلم والقهر اجتماعياً وقومياً ودينياً ومذهبياً ترافقا ويترافقان مع حالات من ردود فعل متعددة أنواعها وأشكالها في صيغ ثورات عفوية وحركات شعبوية وحركات سلفية تكفيرية من نوع داعش. وكانت "القاعدة" في سبعينات القرن الماضي المثال الأول، تلتها الأعمال المتوحشة في الجزائر في تسعينات القرن الماضي، وقبلها وبعدها ومعها حركات مشابهة لها في مصر.

السبب الأول في ولادة مثل هذه الظاهرات هو إذن الاستبداد مضافاً إليه ما ولّده ويولّده الرأسمال المعولم. لكن لهذا السبب شريكاً آخر لا يجرؤ أحد على البوح به. غير أنني سأفرج عنه بحذر وأتحمل مسؤولية كلامي. يتمثل هذا السبب الآخر في الصيغة التي ظُهّرت وما تزال تُظَهَّر بها صورة عن الإسلام هي نقيض مطلق وفظ لقيمه الإنسانية، تتحمل المسؤولية عنها، بصورة من الصور، مؤسسات "شرعية" ومؤسسات غير شرعية تحمل اسم المؤسسات الإسلامية. ولا أطلق هنا، ولا يحق لي أن أطلق أحكاماً. ومسؤولية مثل هذه المؤسسات، كما تدلنا على ذلك الوقائع القديمة والحديثة، هي نشر البدع والخرافات باسم الإسلام بهدف تعطيل الوعي عند المؤمنين بالإنتماء الحقيقي إلى القيم الإنسانية في الإسلام. والهدف الأساسي هو إبقاء جمهور المؤمنين مغيّبي الوعي والإرادة، منساقين انسياقاً أعمى وراء تلك المؤسسات تأميناً لمصالحها، ولما هو مشترك بينها وبين مصالح الأنظمة الإستبدادية. لكن لظاهرة داعش ومثيلاتها أسباباً أخرى تستوجب منا، نحن الحريصين على الإسلام وعلى قيمه الإنسانية الكبرى، أن نتوقف عندها بصراحة وبجرأة تقتضيها ضرورات المرحلة التي تمر فيها بلداننا ويمر فيها العالم باسم ظاهرة داعش على وجه الخصوص. وأعترف مسبقاً أنني لست المؤهل للبحث لإيجاد الصيغة التي تحرّر الإسلام مما أقحم ويقحم فيه ضد قيمه الإنسانية من بدع وخرافات وسوى ذلك مما يشوّه. فتلك المهمة هي مهمة المؤسسات الدينية الإسلامية الشرعية على اختلاف مرجعياتها. غير أن تلك المهمة لن تتحقق إلا إذا تكوّنت كتلة من القوى المستنيرة من المسلمين، مفكرين ورجال دين، تمارس الضغط على تلك المؤسسات الدينية مدعومة من المجتمع في كل بلد الذي بات يرى ضرورة ذلك بعد ظاهرة داعش. وهو ما صار يعرف

منذ النهضة العربية في القرن التاسع عشر باسم الإصلاح الديني.
وأشهد أنني سمعت من بعض رجال الدين البارزين من الفقهاء وقرأت لمفكرين إسلاميين مستنيرين، ما يبدو في نظري، من خارج الاختصاص ومن خارج الموقع الديني، نقطة انطلاق مفصلية تحرر الإسلام مما يستند إليه داعش في سلفيته التكفيرية وفي توحشه غير المسبوق. يتمثل هذا الرأي الذي أشرت إليه في الفصل في تاريخ الإسلام بين لحظة تاريخية قديمة كانت لها لغتها التي يستند إليها داعش وأمثاله وبين ما امتلأ به القرآن من آيات حافلة بالقيم الإنسانية قيم الحرية والتسامح والاعتراف بالآخر تدعو إلى استخدام العقل في شؤون الحياة. ولديّ أربعة نماذج مختصرة من أربع آيات: "لا إكراه في الدين"، "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، "لست عليهم بمصيطر"، "لست عليهم بوليّ". يضاف إلى هذه الآيات قول النبي في حديث أصبح ملء السمع والبصر "يرسل الله للمسلمين كلّ مائة عام من يجدد لهم دينهم". وفي حديث آخر "اطلبوا العلم ولو في الصين". تضاف إلى أقوال النبي هذه أحاديث للإمام عليّ أكتفي باثنين منها: "لا تجبروا أولادكم على أخلاقكم فقد ولدوا لزمان غير زمانكم"، و"إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا"، مضافاً إليهما حديث للخليفة عمر بن الخطاب "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا". وأعلم أن ما أشرت إليه من هذا الفصل بين تاريخ قديم وتاريخ لاحق في الإسلام ليس عملاً سهلاً. لكنه أصبح ضرورة حتمية من وجهة نظري حرصاً على الإسلام وعلى قيمه. غير أن لهذه المهمة أبطالها من داخل المؤسسة الدينية ذاتها، فقهاء ومفكرين. ولأنها مهمة تتصل بحياة بلداننا فإن للمجتمع في كل بلد دوره في دعم من سيقومون بهذه المهمة من أبطالها. وأتساءل هنا بصراحة من موقعي كمواطن عربي: ألم يشعر أصحاب العلاقة من المؤسسات الدينية الشرعية بأن الشروط قد نضجت فعلاً للقيام بهذا الذي أشرت إليه دفاعاً عن الإسلام ضد الذين يشوهون صورته وتحريراً له من تاريخ قديم وراهن حوّله بعض من ينطقون باسمه زوراً ضد قيمه الإنسانية إلى عائق أمام التقدم في بلداننا؟ وهو ما أعتبره ظلماً للإسلام وظلماً لبلداننا ولشعوبنا إذا لم يجر الاستعجال في اكتشاف الصيغة الملائمة باسم الإسلام تحريراً له من أية محاولة لاستخدامه ضد قيمه الإنسانية من أية جهة أتت، لا سيما من أمثال داعش.

3 - هكذا أقرأ العلمانية من دون الدخول في تفسيرات شتى لها، وهكذا أتعامل باسم علمانيتي مع الدين ومع المؤمنين.

أعترف هنا بأنني أنا العلماني باسم يساريتي لم أتعلّم كثيراً مما قرأت حول العلمانية من قبل من يعتبرون أنفسهم علمانيين في تفسيرهم للعلمانية. يعيد البعض كلمة علمانية (بفتح العين) إلى العالم، بمعنى أن العالم الملموس هو الأصل وأن الغيبيات هي خارج هذا المفهوم. وهكذا يصبح العلمانيون بهذا المعنى متعارضين مع الدين الذي تشكل الغيبيات أحد أساسياته. في حين يقول

آخرون بأن العلمانية (بكسر العين) تعنى العلم. والعلم كما هو معروف لا يؤمن بالغيبيات. فهي إذن علمانية تختلف عن الدين ومعه. أما ما يتعلّق بي أنا فلست معنياً بهذا النوع من التفسير لكلمة علمانية في صيغتيه وفي الاستنتاجات التي تقود إلى الإصرار على تأكيد الاختلاف بين العلمانية والدين. وأكتفي من كلمة علمانية بالفصل بين الدين والدولة. وهو ما يهمني في الأساس لأنني أعتبر أن هذا الفصل هو في صالح الدين وفي صالح الدولة معاً. هو في صالح الدين لأنه يحرره مما يقحم باسمه في شؤون ليست من شؤونه. ومثل هذا الإقحام يجعله عرضة لكثير مما ينبغي أن يكون بعيداً منه لكي تبقى قيمه الإنسانية هي الأساس فيه. أما في ما يتعلّق بالدولة فوظيفتها هي أن تهتم من خلال مؤسساتها بكل ما يتعلّق بالمواطنين في حقوقهم وواجباتهم من دون تمييز بين مؤمن وغير مؤمن. أضيف إلى ذلك بأنني كنت وما زلت أعتبر أن النضال من أجل تغيير شروط حياة الناس نحو الأفضل والأرقى والأكثر حرية وعدالة اجتماعية إنما يلتقي فيه موضوعياً وينبغي أن يلتقي فيه عملياً جميع أصحاب المصلحة في هذه المهمة التاريخية من دون تمييز بين مؤمن وغير مؤمن.

4 - الإنسان هو القيمة الأساسية في الوجود، الإنسان الفرد والإنسان الجماعة بصفتها جمع لأفراد أحرار.

لقد تعلمت منذ شبابي الباكر من قراءاتي الأولى لماركس هذه المقولة التي استقرت في عقلي وفي وجداني. وصرت أتعامل، من المواقع المختلفة التي رافقتني على امتداد حياتي في مسائل النضال أشكالاً وأدوات ومهمات، استناداً إلى هذه القاعدة. لذلك كنت على اختلاف واضح وقاطع مع كل العمليات التي كانت تقود مناضلين شجعاناً إلى الموت من دون رحمة. وما زلت حتى هذه اللحظة أرتعش من قراءتي في كتاب صدر قبل عقدين من الزمن حول سيرة (ماوتسي تونغ) التي يقدم فيها الكاتبان؛ أحدهما امرأة صينية، معلومات عن الذين فقدوا حياتهم منذ بداية الثورة الصينية حتى نهاية الثورة الثقافية في عهد ماوتسي تونغ، وعددهم 38 مليونا. وجاء في التقرير الذي قدّمه (خروتشوف) الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي بعد موت ستالين معلومات عن جرائم ذهب ضحيتها الملايين من الشعب السوفياتي باسم الاشتراكية التي حملت اسم (ستالين) والستالينية. ثمّ جاء في الزمن الراهن من ابتدع العمليات الانتحارية مذكّراً بزمن الحشاشين بقيادة زعيمهم حسن الصبّاح في عصور عربية قديمة. وهي بدعة لا يمكن تبريرها ولا يمكن ربطها بأيّ تاريخ إسلامي رسمي، وبالأخص في حروب الرسول. وثمة فرق بين من يفرض عليه القتال ثمّ يستشهد. كنت وما زلت أعتبر العمليات الانتحارية عملاً معادياً للإنسان. ولا يمكن أن تكون له صلة بالمطلق بالدفاع عن حرية الإنسان وعن حقوقه، برغم ادعاءات من مارسوا ويمارسون تلك العمليات. ولا أتحدث هنا عن وحوش الغاب، داعش وأمثاله. بل أتحدث عمّن يناضلون لتحقيق مهمات وطنية واجتماعية، أو عمن يناضلون لتحرير أوطانهم من احتلال أجنبي.

5 - قراءتي للمقولة التي سادت بعد انهيار التجربة الاشتراكية التي تقول بنهاية عصر الأيديولوجيات

تذكرني هذه المقولة بمقولتين سادتا في اللحظة التاريخية ذاتها: مقولة نهاية التاريخ لفوكوياما ومقولة صدام الحضارات لهنتنكتون. ثلاث مقولات ظهرت في وقت كان العالم قد بدأ مرحلة جديدة في تاريخه بعد انهيار التجربة الاشتراكية. اضطربت الأفكار وبرزت ظاهرات عديدة غريبة جعلت الناس يدخلون في ما يشبه اليأس من احتمال ولادة شروط تاريخية تخرجهم من حالة الظلم والقهر والتخلف والجهل وسيادة أنظمة الاستبداد في صيغ مختلفة في ظلّ عولمة رأسمالية يتخبط فيها الرأسمال وهو يبحث عن أبشع أشكال الربح على حساب حياة البشر، ويدخل في الآن ذاته في أزمة ويخرج منها إلى أزمة أخرى وهكذا دواليك.

قراءتي لهذه المقولات الثلاث في ظلّ العولمة الرأسمالية كنظام وحيد في العالم بعد انهيار التجربة الاشتراكية، وفي ظلّ غياب بدائل واقعية عقلانية ديمقراطية من أجل التغيير لصالح خير البشر وسعادتهم، قراءتي البسيطة لهذه المقولات الثلاث تؤكد أننا دخلنا في عصر مختلف، وأن علينا أن نتعامل مع هذا العصر بواقعية وأن نبحث عن الصيغة الملائمة التي تشكل بديلاً من التجربة الاشتراكية التي انهارت والاستفادة مما كان صحيحاً فيها، وأن نتخلّى عما ساد فيها نقيضاً لما جاء بوضوح على لسان ماركس بعدم تحويل الأفكار إلى عقائد جامدة. لذلك فإنني أعتبر أن عصر الأيديولوجيات كما ساد في التجربة الاشتراكية نقيضاً لأفكار ماركس قد انهار. لكن انهيار عصر الأيديولوجيات لا يلغي ولا يمكن أن يلغي دور الفكر في تحديد المفاهيم وتجديدها على الدوام، وفي تحديد المهمات التي تختلف من زمن إلى آخر ومن مرحلة إلى أخرى، وفي تحديد أشكال النضال وأدواته في صيغة تراعى فيها حياة المناضلين من أجل تقليل كلفة النضال إلى الحد الأدنى إنسانياً. فالنضال من أجل التغيير إنما يهدف إلى تحقيق حياة أفضل للناس وأكثر سعادة وحرية. لذلك فالفكر، كلّ فكر، هو ابن تاريخه موضوعياً. واستناداً لما أشرت إليه فإنني أعتبر أن الحديث عن نهاية التاريخ هو خطأ بمستوى الخطيئة لأنه يعلن لملايين البشر أن عليهم أن يبقوا حيث هم وألا يطمحوا بتغيير شروط حياتهم في ظلّ العولمة الرأسمالية. أما صدام الحضارات فهو مثل مقولة نهاية التاريخ يعني أن العالم سيبقى في حالة صراع دائم. في حين أن البشرية كما تشير إلى ذلك كل عناصر التقدم التي حققها الإنسان ذاهبة في اتجاه وحدتها التي لا أملك القدرة والإمكانية لتحديد صيغة هذه الوحدة وفي المدى الزمني الذي ستتحقق فيه. لكن مقياسي في ما أقول هو ما حققته وسائل الاتصال التي جعلت العالم يعرف بعضه من أقصى الدنيا إلى أقصى الدنيا، وجعلت جميع من هم أصحاب مصلحة بالتغيير يرتقون بالتدريج إلى إيجاد المشتركات فيما بينهم والنضال على مدى أوسع لفرض شروط مختلفة لتعامل الرأسمال المعولم مع الحياة البشرية في شكل مختلف. وأشير هنا إلى لحظة وعي لم تستكمل برزت في

أعقاب أزمة 2008 عندما توقف ممثلو الرأسمال في قمة العشرين عند فقراء العالم وقرروا أن عليهم أن يأخذوا ذلك في عين الاعتبار استناداً إلى العدد الهائل المتزايد لفقراء العالم. لكنهم لم يستكملوا تلك المهمة.

6 - أتذكر هنا في سياق هذه القضايا الثورات العربية المعاصرة ودلالاتها التاريخية التي انطلقت في عدة بلدان عربية قبل خمس سنوات، وعبّرت بوسائل عفوية عن أن شعوبنا لم تعد قادرة على البقاء في الشروط التي فرضت عليها منذ عقود، ولم تستطع أن تتحرر منها. لكن تلك الثورات قامت وفشلت. وشكّل قيامها حدثاً تاريخياً. لكن فشلها لا يعني أن مهمتها انتهت.

أتذكر هذه الثورات وأتذكر معها قرناً كاملاً من الثورات هو القرن العشرون. وإذ أتوقف عند الأسباب التي قادت الثورات المعاصرة إلى الفشل، فإنني أتذكر كيف بدأت جميع ثورات القرن العشرين في شكل وفي مهمات وفي طموحات كبرى للتغيير ثمّ انتهت إلى الفشل جميعها. ولكلّ من تلك الثورات أسباب لفشلها. لكن ذلك الفشل الذي منيت به الثورات القديمة لا يلغي الأسباب التي قامت من أجلها، مثلما هو الحال بالنسبة للثورات المعاصرة التي فشلت حتى إشعار آخر. وبقيت الأسباب التي قادت إليها قائمة، وظلت الحاجة إلى التغيير ضرورة تاريخية متلازمة مع تغيير في صيغة واقعية لإحداث هذا التغيير. وقد ألّفت كتاباً من جزئين حول ثورات القرن العشرين، قدمت فيه قراءة نقدية وفق مفهومي للمهمات التي قامت من أجلها تلك الثورات. لكنني، إذ أتوقف اليوم عند الثورات المعاصرة وعند أسباب قيامها وأسباب فشلها، وعند ما انتهت إليه في بعض البلدان العربية إلى حروب أهلية، فلكي أستنتج وأستخلص ما أعتبره ضرورياً للحاضر وللمستقبل. وهو ما يمكن تلخيصه بالأمور الآتية:

الأمر الأول، هو أن التغيير لا يمكن أن يتمّ تلقائياً بمجرد الرغبة والحاجة في تحقيقه. لذلك فالعفوية والرومانسية والشعبوية لا تنتج تغييراً.

الأمر الثاني، هو أن للتغيير شروطه. وأول شروطه هو أن يكون له برنامج واقعي وأن تكون له قيادة عقلانية، وأن تحترم في النضال المرحلية، بمعنى أن لكلّ مرحلة مهمة محددة قابلة للتحقيق. والتراكم هو الذي يحقق التغيير.

الأمر الثالث، وهو مرتبط بالأمر السابق، إذ يتمثل بالحرص الدائم على تجنب الشعبوية والمغامرة والقفز فوق المراحل.

الأمر الرابع، الإختيار الصحيح والواقعي لأشكال النضال وأدواته التي تسمح بها الوقائع القائمة، واعتماد الوسائل الديمقراطية السلمية وتجنب كلّ أشكال العنف.

ففي مثل هذه الشروط التي لم تتوفر عندما اندلعت الثورات العربية المعاصرة كان من الطبيعي، كما رأينا وما زلنا نرى، أن تستنفر في وجه هذه الثورات برغم عفويتها كلّ القوى المعادية، سواء ما قامت وتقوم به الأنظمة الاستبدادية، أو ما قامت وتقوم به الحركات السلفية التي اعتبرت أن مجرد التفكير بالتغيير هو نقيض لمصالحها، فانقضت جميعها

على هذه الثورات بوحشية تشير إليها الوقائع التي نشهدها في كل من سوريا وليبيا واليمن. ومن ضمن تلك الردود المتوحشة على الثورات ما تمثل بظاهرة داعش ومثيلاتها من الحركات السلفية التكفيرية.

الوعي والإرادة والواقعية والعقلانية واللا عنف مجتمعة، هي الشروط التي ينبغي توفرها من أجل إحداث التغيير الذي لن تمنع كلّ مظاهر الوحشية من السير في اتجاهه. لكن ما أشرت إليه لا يكفي ذكره من دون أن تتوفر الشروط التي تجعل هذه المهمات تتجسد في صيغة كيانات وطنية ديمقراطية مدنية تضع برنامجاً للتغيير وتستكمل المهمة التي قامت من أجلها الثورات العربية المعاصرة. وهذه المهمة لم تتوفر شروطها حتى الآن. لكنها آتية لا ريب فيها.

7 - المرأة بصفتها شريكة للرجل في كل ما يتعلّق في شؤون الحياة في الأوطان على قاعدة المساواة في الحقوق والواجبات.

هذه حقيقة إنسانية مطلقة. فالمبدأ القائل بأن الإنسان هو القيمة الأساسية في الوجود إنما يعني الرجل والمرأة على حد سواء بصفتيهما شريكين أساسيين في كلّ ما يتصل بشؤون الحياة في أوطانهما. وكلّ تعامل مع المرأة خارج هذه الحقيقة الإنسانية الأساس هو عمل معاد للإنسان. والتذكير بهذين المبدأ والحقيقة يعود إلى ما شهدناه وما نزال نشهده من مظاهر غير إنسانية في التعامل مع المرأة مثل العنف الأسري على وجه الخصوص وفي جرائم الشرف وفي سوى ذلك، مما يتعارض مع المبدأ الأساس الذي يقول بأن المرأة شريكة للرجل بالتساوي في كلّ ما يتصل بشؤون الحياة في جميع الأوطان. لقد حان الوقت لكي ننتهي من هذه الظواهر المعادية للإنسان في صيغة التعامل مع المرأة في بلداننا، في شكل يتعارض مع ما حققته المرأة من إنجازات تأكيداً لحقوقها، فضلاً عما عبّرت عنه ظاهرة داعش في تعاملها المتوحش مع المرأة. وتبرز في هذا السياق الأهمية الأساسية في تحرير الأحوال الشخصية السائدة مما تشير إليه من إساءة للمرأة وللرجل في آن. من هنا الحاجة إلى إقرار قانون مدني للأحوال الشخصية والحاجة إلى إجراء تعديل جوهري في بعض ما يعتبر أحوالاً شخصية دينية. الهدف من ما أشرت إليه إعطاء المرأة الحقوق التي تعود لها في علاقتها مع الرجل، لا سيما في حالات الزواج.

لقد تمكنت المرأة في بلداننا من تحقيق الكثير مما يعود لحقوقها. لكن بعض المظاهر التي نشهد نماذج منها راهناً تشير كما لو أننا نعود القهقرى إلى تاريخ قديم. لذلك فإنني، وأنا أتحدث عن الحاضر في اتجاه المستقبل، أعتبر أن على مجتمعاتنا وعلى القوى المستنيرة فيها أن تناضل لكي تزيل كلّ الآثار التي تشير إلى عدم المساواة بين الرجل والمرأة. وتختلف الأوضاع بين بلد وآخر. ولن يستقيم النضال من أجل التغيير باتجاه تأمين الشروط الأفضل والأرقى والأكثر حرية وسعادة للإنسان إلا بمشاركة المرأة مشاركة كاملة في الحقوق والواجبات مع الرجل. ولكلّ من الحقوق والواجبات ما هو خاص بالرجل وبالمرأة وما هو مشترك بينهما.

8 - حاجتنا إلى استحضار رموز كبيرة في

حركة النهضة العربية في القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين الذين حملوا راية الحرية والتقدم، ومن ضمنهم من طرحوا فكرة الإصلاح الديني في الإسلام أذكر منهم خير الدين التونسي ورفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده والشيخ عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتاب "طبائع الاستبداد"، وصولاً إلى الشيخ علي عبد الرازق صاحب كتاب "الإسلام وأصول الحكم" الصادر في الربع الأول من القرن العشرين.

أتذكر هذه الرموز الكبيرة في تاريخنا لأنهم استنتجوا منذ وقت مبكر، استناداً إلى ما حققته أوروبا من تقدم في القرن التاسع عشر، أن على بلداننا أن تسير في الاتجاه ذاته، وأن لديها كلّ المؤهلات. لكن حركة أولئك الرواد قد أفشلت من قبل قوة عاتية هي السلطنة العثمانية. لذلك لم تستكمل عملية النهضة. غير أنني أجد الآن ضرورة للعودة إلى تلك الرموز الساطعة من مفكري النهضة الذين طرحوا فكرة الإصلاح الديني، وللإستعانة بأفكارهم من أجل خلق شروط جديدة لتحقيق هذا الإصلاح الديني الذي يعيد للإسلام قيمه الإنسانية ويحرره من كلّ ما يحاول الطغاة المستبدون من جهة والسلفيون التكفيريون من جهة أخرى أن يبقوه في الموقع الذي يجعله عائقاً أمام التقدم، وهو ظلم للإسلام.

الإصلاح الديني بهذا المعنى وبكلّ ما أشرت إليه آنفاً يصبح اليوم ضرورة تاريخية ملحّة. لكن صيغة هذا الإصلاح إنما يحددها أصحاب العلاقة من المؤسسات الدينية الذين ينبغي أن يرتقي وعيهم بهذه الضرورة استناداً لما يقدمه لهم ولنا وللعالم تنظيم داعش وأمثاله من الذين يقومون بأعمال بربرية باسم الإسلام. ويدخل في إطار الإصلاح الديني إصلاح في التعليم الديني السائد لجعل هذا التعليم متلازماً مع عملية الإصلاح الديني.

9 - من أجل نظام ديمقراطي تعددي في بلداننا ودولة مدنية حديثة تقوم على الفصل بين الدين والدولة

هذا النظام الذي أدعو إليه هو الذي أشرت إلى شروطه في المبادئ والقيم والمفاهيم الآنفة الذكر. هكذا نكون قد أخرجنا بلداننا مما هي فيه من تخلف واستبداد وأدخلناها في العصر وفي تحولاته وجعلناها جزءاً متقدماً في عملية تغيير العالم، التغيير الذي يجعل العالم مختلفاً عما يراد له من قبل الرأسمال المعولم ومن قبل الأنظمة الإستبدادية ومن قبل الظاهرات الشبيهة بظاهرة داعش.

هكذا أكون قد استكملت ما وعدت به من إبداء رأيي بصراحة وحرية في كل هذه الشؤون الآنف ذكرها، والتي تشكل بالنسبة إليّ كمواطن لبناني وعربي وأممي أساساً حقيقياً لبناء عالم جديد متحرر من آلام ومظالم العهود السابقة والراهنة، ومن المظالم التي ولّدها وما يزال يولّدها الرأسمال المعولم العابر للدول وللقارات، الذي يسعى إلى تحقيق الربح على حساب الملايين. وتشير المعلومات إلى أن في العالم خمسين مليون طفل يعانون إلى جانب عشرات الملايين من فقراء العالم، من العوز والتشرد والمرض.

لقد حان زمن البحث عن الوسائل التي تعيد الإنسان إلى كونه القيمة الأساسية في الوجود. ولا يتحقق ذلك إلا بشرطين؛ الشرط الأول، هو العمل لتوليد قوى جديدة معنية بهذه المهمة أو لإحداث التغيير في قوى قديمة، حملت أفكاراً في هذا الاتجاه. وهي جميعها من حيث المبدأ ذات مصلحة في التغيير وذات مصلحة في الارتقاء بوعيها والارتقاء بإرادتها للعمل من أجل تحقيق هذا التغيير المنشود. الشرط الثاني، هو أن تولد في بلداننا دولة مدنية حديثة تقوم بوظائفها الأصلية ومن ضمنها إيجاد علاقة واقعية بينها وبين المجتمع بقواه المختلفة للعمل معاً من أجل الربط بين ثلاثة أمور أساسية: تحقيق الحرية للإنسان، وتحقيق التقدم، وتحقيق العدالة الاجتماعية بالصيغة التي تتوافق مع التقدم المحقق. لكن هذه الدولة المدنية الحديثة القائمة على الفصل بينها وبين الدين في إطار نظام ديمقرطي تعددي، لا تتحقق لا هي ولا النظام الديمقراطي بمجرد الإعلان عن ضرورة ولادتهما. لذلك لا بد من توليد القوى التي تأخذ على عاتقها تحقيق هذه المهمة التاريخية في بلداننا.

تلك هي أفكاري التي أردت أن أضعها أمامكم في هذا المؤتمر الذي تطرح فيه للنقاش قضايا راهنة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لمستقبل بلداننا في شروط هذا العصر الجديد الحافل بالمشاكل الكبرى وبالصراعات وبالتناقضات.

---

* هذا نص المداخلة التي قدّمت في مؤتمر "بلاتفورم دابران الثاني" الذي عقد في السليمانية تحت عنوان "الدين للفرد والديمقراطية للجميع"، خلال يومي 22 - 23/ 9/ 2016.

مفهوم "البروليتاريا الرثة" لدى ماركس

د. سعد عبد الرزاق حسين
متخصص في علم الاجتماع

يحتل مفهوم "البروليتاريا الرثة" أو "حثالة البروليتاريا" lumpenproletariat، مكانة هامة في فكر ماركس، خاصة تلك المتعلقة بالصراع الطبقي والتركيب الاجتماعي للمجتمع. واهتم ماركس في كتاباته السياسية والمبنية على وقائع وحوادث ملموسة بكل الطبقات والفئات التي كان لها شأن في الصراع الطبقي والاجتماعي، كتلك التي حدثت في فرنسا بين أعوام 1848 - 1852، وهي الفترة التي ابتدأت بثورة شباط 1848 التي انهت حكم عائلة أورليان، وتأسست على اثرها الجمهورية الفرنسية الثانية. وجاءت نهاية هذه الفترة بانقلاب نابليون الثالث على الجمهورية في كانون الاول/ ديسمبر 1852 وتتويجه امبراطوراً على فرنسا. وأهم كتابات ماركس السياسية، إضافة الى "البيان الشيوعي" هي: "الصراع الطبقي في فرنسا" (1850) و"الثامن عشر من برومير لويس بونابرت" (1852) و"الحرب الأهلية في فرنسا" (1871).

وكما هو معروف، فإن إهتمام ماركس الأساسي انصب على نموذج واحد من المجتمعات والأنظمة ألا وهو النظام الرأسمالي، الذي تناوله بمزيد من التفاصيل في مؤلفه "رأس المال"، وبحث فيه أهم ملامح هذا النظام، من حيث نشوئه وتطوره ومستقبله. ولأجل ذلك استخدم منهجاً يدرس الرأسمالية كنظام اقتصادي عالمي، يشمل جميع البلدان التي دخلت هذه المرحلة، وللوصول الى نتيجة بحثه، فإنه استبعد كل ما في هذا النظام من عناصر ثانوية ومؤقتة، ومنها كافة الفئات والطبقات التي تتواجد في المجتمعات الراسمالية في مرحلته الأولية، وذلك بسبب ضمورها واختفائها خلال تطوره، ولم يبق إلا على طبقتين اساسيتين، هما: الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية. لكن هذا لا ينطبق على مؤلفاته السياسية التي تناولت بالأساس المجتمع الفرنسي خلال ثورة عام 1848 ومن ثم كومونة باريس 1871 حيث تناول وضع كافة الفئات والطبقات التي شاركت بأحداث الثورة والصراع الطبقي الذي قام على اثرها. وهكذا فإنه لم يتناول الطبقة البرجوازية باعتبارها طبقة واحدة وموحدة بل اهتم بكافة شرائحها التي كان لها مصالح مختلفة في الصراع القائم آنذاك. وميز بين البرجوازية الصناعية والصغيرة والعقارية وغيرها. وقد وصل عدد الطبقات التي اهتم بها ماركس الى حوالي ثماني طبقات او فئات، على عكس نموذج "رأس المال" الذي اهتم

بطبقتين اساسيتين ومتناقضتين.
وتجدر الإشارة هنا، الى ان ماركس كان يهتم بموقف كل فئة او شريحة اجتماعية بموقفها من الثورة البروليتارية القادمة، وهو الأساس الذي استند عليه في تحليله للصراع الطبقي في فرنسا إبان ثورة 1848. إن الفترة الزمنية التي تناول فيها ماركس وضع الطبقات وصراعها، كانت متميزة من حيث "ان الذي الغى العلاقات الإقطاعية الريفية في كل ارجاء اوربا الغربية والوسطى كانت الثورة الفرنسية سواء من خلال أدائها المباشر او ردود الأفعال تجاهها، أو بسبب قوة المثال الذي ضربته، وكذلك من خلال ثورة 1848" (1).
أهم ما يميز فئة "البروليتاريا الرثة" عند ماركس إنها فئة تقع خارج علاقات الإنتاج الرئيسية في المجتمع (فلا تملك وسائل إنتاج ولا تبيع قوة عملها)، فهي توفر العيش لنفسها عن طرق مشبوهة وثانوية مثل السرقة والدعارة والقمار والتهريب والتشرد والقتل والسلب وغيرها. ومثل هذه الفئات موجودة في كل المجتمعات كما يشير ماركس الى ذلك في "الأيديولوجية الألمانية" 1848، "فقد وجدت في جميع العصور، والتي ظهرت بشكل واسع بعد إنتهاء القرون الوسطى، وكانت قد سبقت تشكيل الطبقة العاملة بشكل جماهيري" (2). لكن ما أثار ماركس منها هو موقفها من الصراع في فرنسا من حيث وقوفها كخادم مطيع للبرجوازية ومساهمتها في قمع البروليتاريا وإبعادها عن المسرح السياسي في حزيران 1848. وهذا ما عبر عنه ماركس في "البيان الشيوعي" :"أما رعاع المدن، هذه الحشرات الجامدة، حثالة أدنى جماعات المجتمع القديم، فقد تجرهم ثورة البروليتاريا الى الحركة، ولكن ظروف معيشتهم وأوضاع حياتهم تجعلهم أكثر استعداداً لبيع انفسهم الى المكائد الرجعية" (3). وبعد ان يشير ماركس الى المراحل الرئيسية الثلاث للثورة في فرنسا، يبيّن في "الثامن عشر من برومير" أنه في بداية الثورة او مرحلتها المبكرة في شباط 1848، التي شاركت فيها جميع الفئات والطبقات الفرنسية، بضمنها ممثلي الطبقة العاملة، إلا ان نتيجة لمكائد البرجوازية وشارل لويس بونابرت (نابليون الثالث) رئيس الجمهورية تم قمع البروليتاريا في حزيران من نفس العام من خلال تجنيد مليشيات ما يسمى بالحرس المتنقل المؤلف من حثالة البروليتاريا. "وانتصرت الجمهورية البرجوازية. فإلى جانبها كانت تقف اريستقراطية المال والبرجوازية الصناعية والفئات الوسطى والبرجوازية الصغيرة والجيش وحثالة البروليتاريا lumpenproletatiat المنظمون في حرس متنقل (mobile guard)، والمثقفون ورجال الأكليروس وسكان الأرياف" (4). ويعرّف ماركس حثالة البروليتاريا بالمواصفات التالية: فإلى جانب "الذين بددوا اموالهم والمشكوك في وسائل معاشهم والمشكوك في أصلهم ومع المغامرين المنفلتين من أوباش البرجوازية الفاجرين كان هنالك متشردون وجنود مسرحون وزبائن سجون مطلقو السراح وهاربون من الأشغال الشاقة ونصابون ومشعوذون ومتسكعون ونشالون ومحتالون ومقامرون وقوادون واصحاب مواخير وحمالون ونساخون وضاربو ارغن وجماعو اسمال وسنانو سكاكين ولحامو معادن ومتسولون – وبإختصار كل هذا الجمهور السائب، المتنوع، غير المحدد الذي تدفعه الظروف

هنا وهناك والذي يسميه الفرنسيون: la boheme" (5).

لقد جرى الانتباه لفئات البروليتاريا الرثة بشكل واسع مع دخول بعض البلدان الأوربية المرحلة الصناعية في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، وظهور المدن الكبرى، وحتى هنا فإن دورها واهميتها اختلفت بحسب البلدان التي أنجزت بطرقها الخاصة والفريدة احياناً مرحلتها الصناعية. وتبرز هذه الفروق خصوصاً بين أهم بلدين في القارة وهما بريطانيا وفرنسا، حيث ان انتقال الفلاحين الى المدن وتحولهم الى طبقة العمال الحضرية في بريطانيا تم بشكل هادئ ومنسجم مع تطور الصناعة فيها، اما في فرنسا فقد أخذت هذه العملية ابعاداً أخرى بسبب العراقيل التي واجهت صناعتها، وكذلك لكبر حجم طبقة الفلاحين فيها. ولا شك ان وجود حثالة البروليتاريا وفعاليتها يظهر فقط في المدن، وخاصة في المدن الكبرى، فهي في هذا الخصوص من الفئات الحضرية بإمتياز.

ولم يكن في أطوار الرأسمالية الأولى أو حتى قبلها إمكانية استيعاب مدن يتجاوز عدد قاطنيها عدداً محدداً من السكان. فالمشكلة العتيدة التي استمرت لقرون عديدة منذ استقرار بعض المجتمعات الزراعية في أرض محددة بحدود القرن العاشر قبل الميلاد، كانت تتعلق بمشكلة تأمين الغذاء لسكان المدن الأولية التي كان يعتمد سكانها على المنتجات الزراعية القريبة من حولهم. فليس اعتباطاً على سبيل المثال ان حدد افلاطون الحجم الأمثل لسكان المدينة (الدولة) بـ 5040 من المواطنين فقط من دون العبيد. رغم ان هذا العدد مهم لفلسفة الرياضيات في العهد الإغريقي؛ حيث انه يقبل القسمة من كل الأعداد من 1 الى 10 من دون ان يبقى له باق كما يقبل القسمة على العدد 12 الذي كان له رمز ديني واسطوري لليونان القديمة، لكنه يدل ايضاً على ان عدد سكان المدينة شغل جميع فكر الفلاسفة والمفكرين لغاية العصر الصناعي.

لم تكن المدن ممكنة قبل اكتشاف الزراعة واستقرار الناس في المكان، قبلها كانت هناك جماعات هائمة يجمعها الصيد والقنص من أجل الحصول على غذائها. ومنذ ذلك الحين كانت مشكلة العدد المناسب للجماعة من المسائل المهمة التي تقرر بالتالي مسألة استمرار الجماعة وإمكانية بقائها، فلم يكن بالإمكان زيادة عدد أعضاء مثل هذه الجماعات عن العشرة او العشرين من الرجال والنساء، ولا يتم قبول اعضاء جدد بسبب ندرة مصادر الصيد وصعوبته. فكانت تهيم في الارض من مكان الى آخر للحصول على غذائها. كما لم يوجد بينهم اي نوع من تقسيم العمل، فلا وجود لزعيم او رئيس، ويتقاسمون ما يحصلون عليه بالتساوي، إذ ان اي نوع من عدم التساوي يعني موت بعض افرادها بسبب الجوع. وربما عنى ماركس بمثل هذا النوع من التشكيلات الاجتماعية الأولية بالشيوعية البدائية.

ومع ظهور الزراعة واستقرار الناس في المكان لفترة قبل ان تبور الأرض الزراعية والتفتيش عن اخرى، وامكانية تراكم فائض الانتاج الزراعي وحفظه لمواسم قادمة، اصبح من الضروري إجراء نوع من تقسيم العمل، بحيث اصبح بإمكان الجماعة التخلي عن بعض افرادها من العمل بإنتاج الغذاء لأعمال أكثر اهمية لبقاء الجماعة. أولى الوظائف التي جرى تحريرها من الانتاج المباشر للغذاء كانت وظيفة الحارس

او الحراس الذين يحرسون مخازن تجميع الفائض الزراعي ويصدون هجمات الجماعات الهائمة الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على هذه المخازن. وهكذا كان لبناء مخازن للمحاصيل الزراعية الفائضة عن الحاجة وتسييج ارض الجماعة بأسوار محكمة وحراستها من المهام الأساسية للجماعات الزراعية الأولية.

وكانت مدن العصور الوسطى منظمة بشكل دقيق من حيث موقعها وعدد سكانها وترتيب خارطتها ودور سكن فئاتها المختلفة. فمركز المدينة كان على العموم يتكون من باحة او ساحة تقع فيها الكنيسة والمباني العامة وتحيط بهم دور سكن الأغنياء ويليها سكن الفئات الأقل ثروة ثم يتبعها سكن المهنيين والعمال الذين تحتاجهم المدينة. "كان من الممكن ان يتجول الفرد في بضع دقائق من ساحة الكنيسة المحاط بها المباني العامة والمرور بمنازل الوجهاء للوصول الى الحقول" (6). وكان من المهم ان تكون المدينة مسورة ولها بوابات تغلق ليلاً. ويفضل ان تقع المدينة قرب منبع مائي نهري او بحري، بحيث يحيط بها الماء من ثلاثة اتجاهات، وذلك لأهميته من حيث الدفاع عن المدينة في زمن الحرب. كما ينبغي ان يكون خارج أسوار المدينة ارض زراعية خصبة تؤمن الغذاء لسكان المدينة.

وبقي الاهتمام بموقع المدينة وتقسيمها وتنظيمها واسوارها وعدد سكانها يشغل اهتمام قادة المدن وأثريائها لغاية مطلع الثورة الصناعية الأوروبية في القرن الثامن عشر. وبالرغم من ان النظام الإقطاعي الأوروبي كان يشجع الفلاحين على البقاء في الأرض وزراعتها سواء بالقوة ام عن طريق المغريات التي وصلت الى زيادة حصة الفلاحين من المحصول، ووصل الأمر في نهاية العهد الإقطاعي بأن تم دفع حصص الفلاحين نقداً. لم تكن مدن ما قبل الثورة الصناعية على استعداد لقبول هجرة الفلاحين، لصعوبة توفير الغذاء الكافي لهم. ولأجل ذلك قامت ثورة زراعية سبقت الثورة الصناعية، من خلال استخدام اساليب وتكنولوجيات جديدة في العمل الزراعي، كما ساهمت التجارة مع ما وراء البحار والمستعمرات بتوفير الغذاء الكافي لتحرير الفلاحين من العمل الزراعي وانتقالهم للمدن الصناعية الجديدة. وحتى المدن الصناعية الأولى كانت محددة بالمكان من حيث ان تكون قريبة من الأنهر او البحار، وذلك لاستخدامات الطاقة البخارية آنذاك ولغرض سهولة نقل البضائع عبر الأنهر والبحار.

لا يشكل الناس الهامشيون في المدن طبقة بحد ذاتها بل انهم فئات اجتماعية من بقايا الطبقات الذين تغيرت مكانتهم في المجتمع، أغلبهم من أصول فلاحية. وليس بالضرورة ان تكون هذه الفئات فقيرة، بمعنى انها لا تمتلك قوتها اليومي، بل ان من بينهم من يملك ثروات طائلة بحيث لا يمكن مطلقاً وصفهم بالفقر. ان ما يجعلهم في منزلة واحدة تقريباً هو ثقافتهم واسلوب معيشتهم وطريقتهم في كسب المال، التي لم تكن دائماً مشروعة، كما تضم هذه الفئة ايضاً العاطلين عن العمل او الذين يرفضون العمل او العمال المؤقتون الذين يغيرون عملهم بحسب الحاجة والطلب.

وهناك اشارات واضحة الى وجود هذه الفئات في كل المراحل التي سبقت الرأسمالية الصناعية. فإفلاطون في "الجمهورية" بمعرض حديثه عن الديمقراطية، كان قد أطلق على هذه الفئات نعت ذوي "العلة الطفيليون" parasitic drones، فكتب

بأنه بالتناقض مع "الشعب" الذي يطمح بالضرورة الى "الانتاج لأنهم جديرون به"، فأن ذوي العُلة يكونون "حشد من طموحات غير نافعة". وقصد افلاطون بهذه الفئة العبيد والمرتزقة الأجانب "الرعاع السابحون في كل البحار"، الأشرار المحرضون للشعب ضد الأغنياء. ويخلص افلاطون الى ان ذوي العلة لا يندمجون في اي جسم سياسي سليم، بل ينبغي استئصالهم منه؛ "انهم يهيجون النظام برمته مثل الصفراء والبلغم في الجسم، وينبغي على الطبيب الماهر والمشرع ان يحتاطوا منهم، مثل مربي النحل الحكيم الذي يحتاط من عضاتهم، وإذا ما فعلوا ذلك، ينبغي التخلص منهم ومن خلاياهم" (7) .وجاء مصطلح الرعاع mob من الأصل اللاتيني mobile vulgus، الذي يعني ايضاً الناس العاديين المتمردين أو المشاغبين. وخلال مراحل تاريخية كبيرة قبل الرأسمالية ظهرت هذه الفئات في المدن بين اوساط الفقراء والمتسولين والقوادين والمقامرين واللصوص وقطاع الطرق والقتلة وغيرهم، إلا ان دورهم كان محدوداً بفعل ندرة حركة الناس جغرافياً، وصغر المدن وأسوارها وتنظيمها المتقن وحذرها من المتطفلين والغرباء. لكن الظروف التي جاءت بها الرأسمالية في اطوارها الأولى من ازدياد حجم سكان مدنها، وهجرة سكان الريف الواسعة لها، وازدياد الفوارق بين دخول افرادها، وإفقار شرائح واسعة من سكانها، جعل هذه الفئات تلعب دوراً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً مميزاً. ولم يكن من الممكن دراسة هذه الفئات، إلا بعد ان اصبحت ظاهرة متأصلة في الطور الأول من الرأسمالية. لكن التطور الرأسمالي اللاحق كان قد ادمج الجزء الأكبر منها، من خلال تحويلهم الى الطبقات الحديثة للمجتمع الصناعي، وعلى الخصوص الى الطبقة العاملة.

ظهر الاهتمام في دراسة دور "الفئات الهامشية" او "الرثة" في منتصف القرن التاسع عشر، عندما اصبح لهذه الفئات دور سياسي مؤثر في التغيير السياسي الذي عرفته المجتمعات الأوروبية في تلك المرحلة، خاصة فرنسا التي واجه تحولها نحو الصناعة مشاكل وتعقيدات متميزة. ومما اعطى هذه الفئة امتيازاً يعود الى ان الصراع بين الطبقات والفئات والنخب السياسية الفرنسية الذي اخذ بسرعة قالباً راديكالياً حاداً، وكذلك بسبب وجود طبقة فلاحية كبيرة نسبياً. وربما تتمحور أغلب هذه الدراسات حول مفهوم "البروليتاريا الرثة" Lumpenproletariat لماركس، لكن هذا لا يعني بأن فلاسفة ومفكرين قبل ماركس كانوا قد اشاروا في كتاباتهم الى هذه الفئة. (هيغل) في إطار مناقشته حول الثروة والفقر في كتابه "فلسفة الحق"، كان قد أكد أنه من الممكن لنوع معين من الجمهور، تهديد النظام السياسي والاجتماعي القائم". ويتكون هذا الجمهور من الجماعات الكسولة والهامشية ومن الأقليات. وكتب بأن "الفقر في حد ذاته لا يحول الإنسان الى غوغاء، يظهر الغوغاء فقط عندما يرتبط الفقر باستعداد عقلي، مثل السخط الداخلي ضد الأغنياء وضد المجتمع وضد الحكومة،.." (8). كما وردت الاشارات لهم في كتابات روسو وتوماس بين وسان سيمون وباكونين وفانون وغيرهم، ولدى بعضهم حصل خلط واضح بين مفاهيم "الشعب" و"الرعاع" التي تداخلت لوصف هذه الفئات. فالمفكرون اليساريون المؤيدون للثورة اطلقوا عليهم

نعوتاً ايجابية كالشعب او الجماهير. وقد نعتهم المؤرخ هيبليت تاين Hippolyte Taine في كتابه "تكوّن فرنسا المعاصرة" بـ"الكسولين، والفاسقين، والمقامرين المحترفين، والمخادعين، والطفيليين، والمغامرين، والأشقياء، والمتمرسين في الرذيلة والجريمة،.. ودهماء المدن،.. والفلاحين الكارهين دفع رسوم الدخول، والمشردين، والمهربين، والهاربين من العدالة، والهائمين الأجانب، والسلابين، والمجرمين" (9).

وقد استعيض اليوم عن مفهوم "البروليتاريا الرثة" بمفاهيم سوسيولوجية حديثة مثل: الحشد crowd والرعاع او الغوغاء mobs وفقراء المدن urban poverty والطبقات الدنيا – unde classes والطبقات الخطرة – dange ous classes والغرباء او اللامنتمون outsiders وأولاد الشوارع الشعبية streetfolk والمحرومون اجتماعياً – s cial outcasts والرواسب الاجتماعية social rsiduum، وغيرها. وربما ان اهم ما يميز هذه الفئات هو سلوكها الواقع في إطار ما يسمى بالسلوك الجمعي.

وينشط السلوك الجمعي colle– tive behavior عند اجتماع عدد كبير من الناس في مكان واحد، يواجهون فيها ظروفاً استثنائية غير عادية (10). ويشبه السلوك الجمعي السلوك المنظم من حيث تضمنه تفاعل مجموعة من الناس سوياً، لكنه يختلف عنه بعفويته واوضاعه المتغيرة باستمرار، مما يصعب أو يقلل إمكانية التنبؤ به. وإذا كان سلوك الافراد المنظم محددا بجملة من الضوابط والآليات كالقيم والمعايير والدوافع وغيرها، فأن السلوك الجمعي هو الآخر محدد بضوابط مماثلة. ويتمثل التباين بين السلوكين في ان السلوك المنظم هو سلوك يومي متكرر يواجه فيه الفرد اوضاعاً مألوفة متكررة. اما السلوك الجمعي فيقوم في ظل اوضاع استثنائية غير عادية وغير متكررة. فيظهر سلوك الناس الجمعي "لحصول خطأ ما في بيئتهم الاجتماعية. فالناس يفزعون، مثلاً، لمواجهتهم بعض الأخطار الشديدة. وينغمسون في حالات من الحماس والاهتياج والبدع بسبب الضجر مما يدور حولهم. ويقومون بالشغب لمواجهتهم أوضاعاً من الحرمان الحاد كارتفاع الأسعار التضخمي. وينضمون الى الحركات الثورية والإصلاحية لمعاناتهم من اوضاعهم الاجتماعية السائدة" (11). وينشط السلوك الجمعي في فترات التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويزداد فعالية في اوقات الأزمات عندما يضعف الثبات الاجتماعي أو عند اختلال النظام المعياري normative order في المجتمع أو عند عجز البنية الاجتماعية عن استيعاب التغييرات الجديدة.

إن احدى المميزات السياسية للفئات الواقعة تحت تأثير السلوك الجمعي هو استعدادها للانقياد وراء الحركات المتنفذة أو الشخصيات الكارزماتية، فيكفي ذكر بضع كلمات أو القيام بإيماءات معينة حتى تفقد هذه الجموع اتزانها وتتحول الى حشود فاعلة مستعدة لتدمير كل ما هو امامها. فهناك دائماً "كلمة" أو "صورة" أو "رمز" لها مفعول "كلمة السر" تسري بين جموع هذه الفئات وتنتشر بينهم بسرعة مذهلة، فتصبح دليلهم في إجلاء الغموض عن الاوضاع الاستثنائية أو غير العادية المحيطة بهم. "لبعض الألفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه

الدليل. الفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فمه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراماً، ويعتقد كثيرون ان فيها قوة إلهية" (12).

ولم تمر بلدان العالم الثالث بمثل هذه الأطوار التي عرفتها مدن أوروبا، فقد تمت هجرة سكان ارياقها الى المدن في الربع الأول او الثاني من القرن العشرين، بسبب إغراءات المدن الجديدة من حيث توفرها على العمل وبسبب تدهور القطاع الزراعي بالمقارنة مع بقية القطاعات الاقتصادية، واكتظاظه بالسكان الذين اصبحوا يشكلون فائضاً وعبئاً عليه. ولم تواجه مدن العالم الثالث مشكلة توفير الغذاء، فقد عنيت بها التجارة الخارجية التي اصبحت الآن مزدهرة بفضل السوق العالمية التي تزود بلدان العالم بكافة المنتجات ومنها الزراعية، طالما يتوفر النقد المطلوب. علماً ان أغلب بلدان العالم الثالث كانت قد تحولت الى بلدان زراعية مصدرة لمنتجاتها نتيجة لتقسيم العمل الدولي الذي وضعته بلدان المتروبول في فترة الاستعمار.

وهكذا ظهر دور "فقراء المدن" حديثاً في بلدان العالم الثالث مع ظاهرة التحضر الواسعة والسريعة التي بدأت منذ منتصف القرن العشرين والمقترنة بزيادة سكان المدن (الحضر) بفضل الهجرة الريفية الواسعة لها. وحتى هنا فإن الدور الذي تلعبه هذه الفئات يختلف كلياً عن سلفها التي لعبته في البلدان الرأسمالية، وذلك بسبب اختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة ببلدان العالم الثالث عن تلك التي شهدتها البلدان الرأسمالية، وأهمها أن بلدان العالم الثالث لم تمر بمرحلة الثورة الصناعية. إلا ان في كلاهما ظهرت اهمية هذه الفئات في المراحل الانتقالية التي لم تتوفر فيها بعد الآليات التي تدمج فيها هذه الفئات بطبقات المجتمع الحديث (الحضر)، والى ظروف الاختلالات غير العادلة في توزيع الموارد. وإذا كان ارتباط فقراء المدن في البلدان المتقدمة مع الصناعة في مراحلها الأولية، فأن ارتباطها في بلدان العالم الثالث مع الهجرة الريفية الواسعة وجذب المدن لأهل الريف.

وتركت الهجرة الكثيفة من الريف الى المدن آثارا وظواهر بليغة ومركبة: كمشكلة السكن واكتظاظ المدن والازدحام وزيادة معدلات الجريمة، وتردي الخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم وغيرها. كما كان لهذه الظاهرة أثر مميز على المستوى الثقافي حيث تراجع مضمون الحياة الحضرية الحديثة (13) لصالح قيم ومعايير الريف التقليدية والمتخلفة. او بكلام آخر تراجع ثقافات الطبقات الوسطى المدينية لصالح ثقافة فئات فقراء المدن ذات الاصول الريفية. وسياسياً، ادت هذه الظاهرة الى تهميش دور المواطن تجاه الدولة، حيث فقد امامها الكثير من حقوقه السياسية، وتحول الى "نفر" بين جموع غاضبة لا تفهم لغة اخرى غير العنف، وفرض عليهم الانتماء الى جماعات تدعو الى تحقيق اهدافها بالقوة.

إن تكدس المهاجرين الريفيين في أحياء فقيرة تفتقد الخدمات الأساسية تحيط بالمدن الكبرى أو بالقرب من مركزها، جعلتهم يكونون ثقافة فرعية متميزة تختلف عن كلتا الثقافتين المدينية والريفية، إن صح التعبير. واجتماعياً، لا تنتمي هذه الفئات الى احدى الطبقات الاساسية المتواجدة في المدن، بل تبقى مستقلة عنها، ذلك ان من اهم خصائص هذه الفئات هي طبيعتها

الانتقالية، غير المستقرة.
تواجه بلدان العالم الثالث اليوم مهمة صعبة تتعلق بدمج فئات فقراء المدن بسكان المدينة وبالتالي بالمجتمع الأوسع. وتصبح هذه المهمة معقدة بسبب هلامية التطور الاقتصادي في هذه البلدان وعدم وجود آليات ناجعة لدمج هذه الفئات في المجتمع، فتبقى هذه الفئات مستقلة ومحافظة على تقاليدها وثقافتها الفرعية. وهكذا فإن العنف والجريمة اصبحت من صفات المدن القصديرية التي تعج بها بعض بلدان العالم الثالث. ولخص تقرير لجنة "إدارة شؤون المجتمع العالمي" مشكلة التحضر في بلدان العالم الثالث باعتبار ان معدلات التحضر لا تتناسب ومعدلات التصنيع والتمدن، "فالمدن تجتذب السكان في مرحلة تسبق قدرتها الاقتصادية على توفير فرص العمل، والمساكن والصرف الصحي، والخدمات الاساسية الاخرى. وهذا هو السبيل نحو التدهور الحضري، وما يعقبه من توترات اجتماعية وجرائم، وغيرها من المشكلات" (14).
ولا شك أخيرا ان ظهور "الإسلام السياسي المتطرف" في المدن الاسلامية والعربية، لهو شكل آخر لظاهرة حثالة البروليتاريا الذي قصده ماركس.

الهوامش:

(1) Eric Hobsbawm,'The Age of Revolution 1789-1848', Weidenfeld & Nicolson, London 1995, p.24

(2) Peter Hayes, "The people and the mob: the ideology of civil conflict in modern Europe", PRAEGER Westport, Connecticut – London, 1992, pp.33

(3) ماركس، أنجلس، مختارات، الجزء الأول، دار التقدم ، موسكو، ص60.

(4) ماركس، مصدر سابق ص 148.

(5) ماركس، مصدر سابق، ص203.

(6) Eric Hobsbawm,ibid, p.11

(7) Peter Hayes,ibid, pp.xv

(8) Ibid, P.Hayes, pp.8,

(9) Hippolyte Adolphe Taine,'The Origins of Contemporary France', The French Revolution, 2 Vols., trans. John Durand, Henry Holt, New York 1896, pp.125-26

(10) يقصد بالسلوك الجمعي، سلوك الناس الجماعي في الحشود crowds، وحالات الفزع panics والبدع fads والتقليعات fashions وحالات الحماس والإهتياج crazes والوله cults وغيرها. كما يظهر في الظواهر الأكثر تنظيماً كالحركات الاجتماعية social movements سواء الثورية منها أم الإصلاحية. انظر: Encyclopaedia B-ritannica, volume 16, 15th edition, Chicago 1991, p.556

(11) Neil J Smelser, 'Theory of Collective Behavior', Routledge & Kegan Paul, London 1962, p.47

(12) غوستاف لوبون، "روح الاجتماع"، ترجمة احمد فتحي زغلول باشا، موفم للنشر، الجزائر 1988، ص 116.

(13) ويشير مفهوم الحضرية Urbanism الى اسلوب معيشة سكان المدن من حيث ثقافتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وقيمهم وغيرها التي فرضتها ظروف عيشهم المشترك ضمن المدينة الواحدة.

(14) "جيران في عالم واحد"، نص تقرير "إدارة شؤون المجتمع الدولي" وسلسلة عالم المعرفة، الكويت 1995، ص 49 – 50.

الازمة المالية في العراق والقرض الدولي - الأسباب والحلول

أ.د. حاكم محسن محمد الربيعي/ أكاديمي

حاكم محسن الربيعي، دكتوراه في فلسفة إدارة الاعمال، عمل رئيسا لقسم إدارة الاعمال – كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة كربلاء لمدة ثماني سنوات، وعميدا للكلية لمدة زادت على خمس سنوات. عضو الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية في القاهرة، وجمعية الاقتصاديين العراقيين، والنقابة الوطنية للصحفيين العراقيين. شارك د. الربيعي في العديد من المؤتمرات العلمية العربية والدولية. كما نشر اكثر من 80 بحثا ودراسة ومقالة في مجلات محلية وعربية ودولية، وله خمسة مؤلفات في حقل الاختصاص. كما اشرف على العديد من اطاريح الدكتوراه والماجستير. وهو عضو هيئة استشارية في مجلات عديدة.

الازمة المالية – يقصد بالأزمة المالية على مستوى الدولة هي عدم قدرة الدولة على تلبية الالتزامات المالية المترتبة عليها في داخل البلد والالتزامات المالية المترتبة عليها خارج البلد، وابرز الالتزامات المالية في الداخل هي رواتب ومخصصات العاملين في أجهزة الدولة المدنية والعسكرية والمتقاعدين وأية التزامات ترتبت على الدولة لأي سبب كان، كالمشروعات الاستثمارية او مشروعات الخدمات. اما خارجيا فابرز أنواعها هي الالتزامات المترتبة عن ديون الدولة من ديون سابقة ناتجة عن حروب الفترة قبل عام الاحتلال، او ديون ترتبت على الدولة للفترة اللاحقة، إضافة الى مشتريات الدولة باختلاف أنواعها. وقد واجه العراق الازمة المالية بعد انخفاض أسعار النفط مباشرة بسبب الاعتماد الكلي على النفط.

أ: أسباب الازمة المالية

من أسباب الازمة المالية في العراق هي:

1 – انخفاض أسعار النفط – أدى انخفاض اسعار النفط الى مواجهة العراق للأزمة المالية بسبب اعتماده بشكل أساسي وكمصدر وحيد للموازنة العامة؛ اذ لم تشكل المساهمات القطاعية الأخرى الا نسبة ضئيلة. وكان العرض المتزايد للنفط في العالم السبب الأساسي لانخفاض الأسعار. ويوضح الجدول (1) والجدول (2) الطلب العالمي على النفط وحجم العرض بالمقابل.

جدول (1)

الطلب العالمي على النفط

World demand (mb/d)	2011	2012	2013	2014
OCED	46.4	45.9	46.1	45.8
OCED America	24.0	23.6	24.1	24.2
OCED Europe	14.3	13.8	13.7	13.5
OCED Asia pacific	8.2	8.5	8.3	8.1
DCS	27.3	28.3	29.0	29.8
FSU	4.3	4.4	4.5	4.5
Other EUROPE	0.6	0.6	0.6	0.7
China	9.4	9.7	10.1	10.5
(a)Total world demand	88.1	89.0	90.3	91.3

المصدر : Annual Statistical Bulletin , opec , 2015

جدول (2)

العرض الكلي من النفط عالميا

Non-OPEC supply (mb/d)	2011	2012	2013	2014
OECD	20.2	21.1	22.2	24.1
OCED America	15.5	16.7	18.2	20.0
OCED Europe	4.1	3.8	3.6	3.6
OCED Asia pacific	0.6	0.6	0.5	0.5
DCS	12.6	12.1	12.1	12.4
FSU	13.2	13.3	13.4	13.4
Other EUROPE	0.1	0.1	0.1	0.1
China	4.1	4.2	4.2	4.3
Processing gains	2.1	2.1	2.1	2.2
Total non-OPEC supply	52.4	52.9	54.3	56.5
OPEC NGLs+ NCOs	5.4	5.6	5.6	5.8
(b) Total non-OPEC supply and OPEC NGLs+ NCOs	57.8	58.5	60.0	62.3
OPEC crude oil production	29.8	31.2	30.2	30.1
Total supply (mb/d)	87.6	89.6	90.2	92.4

المصدر: Annual Statistical Bulletin , opec , 2015

1 – سوء إدارة المال العام – بسبب ارتفاع أسعار النفط خلال الفترة التي أعقبت عام الاحتلال، تزايدت الإيرادات النفطية ما اشعر الحكومة بالاستقرار النفسي في الأقل، الامر الذي جعلها لا تفكر بتطوير القطاعات الاقتصادية الأخرى، او هي اجندة مخطط لها، لكن البعض يقول لسنا بصدد كيل الاتهامات، ولكن عندما يكون الاتهام من مصدر او مسؤول كبير في الدولة، علامَ المجاملة؟ هم يقولون سوء الإدارة، وعندما يسأل هذا المسؤول من؟... يقول الجميع بدون تحديد لجهة معينة. ويوضح الجدول (3) انتاج واستهلاك وصادرات النفط الخام وسوائل الغاز في العراق للمدة من 2010 – 2014.

جدول (3)

حجم الإنتاج والاستهلاك المحلي والصادرات والايرادات للسنوات 2010 – 2014

السنة	2010	2011	2012	2013	2014
الإنتاج/ الف برميل/ يوم	2403.0.	2403.0	2698.0	2983.0	3153.0
استهلاك النفط/ الف برميل مكافئ نفط /يوم	513	239	268	594	639
صادرات النفط الخام / الف برميل / يوم	1890.0	2164.0	2430.0	2389.0	2514.0
الإيرادات النفطية/مليار $	52.483	83.226	94.382	89.742	85.298

المصدر: التقرير الاحصائي السنوي – منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول (اوابك) – 2015.

ان الإيرادات النفطية لعام 2014 بلغت 85.296 مليار دولار، وهي إيرادات ليست قليلة قياسا بدول الجوار التي لا تصل ميزانيات بعضها الى ربع موازنة العراق، لكن الاثقال الكبير على الموازنة من خلال النفقات المرتفعة، يشكل تحديا كبيرا للموازنة وللقائمين على إدارة المال العام. وهكذا أهدرت الأموال بشكل كبير دون حساب.

اما عن الموازنة العامة لسنة 2016، فيوضح الجدول (4) انه ورغم مرور ثلاثة عشر عاما، لم يجر تأهيل أو تطوير القطاعات الاقتصادية، بحيث كانت نسبة مساهمة هذه القطاعات متدنية والتي كانت اعلى مساهمة للقطاع النفطي بلغت 85.4% بينما كانت نسبة المساهمة للقطاعات الأخرى 15.6% توزعت كما موضح في الجدول (4) حيث بلغت مساهمة القطاع العام 3.7% وكانت مساهمة الضرائب والرسوم 8.9%. ويؤشر ذلك مدى الإهمال الذي تعرضت اليه القطاعات الاقتصادية وهي قطاعات كانت مساهمتها هي الأكبر، الأمر الذي يتطلب من الدولة إيلاء هذه القطاعات الأهمية التي تستحق نظرا لأهميتها، كالقطاع الزراعي والقطاع الصناعي وهي قطاعات كانت شغالة قبل عام الاحتلال برغم استمرار الحصار لثلاثة عشر عاما.

جدول (4)

نسبة مساهمة القطاع النفطي والقطاعات الاقتصادية الأخرى في الموازنة العامة

ت	العنوان	المبالغ/ الف دينار	المبلغ/ مليون $	نسبة المساهمة %
١	الإيرادات النفطية والمعدنية	٦٩٧٧٣٤٠٠٠٠٠	٥٥٨١٨.٧	٨٥.٤
٢	ضرائب الدخول والثروات	٣١٠٣٢٨٢٩٣٧	٢٤٨٢.٦	٣.٧
٣	ضرائب ورسوم سلعية وانتاجية	٣٥٨٩٧٤٨٢٣٦	٢٨٧١.٨	٤.٤
٤	الرسوم	٦٨٨٧٧٠٠١٢	٥٥١	٠,٠٠٨
٥	حصة الموازنة من أرباح القطاع العام	٣٠٠٢٠٧١٣٧٤	٢٤٠١.٧	٣.٧
٦	الإيرادات الرأسمالية	١٢٥١٢٣٥٠٤	١٠٠.١	٠.٠٠١٥
٧	الإيرادات التحويلية	٢٣٩٨٠٧٢٧٤	١٩١.٨	٠.٠٠٢٩
٨	إيرادات أخرى	٢٠٧٨٥٩٩٨٠١	١٦٦٢.٩	٢.٥
٩	المجموع الكلي	٨١٧٠٠٨٠٣١٣٨	٦٥٣٦٩.٦	١٠٠
١٠	سعر الصرف لكل ١$	١.٢٥		

المصدر : قانون الموازنة العامة العراقية لسنة 2016.

3 – الفساد المالي والإداري: تفشي هذه الظاهرة بشكل كبير في مفاصل الدولة وبمختلف الاشكال. هذه الظاهرة لا تقتصر على مفصل معين دون اخر، بل شاعت في كل الوزارات والدوائر المستقلة والجيش والأجهزة الأمنية. وتشير تقارير هيئة النزاهة الى كبر حجم الفساد وبعض حالات الفساد تم غلق الدعاوى المقامة عليها، وأخرى صدرت قرارات اعفاء عن مرتكبيها برغم حجم الفساد، لان المرجع لا يوافق والمرجع هو الوزير (1).

4 – إثقال الموازنة العامة بتكاليف لا ضرورة لها، توجد حلقات زائدة يمكن الاستغناء عنها، وفي ذلك فوائد إيجابية مادية ومعنوية، عند زوال هذه الحلقات:

4-1 هيئة الحج والعمرة.

4-2 دواوين الوقف (سني وشيعي ومسيحي وايزيدي)، مع وجود مديريات اوقاف في المحافظات، مع استمرار وجود مديريات الأوقاف.

4-3 هيئة النزاهة

4-4 هيئة المساءلة والعدالة.

4-5 وزارة حقوق الانسان.

4-6 وزارة الهجرة والمهجرين.

4-7 حمايات المسؤولين.

4-8 حمايات رؤساء الكتل السياسية.

4-9 المنح التي تقدم الى بعض أصحاب الكتل السياسية وبعض افرادها؛ أعضاء داخل الكتلة يمنحون مبالغ كبيرة تحت مسمى "منافع اجتماعية".

4-10 مكاتب المفتشيات في الوزارات والدوائر المستقلة.

4-11 مؤسسة الشهداء مع مكتب المفتش العام.

4-12 مؤسسة السجناء مع مكتب المفتش العام.

4-13 مديرية نزع السلاح ودمج الميليشيات.

4-14 المجالس المحلية في المحافظات،

ونظيرها في الاقضية والنواحي.
4-15 هيئات الاستثمار في المحافظات.
4-16 مكتب المفتش العام لهيئة الحج.
4-17 مكتب المفتش العام لامانة بغداد.
4-18 مكتب مفتش عام البث والارسال.
وكانت النفقات المقترحة لهذه الدوائر في موازنة 2015 و2016 أرقاما عالية يمكن ان تساهم في تأهيل قطاعات اقتصادية، وتشغيل اعداد ليست قليلة من العاطلين. وهذه الدوائر ليست ذات فائدة تذكر للدولة، وبعضها يمكن الاستعاضة عنها بشعب او مديريات عامة ضمن الوزارات المختصة، وبالتالي التخفيف من ضغط انفاق غير مبرر (2).
4-19 النفقات التي تتحملها الموازنة بسبب ارتفاع تكاليف غير ضرورية، كالايفادات وما يترتب عليها من تكاليف مرتفعة، بسبب عدد الموفدين دون الحاجة للعدد الكبير الذي يشكل الوفد. وكان الايفاد مكافأة، وليس لغرض انجاز اعمال او مهمات ذات أهمية بالنسبة للدائرة الموفدة.
5 – سوء إدارة تحصيل الايرادات الأخرى، كإيرادات المطارات المناطة بعضها بجهات غير متخصصة أولا ولا علاقة لها بأدنى مستوى مما تعنيه كلمة مطار، وهي مبالغ كبيرة وعدم فرض رسوم كمركية على البضائع المستوردة، والسبب ان بعض التجار هم من المسؤولين ومتنفذين بشكل يحد من قدرة الحكومة على فرض الضرائب او الرسوم الكمركية، والتلكؤ باستيفاء وجباية مستحقات الدولة، من ضرائب بيع العقارات والسيارات والاستيراد وضرائب السفر...الخ، من مصادر متعددة، وعدم تمكن الحكومة من تنظيم العلاقة مع إقليم كردستان واحكام التنسيق بشكل يحسن العلاقة بين الطرفين ويعطي لهذه المحافظات الاستحقاق اللازم دون أزمات، كتنظيم العلاقة في ما يتعلق بانتاج وتصدير النفط وفقا للدستور أينما يكون النفط هو ملك للشعب العراقي.
6 – النفقات التي تتحملها الدولة بسبب الحرب على داعش من انفاق على السلاح ورواتب عناصر الحشد الشعبي ونفقات ترتبت بسبب تزايد النازحين.
7 – اهمال الدولة للقطاعات الاقتصادية الأخرى، ما أدى الى إما عدم مساهمتها في الإنتاج المحلي او انخفاض نسبة المساهمة الى ادنى المستويات التي لا تستحق الذكر.
8 – منح الرواتب التقاعدية بداية الفترة التي أعقبت عام الاحتلال بشكل مثير للاستغراب بل ومنح مبالغ كبيرة الى البعض، سميت "تعويضات"، ومن هذا البعض هو من اختار الهجرة بحثا عن زيادة في الدخل، وبالتالي ليس متضررا او مهجرا.
9 – ازدواجية منح الرواتب، اذ ان البعض شغل مناصب معينة لفترات قصيرة بينما منحوا راتبا تقاعديا خياليا، قياسا لما يحصل عليه موظفون انهوا اكثر من أربعين عاما ولا تصل رواتب بعضهم عشر رواتب هذا النوع من أصحاب الرواتب العالية، وعادوا للمناصب مرة أخرى، ومنحوا رواتب جديدة مع استمرار الراتب التقاعدي المشار اليه، أي دولة واي عالم هذا، واي عدالة هذه؟!

ب- قرض صندوق النقد الدولي

أوضح بيان صحفي صدر عن صندوق النقد الدولي يوم 19 /5 / 2016 بانه تم التوصل بين السلطات العراقية وخبراء صندوق النقد الدولي الى إمكانية حصول العراق على قرض من الصندوق بمبلغ5.4 مليار دولار خلال ثلاث سنوات، يقابل 3.894 مليار وحدة حقوق سحب خاصة وفق شروط (3)، وان هذا القرض يستوجب اكمال بعض المتعلقات او بعد الانتهاء من الاطار العام للاقتصاد الكلي وضمانات التمويل. وكان العراق قد حصل على ائتمان بمقدار 3.7 مليار دولار، وهو ما يعادل 200% من حصة العراق في الصندوق، انتهت صلاحيته في 23 شباط 2013. كما استلم العراق1.2 مليار دولار صرفت من قبل العراق في تموز 2015 وتحدث رئيس فريق صندوق النقد الدولي عن معاناة العراق من حرب داعش ومتطلبات الانفاق على هذه الحرب المستمرة وتزايد اعداد النازحين، التي ارتفعت على أربعة ملايين فرد، وأشار رئيس الفريق الى هبوط أسعار النفط، الامر الذي أوقع العراق في ازمة مالية. ولخص شروط صندوق النقد الدولي بانه اتفق مع العراق على برنامج إدارة المالية العامة ودعم استقرار القطاع المالي وكبح الفساد. هذا ما تضمنه البيان الصحفي ويمكن تلخيص هذه الشروط مفصلا وكالاتي:

1 – مراقبة ديوان الرقابة المالية وهيئة النزاهة وأجهزة مكافحة غسيل الأموال في التصرفات المالية.

2 – تسوية طلبات الشركات النفطية وعدم السماح بتراكمها والبالغة 6.4 مليار دولار.

3 – فرض ضريبة على الدخل الإجمالي لكبار الموظفين، اما صغار الموظفين فتسري عليهم الضريبة العادية السارية على الراتب الاسمي فقط واستثناء القوات المسلحة ومخصصات صغار الموظفين وتتراوح بين 7.5 – 15 بالمائة.

4 – معالجة العجز في الموازنة من الاحتياطي البالغ 59 مليار دولار حاليا بعد ان تعدى 80 مليار دولار، وهذا يعني انخفاض الاحتياطي الى 43 مليارا، كما يشير الى ذلك صندوق النقد الدولي، أي انه يكفي لخمسة اشهر استيراد، كما جاء في بيان الصندوق.

5 – من ضمن ما سمي إصلاحات اقتصادية، زيادة الضرائب ورسوم الكهرباء، اذ سيتم التعامل بشكل تصاعدي مع تسعيرة الكهرباء لما زاد عن 600 كيلو واط.

6 – مراجعة رواتب كبار الموظفين المضخمة والقضاء على ظاهرة منح الرواتب لمن لا يأتون لقضاء أعمالهم.

7 – اقتصار التعيينات على دوائر الصحة والتعليم والأجهزة الأمنية.

8 – إعادة هيكلة شركات التمويل الذاتي والتي يصل عدد العاملين فيها حوالي 550000 موظف (4).

9 – رفع كفاءة أداء الأجهزة المالية والرقابية في البلد وفرض رقابة صارمة على أبواب التصرف بهذا القرض.

ج- إمكانية الحلول

ان حل الازمة المالية على المدى القصير غير ممكن، وما يحصل من إجراءات هي مهدئات، وكما يبدو حتى للناس البسطاء ان آثار هذه الازمة انعكست على أصحاب

المداخيل المنخفضة وموظفي الدولة أصحاب الدخول الدنيا من خلال فرض ضريبة على الرواتب وهو اجراء لم يألفه العراقيون على مر السنين، إلا ان بعض الإجراءات التي لو تم اعتمادها يمكن ان تساهم وعلى المدى المتوسط في اقل تقدير.

1 – إيقاف منح ما يسمى بالمنافع الاجتماعية التي يجري منحها لأصحاب الكتل السياسية وغير السياسية باختلاف مسمياتها ككتل وكأحزاب او افراد؛ اذ ان هذا الامر غير مألوف وهو من ابداعات الفترة التي أعقبت عام الاحتلال، كما لم يكن معروفا من قبل في دول أخرى، فأي ابداع في بعثرة ثروة الشعب.

2 – تقليص حمايات مسؤولي الكتل السياسية او الأحزاب او الافراد من نواب ووزراء او مسؤولين في عناوين أخرى او النظر في إمكانية الغائها ان امكن ذلك، بعد التخلص من إرهاب داعش وحواضنه، وسيكون للمصالحة الجادة دور في ذلك، لا سيما ان الدولة ليس لديها الجدية او الرغبة في تطبيق قانون الأحزاب، كما هو حال مجلس الخدمة العامة الذي اقره الدستور منذ صدوره عام 2005 ولم يصدر لحد الان.

3 – الاقتراض من الداخل بإصدار سندات اقتراض من المواطنين وفي هذه الحالة امتصاص للسيولة وما يدفع من فوائد هي داخل البلد.

4 – فرض ضرائب ورسوم كمركية على السلع المستوردة عدا الأساسيات المتعلقة باحتياجات الشعب من الغذاء والدواء، وإخضاع السلع الأخرى الى ضريبة بنسب معقولة حسب حاجة المواطن إليها ومدى كونها كمالية او أساسية.

5 – إعادة النظر في ظاهرة غريبة؛ ينفرد العراق بمثل هذه الظواهر وهي منح الرواتب التقاعدية لمن اشغلوا مناصب لفترات قصيرة، ومنحوا عنها رواتب تقاعدية والاغرب عادوا وشغلوا مناصب جديدة واستمرت الحكومة في منح الراتب التقاعدي وراتب المنصب الجديد، فأي دولة او أي نظام غريب هذا؟!

6 – فرض رسوم الفيزا على السياح، مهما كان سبب سياحتهم دينية او غير دينية، وبغض النظر عن جنسياتهم، هم أجانب، ولدخول البلد يجب فرض رسوم الفيزا وهكذا هي الدول تتعامل مع السياح في كل مكان، فلماذا التفريط بمصدر ايراد مهم للبلد؟

7 – الغاء الحلقات الزائدة في أجهزة الدولة المختلفة، والتي اشير إليها لأنها تكلف الدولة مبالغ عالية دون منفعة بل اثقال للموازنة دون مردود يذكر.

8 – تفعيل دور القضاء وتوفير الحماية للقضاة، لاخذ دورهم بحرية وقدرة يوفرها القانون، لان هناك خشية لدى القضاء تصل الى مستوى التهديد بالقتل للقضاة وقد حصل ذلك كثيرا.

9 – وعلى وفق تفعيل دور القضاء يجب إحالة الفاسدين الى القضاء، مهما كانت مستويات مسؤولياتهم في الدولة او الأحزاب. الفاسد فاسد بغض النظر عمن يكون وما هي مسؤوليته، ويكفي التهاون والسكوت على فساد صنف العراق مع الدول الأكثر فسادا.

10 – ايقاف مزاد العملة الذي كان سببا في خروج العملة الصعبة وفرض سعر صرف ملزم لكل الأطراف، ومحاسبة المخالف وإحالته الى المحاكم، وغلق شركات الصيرفة ومكاتبها التي ترفع

سعر الصرف عما محدد في ما يسمى بالسوق الموازية، وليكن سعر الصرف 1000 دينار مقابل كل دولار، وإعادة النظر في سعر الصرف بين الحين والآخر، حسب الظروف وهذا في اقل تقدير بعد ان كان الدينار العراقي سيد العملات؛ اذ كان سعر صرف الدينار عام 1980 و1981 يعادل 3.33 دولار مقابل كل دينار عراقي.

11 – إعادة النظر بالإدارات المسؤولة عن جباية إيرادات الدولة المتحققة عن ملكية الدولة للمطارات او عن خدمات الماء والكهرباء والاتصالات برغم سوء هذه الخدمات بامتياز.

12 – إشاعة ثقافة الترشيد في الاستهلاك، في كل شيء سواء في الكهرباء وان كانت الكهرباء هي أصلا ومنذ عام الاحتلال في تراجع، ولكن على مستوى استهلاك المسؤولين في دورهم او مقرات احزابهم، وكذلك المياه اذ ان الهدر موجود ولا خلاف على ذلك برغم رداءة هذه الخدمات، ولكن لتحقيق شيء من العدالة بالمتوفر منها في الأقل والأمثلة كثيرة.

13 – إعادة وزارة الأوقاف الى التشكيلة الوزارية، وإلغاء كل الأوقاف التي تم تشكيلها على أساس طائفي.

الهوامش:

(1) تقارير هيئة النزاهة لسنة 2008 – 2009.

(2) قانون الموازنة العامة العراقية لسنة 2016.

(3) http://www.imf.org/external/np/exr/facts/sdr.htm

(4) قانون الموازنة العامة العراقية – مصدر سابق.

المنافسة الرأسمالية والروح الهجومية للتحالف الاطلسي

لطفي حاتم

كاتب وباحث عراقي حاصل شهادة الدكتوراه في القانون الدولي/ تاريخ ونظرية الدولة والقانون، عميد كلية القانون والسياسة في الاكاديمية العربية المفتوحة في الدانيمارك. له عشرات البحوث المنشورة في مجال العلاقات الدولية. صدرت له خمسة كتب: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية؛ آراء وافكار حول التوسع الرأسمالي، موضوعات في الفكر السياسي المعاصر، التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية الوطنية، المنظومة السياسية للدولة الوطنية والاحتجاجات الشعبية. كما نشر الكثير من البحوث في (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة.

تسارعت في السنوات الاخيرة حدّة النزاعات بين الدول الكبرى المتحكمة في السياسة الدولية فضلا عن كثافة تدخلاتها في شؤون الدول الوطنية ونزاعاتها الاجتماعية، وتزامنا مع ذلك ازدادت نزعات الكراهية والإرهاب في الكثير من دول العالم وبالأخص منها دول الشرق الاوسط التي جرى تفكيك بعضها وما نتج عن ذلك من حروب اهلية ونزاعات اجتماعية دموية. وفي هذا السياق تلعب دول التحالف الاطلسي المتسيدة دورا كبيرا في تأجيج نزعات الكراهية والتدخل استنادا الى استراتيجيتها العسكرية الهادفة الى صيانة وتطوير هيمنتها الدولية وتحجيم تطور الدول الرأسمالية الناهضة.

لغرض الخوض في سمات العقائد العسكرية المتعارضة احاول التعرض لمضامينها في ثلاثة مفاصل مترابطة؛ المفصل الاول، العقيدة العسكرية للتحالف الاطلسي، وفي المفصل الثاني اتعرض الى ركائز العقيدة العسكرية الروسية وسماتها السياسية. اما المفصل الاخير فسأتناول فيه العقيدتين العسكريتين المتنافستين وتأثيراتهما على المنطقة العربية.

على اساس تلك المنهجية المفترضة اتناول الموضوعات المثارة بتكثيف بالغ ولكن قبل الخوض في قراءة مضامين العقائد العسكرية المتنافسة يتحتم علينا تسمية بعض الرؤى الفكرية الساندة لطبيعة المقال التحليلية، والتي يمكن حصرها بالموضوعات الاتية:

الموضوعة الاولى ـ السيادة الدولية لنمط الانتاج الرأسمالي افضت الى تسريع فاعلية قانون التطور المتفاوت بين الدول الرأسمالية، وما نتج ذلك من ظهور وتطور دول رأسمالية ناهضة ومنافسة لدول الكولونيالية الجديدة (1).

الموضوعة الثانية ـ التشابكات الدولية بين الشركات الاحتكارية المتعددة الجنسية وبين نزعة الهيمنة الامريكية، أدت الى تنامي الروح التدخلية للتحالف الاطلسي وما رافقها من اثارة الحروب الإقليمية والنزاعات الاجتماعية في التشكيلات الوطنية.

الموضوعة الثالثة ـ المنافسة الرأسمالية المحتدمة، تترابط وتطور النزعات العسكرية للدول المتنافسة. وهذا ما يؤكده تاريخ نمط الانتاج الرأسمالي العاجز عن بناء علاقات دولية ديمقراطية تعتمد المساواة وتوازن المصالح.

أولاً ـ العقيدة العسكرية للتحالف الاطلسي وروحها الهجومية

ظهور التحالف الاطلسي عام 1949 أطلق منافسة دولية أيديولوجية بين خياري التطور الاجتماعي: الرأسمالي/ الاشتراكي وما قدمه النموذج الاخير من مثال للدول الوطنية الجديدة في كيفية حماية ثرواتها الوطنية وتوازن مصالح مكونات تشكيلاتها الاجتماعية.

من جهة اخرى، أجبر التحالف الاطلسي (الكتلة الاشتراكية) على بناء حلف وارشو عام 1955 وما افرزه ذلك من نمو.

كما اتسمت العلاقات الدولية بعد تنامي قدرات الحلفين العسكريين بسيادة توازن القوى بدلا من توازن المصالح وما نتج عن ذلك من حروب الوكالة في البلدان الوطنية تحت رايات ايديولوجية.

غير أن تفكك الكتلة الاشتراكية وانهيار حلف وارشو عام 1991 أفضيا الى سيادة اسلوب الانتاج الرأسمالي، وما نتج عن ذلك من ظهور دول رأسمالية ناهضة أعطت دفعة جديدة للتوسع الرأسمالي.

سيادة القطب الواحد في العلاقات الدولية، ترافقت مع انعدام شرعية التحالف الاطلسي، الامر الذي دفع الولايات المتحدة الى خلق خصوم دوليين، بهدف ادامة هيمنتها على اوربا وحمايتها العسكرية لدول التحالف.

وكان التدخل الاطلسي في يوغسلافيا الاتحادية ونهوض دول رأسمالية جديدة قد أعاد بناء استراتيجية الحلف العسكرية، مستندا بذلك على ظهور استراتيجيات عسكرية دفاعية مناهضة لروح التحالف الاطلسي الهجومية.

استنادا الى تلك المؤشرات، نعمد الى تناول ركائز استراتيجية التحالف الاطلسي المعتمدة في وثيقته المسماة (المفهوم الاستراتيجي للتحالف) والمرتكزة على الرؤية الأمريكية والتي تتضمن المبادئ التالية:

1ـ الانتقال من فكرة الدفاع عن أراضي الولايات المتحدة الأمريكية الى موضوعة الدفاع عن مصالحها خارج الحدود الوطنية وبهذا المعنى عبر هذا الانتقال عن الروح التوسعية العالمية للرأسمال الامريكي.

2 ـ حق استخدام القوة العسكرية خارج الأراضي الأمريكية.

3 ـ العمل على احتكار قوة ردع نووية مترافقة مع مساع تبذلها الدبلوماسية الأمريكية لتفكيك ومحاصرة المراكز

النووية في البلدان الخارجة عن إطار التحالف الأطلسي.
4 ـ التدخل في إدارة الأزمات الإقليمية/ الوطنية والعمل على محاصرة الأنظمة الاستبدادية.
5 ـ تدمير الملاذات الآمنة للإرهاب حيث مثلت الضربة الاستباقية جوهر العقيدة الهجومية.
6 ـ قيادة التحالفات الدولية المناهضة للإرهاب.
ـ انطلاقاً من الركائز المشار اليها، أكدت العقيدة العسكرية للتحالف الاطلسي على ان الوظيفة الجديدة لجيوش التحالف الاطلسي تستند الى الدور الدولي التدخلي الذي تمارسه الولايات المتحدة خارج حدودها الوطنية، في محاولة لتقنين الوظيفة القمعية للتحالف، وجعلها مبدأ من مبادئ القانون الدولي (2).
تزامنت مضامين الاستراتيجية الحربية للتحالف الاطلسي مع مساعي امريكية هادفة الى بناء العلاقات الدولية على قاعدة التحالف بصيغة التبعية.
ولغرض تأكيد شرعية الموضوعة المشار اليها اعلاه نحاول اسنادها بالرؤى التالية:
الرؤية الاولى ـ سيادة القطب الواحد في العلاقات الدولية، لم تفض الى اعتماد قواعد الشرعية الدولية المتضمنة مبدأ المساواة بين الدول، وعدم التدخل في شؤونها الوطنية بل جرى التعامل مع دول اوربا الشرقية بصيغ الالحاق العسكري في البنى الاطلسية والتبعية لبنى الاتحاد الاوربي السياسية والاقتصادية.
الرؤية الثانية ـ التحالف الاطلسي لم يستطع بناء علاقات مع الدول الرأسمالية الناهضة على قاعدة الديمقراطية والمنافسة السلمية بل حاول ارساء علاقات تتسم بالإخضاع والإذلال تتناقض ومصالح الدول الرأسمالية الجديدة.
الرؤية الثالثة ـ تخطي الديمقراطية ومبدأ المساواة في العلاقات الدولية اشترط البحث عن اعداء جدد بهدف إدامة الروح الهجومية للتحالف الاطلسي وجرى تحديد روسيا الاتحادية والإرهاب الدولي كخطرين أمام دول التحالف.
الرؤية الرابعة ـ الابتعاد عن سياسة التعاون الدولي والعودة الى سياسة المجابهة الدولية دفع الولايات المتحدة الامريكية الى اعتماد منهجين في سياستها الخارجية؛ أولهما، تشجيع النزاعات القومية/ الدينية المتطرفة في محاولة لتفكيك الدول الفدرالية، وبالتحديد منها روسيا الاتحادية والصين. والثاني، التدخل في شؤون الدول الوطنية بهدف اسقاط أنظمتها السياسية وتفكيك تشكيلاتها الاجتماعية.
الرؤية الخامسة ـ اعتماد النزعات القومية/ والدينية المتطرفة في السياسة الخارجية الأمريكية ادى الى تنامي ظاهرتين في الدول المستهدفة، أولاهما نهوض ايديولوجيات وطنية في الدول الرأسمالية الناهضة وتنامي اليمين المتطرف في اوربا الشرقية. وثانيتهما انتشار النزعة الارهابية في الدول الوطنية وتطور نزاعاتها الاثنية/ الطائفية.

ثانيا ـ العقيدة العسكرية الروسية وسماتها الدفاعية

بعد تفكك الاتحاد السوفيتي عام 1991 تعرضت روسيا الاتحادية الى الخراب السياسي والاقتصادي، وذلك بسبب تبني

سلطتها السياسية نهج الليبرالية الجديدة وشروطها المتمثلة بالخصخصة الشاملة لقطاعات الدولة الاقتصادية ـ الخدمية، وما نتج عن ذلك من تفكك وظائف الدولة الاقتصادية، وتعثر التزاماتها الاجتماعية. وقد افضت تبدلات سلطة الدولة السياسية في الاتحاد الروسي عام 2000 الى اعادة دور الدولة التدخلي في الاقتصاد الوطني، الامر الذي ادى الى تماسك وحدتها الاتحادية والتصدي للروح الانفصالية.

وبالمقابل، تزامنت التغيرات الاقتصادية والسياسية في الدولة الروسية الاتحادية مع ظاهرتين إحداهما تمثلت بتطور الايديولوجية الوطنية. وثانيتهما، تنامي الطموح الروسي المتمثل ببناء مشروعه الآورو ـ اسيوي، وما ينتجه ذلك من بناء عالم متعدد الاقطاب.

ثم أن المنافسة بين التوسع الرأسمالي الاطلسي وبين طموح روسيا الاتحادية بإعادة بناء فضائها السوفيتي، افضى الى تدخل الغرب والولايات المتحدة الامريكية في اوكرانيا عبر تشجيع ومساندة القوى اليمنية المتطرفة بهدف الاطاحة بنظامها السياسي المنبثق من الشرعية الديمقراطية.

وقد أجبرت سياسة حلف الاطلسي التوسعية المستندة الى الاطاحة بنظم الشرعية الوطنية روسيا على ضم القرم لسيادتها الوطنية، فضلا عن مساندتها لكفاح أقاليم الاغلبية الروسية في اوكرانيا الهادف الى بناء دولة فدرالية.

إن ضم القرم الى الدولة الروسية، اعاد العلاقات الدولية الى أجواء الحرب الباردة، متجليةً في مؤشرات كثيرة منها:

• هبوب عاصفة اعلامية غربية أشاعت روح الكراهية ضد الروس عبر تمجيد الروح القومية لدول اوربا الشرقية، الأمر الذي أدى الى تطور وانتشار الحركات اليمينية المتطرفة.

• فرض عقوبات اقتصادية امريكية/ أوربية على روسيا الاتحادية، ورد الاخيرة بعقوبات اقتصادية مضادة وما نتج عن ذلك من تباطؤ نمو اقتصادات الدول المتنازعة.

• ضم العديد من دول اوربا الشرقية الى التحالف الاطلسي، وربط عقائدها العسكرية بعقيدة التحالف الهجومية، وما ترتب على ذلك من زيادة انفاقها العسكري.

• نشر اقسام من الدرع الصاروخية في رومانيا، ولاحقا في بولندا في محاولة لتطويق روسيا الاتحادية والترويج لشعار الروس قادمون (3).

• إجراء مناورات عسكرية للتحالف الاطلسي بالقرب من الحدود الروسية، قابلتها مناورات عسكرية روسية مضادة حملت معها مخاطر "صدام الصدفة" وما ينتج عن ذلك من احتمال نشوء حريق كوني لا يمكن التحكم بنتائجه.

• تكريس قيادة الولايات المتحدة الأمريكية للتحالفات الدولية "المناهضة" للإرهاب بهدف التدخل في البلدان المستهدفة، فضلاً عن تصعيد الإجراءات العسكرية التي من شأنها إجبار البلد المعاقب على تلبية مطالب المراكز الدولية.

• تسييس المؤسسات الدولية غير الحكومية مثل المحاكم الدولية، الاتحادات الرياضية، منظمات حقوق الانسان لغرض توظيف أنشطتها في النزاعات السياسية.

استنادا الى التغيرات السياسية/ العسكرية وما انتجته من توتر في العلاقات

الدولية نحاول التعرف على عقيدة روسيا العسكرية، وتحديد طبيعة التغيرات الجارية عليها من خلال ركائزها الأساسية الاساسية المتمثلة بما يلي (4):

ـ اعتبرت العقيدة العسكرية الروسية توسع حلف شمال الأطلسي وتعزيز قدراته الهجومية على الحدود الروسية تهديداً أساسيا لأمنها الوطني، مؤكدة ان الخطة الاطلسية الهادفة لتأسيس البنية التحتية للدرع الصاروخي ونشر قوات أطلسية في شرق اوروبا، تهديد خطير على كيان الدولة الروسية.

ـ جددت روسيا الاتحادية التأكيد على الروح الدفاعية لعقيدتها العسكرية، مؤكدة على شرعية تحركات آلتها العسكرية، بعد استنفاد كل الخيارات السلمية لتسوية النزاعات الناشئة. وتحقيقا لذلك ادخلت العقيدة العسكرية المعدلة مفهوم ـ الردع غير النووي ـ المعتمد على بقاء القوات العسكرية التقليدية في حالة جهوزية عالية.

ـ لغرض تفعيل تبدلات عقيدتها الدفاعية دعت روسيا الاتحادية منظمات الامن الاقليمية مثل رابطة الدول المستقلة ومنظمة شنغهاي للتعاون، الى المشاركة في صيانة الامن الدولي، مؤكدة على ان العقيدة العسكرية الروسية لم تتضمن مفهوم الهجوم الوقائي.

ـ رغم تأكيد العقيدة العسكرية الجديدة على تفادي اية نزاعات عسكرية نووية او اية نزاعات اخرى، إلا أن روسيا احتفظت بحقها في استخدام ترسانتها النووية، اذا ما تعرضت هي او احد حلفائها للعدوان.

ـ أعارت عقيدة روسيا العسكرية اهتماماً بتأثير الاعلام الغربي وتشجيعه لمنظمات اليمين الارهابي، على الشعب الروسي، معتبرة اياهما تهديدا رئيسيا للأمن الداخلي، لأنه "يقوض التقاليد التاريخية والوطنية" للمجتمع الروسي.

ـ دعت العقيدة العسكرية الجديدة القوات المسلحة الروسية الى الاهتمام بحماية المصالح الوطنية لروسيا في القطب الشمالي، باعتباره منطقة استراتيجية لمستقبل تطوير قطاع الطاقة الروسي، التي تنازعها عليها الولايات المتحدة وكندا.

ان تعديل العقيدة العسكرية الروسية يتجاوب، اضافة الى ما ذكر، مع تغيرات دولية كثيرة نحاول رصدها بالمحددات الآتية:

المحدد الاول: تشجيع الولايات المتحدة الامريكية للنزاعات الاقليمية في جنوب شرق اسيا، فضلا عن توقيع مبادئ الشراكة التجارية عبر المحيط الهادئ، الهادفة الى عزل الصين عن محيطها الإقليمي.

المحدد الثاني: تنامي القدرة الاقتصادية ـ العسكرية الالمانية، وما يعنيه ذلك من محاولات لإحياء دور المؤسسة العسكرية الالمانية عبر تصفية القوانين الدستورية الكابحة لنشاطها التدخلي في النزاعات الوطنية.

المحدد الثالث: خروج بريطانيا من الاتحاد الأوربي شكل عاملا هاما من عوامل تراجع امكانية تحوله ـ الاتحاد الأوربي ـ الى كتلة اقتصادية قارية فاعلة في السياسة الدولية، ناهيك عن زيادة تأثير التحالف الأنكلو ـ امريكي على التوجهات العدوانية للتحالف الاطلسي.

المحدد الرابع: التقارب الروسي ـ التركي وما تمخض عنه من التوافق على ايجاد صيغ من التعاون الإقليمي، ربما تساهم

في ايجاد حلول مقبولة للازمات الإقليمية، بعيدا عن الروح الهجومية للتحالف الاطلسي.

ثالثا ـ العقائد العسكرية المتنافسة وتأثيرها على المنطقة العربية

تحتل منطقة الشرق الاوسط وبالتحديد منها المنطقة العربية، موقعا متميزا في الاستراتيجيات العسكرية الدولية المتنافسة، لما لها من تأثيرات جيو ـ استراتيجية على نجاح او فشل تلك الاستراتيجيات. وعليه لا بد لنا من رصد ركائز تلك الاستراتيجيات، فضلا عن تحديد نتائجها عبر الدالات التالية:

الدالة الأولى: سياسة التحالف الاطلسي ترتكز على سياسة التدخل في شؤون الدول الوطنية بهدف صياغة وتوجيه الصراعات السياسية/ الاجتماعية، وصولا الى اعادة بناء نظم سياسية تتجاوب ومصالح الشركات الاحتكارية، وبالضد من ذلك ترفض دول الرأسمالية الناهضة صيغ التدخل مطالبة بسيادة الشرعية الدولية، بدلا من شرعية التدخل الاطلسية وذلك خدمة لمصالحها الاستراتيجية في الظروف المعاصرة.

الدالة الثانية: فشل الاحتجاجات الشعبية واستثمار نتائجها من قبل القوى اليمينية والجهادية المتطرفة، دفع دول التحالف الاطلسي الى مباركة وتشجيع المنظمات المتطرفة والإرهابية وما نتج عن ذلك من تفكك بعض البلدان الوطنية وتدويل نزاعاتها الوطنية.

الدالة الثالثة: شكل التدخل الروسي في الحرب الداخلية السورية، انعطافة هامة في السياسة الدولية، تجلت بمؤشرين؛ احدهما، مساندة النظام السياسي في سوريا، ومنع تفكك الدولة السورية. وثانيهما، البحث عن تسوية سلمية للازمة الوطنية السورية، تفاديا لتصادم القوى العسكرية الروسية والأمريكية، وما يعنيه ذلك من عواقب لا يمكن التكهن بمضامينها.

الدالة الرابعة: تدويل النزاعات الاجتماعية/ السياسية في الدول الوطنية، أفضى الى صراعات وحروب اهلية انخرطت فيها مراكز اقليمية/ دولية من خلال دعمها وإسنادها لهذا التيار او ذلك من التيارات المتحاربة، وما افرزه ذلك من نشوء تفاهمات اقليمية/ دولية قد تتطور الى تحالفات عسكرية، تهدد امن المنطقة وسلامها بحروب عبثية.

الدالة الخامسة: أدت التدخلات العسكرية الأطلسية في الشؤون الوطنية الى انتشار النزعة الإرهابية، فضلا عن سيادة الفكر السياسي لأحزاب الهوية الفرعية، الامر الذي يتجاوب وسياسة التحالف الاطلسي الهادفة الى نقل نزاعات الهوية الفرعية الى الدول الرأسمالية الرافضة لسياسة التدخل وانتهاك سيادة الدول الوطنية.

استنادا الى رؤى المقال التحليلية وموضوعاته الفكرية نتوصل الى الاستنتاجات التالية:

أولا- ادت المنافسة الجيو سياسية بين دول الكولونيالية الجديدة وبين الدول الرأسمالية الناهضة الى توتر السياسية الدولية وانحسار التعاون الدولي الهادف الى حل الأزمات الكونية.

ثانيا- ساهمت العقيدة الهجومية للتحالف الاطلسي بتوتر العلاقات الدولية وما يحمله ذلك من مخاطر العودة الى سياسة الاحلاف العسكرية المرتكزة على توازن

القوى بدلا من توازن المصالح الدولية.
ثالثا- العقائد العسكرية المتنازعة لدول الكولونيالية الجديدة ودول الرأسمالية الناهضة تتجلى في بعض بلداننا العربية في مساندة التحالف الأطلسي لتوجهات الفصائل الجهادية الهادفة لإسقاط النظم السياسية، وبالضد من ذلك تقف العقيدة العسكرية الروسية الى جانب الدول الوطنية ونظمها السياسية بغض النظر عن شرعيتها الوطنية.
رابعا- شكلت النزعة اليمينية المتطرفة وأحزاب الهوية الفرعية حاجزا أمام بناء ايديولوجيات وطنية - ديمقراطية ضامنة لبناء الدول الوطنية على اسس الديمقراطية السياسية وموازنة المصالح القومية/ الاجتماعية.

الهوامش:

(1) دول الكولونيالية الجديدة مفهوم اعني به المراكز الرأسمالية الكبرى التي تسعى الى الحاق الدول الوطنية باحتكاراتها الدولية عبر تفكيك نظمها السياسية وتشكيلاتها الاجتماعية.

(2) تمثلت الروح التدخلية للتحالف الاطلسي في البوسنة 1991 - 1995 وقصف يوغسلافيا عام 1999 التدخل في افغانستان بعد هجمات أيلول 2001، التدخل في العراق عام 2003 بهدف اسقاط نظامه السياسي، التدخل في ليبيا للإطاحة بنظام الزعيم معمر القذافي. وأخيرا التدخل في سوريا لأهداف استراتيجية.

(3) رغم تشكل قوة متطرفة من دول - البلطيق وبولندا - تدفع دول التحالف الأطلسي نحو المجابهة مع روسيا الاتحادية، إلا ان الكثير من الدول أهمها فرنسا، المانيا، ايطاليا لم تصطف الى جانب تلك السياسة الخطرة بسبب تعارضها ومصالح تلك البلدان السياسية والاقتصادية.

(4) وافق الرئيس الروسي (فلاديمير بوتين) على العقيدة العسكرية الروسية المعدلة في ديسمبر/ كانون الأول عام 2014، بعد ان اتهم في مؤتمره الصحافي السنوي الغرب ببناء "جدار" جديد في اوروبا والتصرف "كامبراطورية" تملي رغبتها على "اتباعها".

تعلّم ام تعليم؟
المناهج التدريسية المعمارية العراقية..
الى أين؟

المعمار الأكاديمي
موفق جواد الطائي

تعليم مادة العمارة وتدريسها لا يشبهه تعليم وتدريس أي من العلوم والفنون. فهو حدث يجري، ويعني حضورا واقعيا وافتراضيا خارج وداخل المبنى المحدد، وتدريبا ذهنيا ومهارة يدوية وذهنية ومهنية في آن واحد. وقد لا تبلغ فيه (في تعليم وتدريس العمارة) مادة العلوم أو الفنون 30 في المئة، اما الباقي فهو لغة القرب الجسدي، والإظهار (الميديا) الحدثي، والاتصال لمعرفة آخر النظم الرقمية وغير الرقمية، ومحاورة أعلى الجهات المختصة بالعمارة، ومعرفة العالم الافتراضي وذلك في جميع المواد التدريسية. عندها يتوجب أن يكتسب المدرس قبل ولوجه مجال التعليم، مدركات المهارات التربوية وان يتعلمها على يد اساتذة مجربين في مجال العمارة. كذلك ان يلم بما يفوق فيه طلابه في الإظهار والاتصالات، وان يواكب باستمرار الإنجازات العلمية والتكنولوجية المتواصلة، ويحدّث معلوماته بانتظام عبر الانترنت.

لقد سئم الطلاب المراجع القديمة البالية مثل (نيوفرت) في (الأركنومك) و(بَري) في الانشاء، وكتب مواد البناء المطبوعة في الستينيات، أو التركيز على تعليم ناتج فعالية ما، لا علاقة له بالفعالية نفسها.

فالواجب يقتضي تكليف الطالب باستخراج المعلومة بنفسه، بدل الحصول عليها جاهزة من المدرس او من الكتاب المقرر أو من الانترنت، ثم اعادة صياغتها بطريقته الخاصة. والطالب نفسه يود ان يكون على صلة واحتكاك مع ما يحدث في ميدان العمارة اليوم، وليس ما كان يحدث سابقا، وعبر نظم العمارة المختلفة والنظم الرقمية والانترنيت، وليس بالاعتماد على الملازم وحدها. ومن ثم التركيز على استخراج الناتج عن فعالية ما ومخرجاتها عبر اشراك الطالب في عملية التعلم، وليس التركيز على فعالية (التعليم) نفسها.

ولأجل التعلم لا التعليم، يتوجب على الطالب ان يشارك بشكل فعال، من خلال البحث وليس التلقين، في التوصل الى المعلومة. وهذا بالضبط ما نقصده بالتعلم وليس التعليم.

إن الاستاذ الجامعي المعماري لا يحصل على راتبه كمعماري، فراتب المعماري يساوي

ثلث الراتب الجامعي. انه يأخذه كمدرس معماري، وهذا حصيلة ممارسة تربوية لا يمكن نيلها الا عبر مناهج تربوية ذات مرجعية معتمدة، ومن خلال التعلم كمساعد مع من له خبرة. بعدها يجري التقييم من قبل تربويين واساتذة زائرين، ومن ثم يحق له التدريس مثلما كان يتم في السابق، وليس كما كان يحدث في أيام صدام (ايام السلامة الفكرية!) حيث كان يتم الابقاء على البعثيين فقط.

ويتمثل الحل في دورات التعليم المستمر، والاستعانة بالأساتذة المجربين والزائرين، واعتماد مبدأ استاذ المادة الذي كان معمولا به حتى السبعينات؛ حيث يكون لكل مادة مسؤول اكاديمي مجرب، وليس ان يكون بالضرورة المدرس نفسه، وانما هو المشرف على تدريس تلك المادة.

لقد كان لحرفة تدريس العمارة تأثيرها على العمارة العراقية وهي تجسد التمرين الذهني للرواد، وكانت تبادلاً معرفياً بين الذهن والعمارة، حيث يؤثر أحدهما على الآخر في ترابط عضوي، هو من انشأ عالمنا الذي كنا نعرفه قبل التلوث البصري الحالي.

وقد أثرت جامعة ليفربول الإنكليزية على المنهج المعماري لكلية الهندسة في جامعة بغداد بتركيزها على تخطيط المدن والبيئة، نظرا لكون جل الرواد تخرجوا منها: أحمد مختار، محمد مكية، إحسان عبد الله، جعفر علاوي، عبد السلام فرمان، مدحت علي مظلوم. أما منهاج مدرسة همرسمث، ذو الطابع الفني التشكيلي، فلم يكن مؤثرا رغم محاولات رفعت الجادرجي اعتماده أحيانا. كما كان هناك شيء من تأثير دراسات المفاهيم الفضائية الزمكانية لقحطان المدفعي ومنهاج جامعة كارديف.

هذا ما كان عليه الوضع في البداية وحتى نهاية الستينات ومطلع السبعينات، بعد مجيء مدرسين مثل جايكه وليخ ومجموعة أساتذة من بلدان اوربا الشرقية، التزموا بدورهم منهاج ليفربول مع إضافة شيء من الابداع والعقلانية والترشيد الاشتراكي. أما من الناحية المهنية فقد كان معظم الخريجين العائدين من انكلترا، حملة شهادات معرفية (شهادة معهد المعماريين البريطاني، وهي شهادة مهنية لا اكاديمية) وليس الماجستير او الدكتوراه الثقافية.

وشهدت بداية السبعينات مجيء العديد من الأساتذة العراقيين من إنكلترا (وكاتب هذا البحث من ضمنهم) والاتحاد السوفيتي، الذين حدّثوا اسلوب التدريس وجدّدوا المناهج الانكليزية الرصينة السابقة، بعد أن عملوا مساعدين في التدريس مع الأساتذة الأجانب والرواد العراقيين، وتعلموا مهارات فن التدريس المعماري وليس الهندسة وحسب.

كما ان كثيرا من الجامعات العالمية كانت ترسل مبعوثين وأساتذة زائرين، وقد تمت الاستفادة من جميع تلك الخبر الأجنبية الحرفية. فكان ان حظينا بترشيد الروس ومهنية الانكليز وفنية الفرنسيين. وفي اجواء تنافس أخوي جميل سعى الجميع الى وضع نهج وفلسفة تدريس للقسم المعماري. وكان لي شخصيا شرف تغيير وتدريس العمارة وفق مناهج جديدة، ولاول مرة في العراق، ومنها المناهج التي اعددتها انا لمادة تذوق العمارة وللتصميم الداخلي، والتطبيق العملي لنظريات التشكيل في العمارة. وتمت الاستعانة في ذلك بعدد من التشكيليين المبدعين مثل الفنانين كاظم حيدر وماهر السامرائي، وتمكنا من تدريس اهم مقومات العمارة في درس الرسم للصف الأول. كما قام أخي العزيز عاطف السهيري باعداد

منهج الانشاء وفق احدث الأنظمة العالمية، واخي الدكتور خالد السلطاني منهج تاريخ العمارة، والمرحوم يوسف علوان وزوجته آلاء الهندسة الوصفية، ورسم الظلال. فيما استمر الرواد احسان كامل وهشام منير وعبد السلام فرمان وناصر الأسدي وغيرهم يرفدون زخم هذا التحول بافكارهم السديدة وخلاصات تجاربهم. في حين ألغي قسم العمارة في الموصل، بسبب انفراده بمنهج خاص يشبه الهندسة المدنية، لكن الاخوة هناك عادوا مع الأسف بعد عقد من السنين وارتكبوا نفس الاخطاء، ودرّسوا الهندسة المدنية التي سميت ـ عن غير حق ـ عمارة.

في نفس الوقت أنشئ في الجامعة التكنولوجية قسم معماري على يد المخطط المدني الدكتور علي الحيدري، الذي التحق به بعد ذلك رياض تبوني وحسام الراوي وصاحب العزاوي وحسين الشيخلي وآسو الجاف وجاله المخزومي وغيرهم، فتحول الى قسم معماري جديد، رائد، وذي تجربة عظيمة. لكن لم يقدر لهذه التجربة الاستمرار حيث لم تنجح المحاولات الأصيلة لتربية متخصصين في العمارة المعرفية وليس الثقافية. اما في الموصل فكان المنهج يناسب اساتذة القسم من المهندسين المدنيين، بينما استفادت البصرة من خبرة الأستاذ خليل العلي الجيدة، لكنها بشكل عام لم تبلور منهاجها الخاص.

وكان لي الشرف في بداية قرننا الحالي، ان أساهم في الإعداد والتدريس في القسم المعماري لجامعة النهرين. وكنا نأمل ان يأخذ التدريس سياقين؛ الأول، (باوهاوسي) مهني على شاكلة كلية جامعة شمال لندن (متروبوليتان حاليا)، والآخر فني معرفي وبالأسلوب الذي ارتآه لاحقا الدكتور ساهر القيسي، متأثرا بتجربة جامعة القاهرة. كنا نعمل على جعل هذا الاخير منهاجا معرفيا كما ذكرت وليس ثقافيا، لكن الوضع العام وتركي التدريس ثم الرجوع إليه لم يساعدا على ذلك، لان الأسلوب المعرفي يعني العمل على تدريس العمارة كظاهرة مرئية، تستوجب معدات إظهار وتواجدا فعليا في البيئة المبنية، الحديثة أو التراثية. لكن ظروف الحرب لم تساعد على ذلك، ومع هذا فان الخطى الجادة والحثيثة التي يقوم بها القسم لوضع فلسفة خاصة به، هي خطى واعدة وتبشر بخير.

ولا بد لنا من التعرض الى المناهج العالمية والتغيير الذي حصل فيها، ومدى استفادتنا منه. لذا نستعرض ولو في عجالة التعليم المعماري في أمريكا وأوربا، نظرا لتأثيره المستمر على التعليم عندنا. فهارفارد وباركلي واصلتا نهجهما في تدريس العمارة مع التخطيط والتصميم الحضريين والاقليميين. بينما ركز معهد ماساشوستس MIT على تطوير الدراسات التاريخية وعلى استخدام مختبر لوسائل الاظهار والاتصالات.

أما في انكلترا فهناك اتجاه AA الحر، الذي يخطئ ويصيب، واتجاه ليفربول الذي يركز على تخطيط المدن، بينما بقية الكليات الانكليزية تحت مظلة RIBA (معهد المعماريين البريطانيين)، وتعتمد كلية متروبوليتان الأسلوب المهني الحرفي، وشفيلد الأسلوب الثقافي؛ حيث تتوافر على تخصصات ثقافية متنوعة في دراسة الماجستير والدكتوراه. لكن المهنة المعمارية الانكليزية تكتفي بشروط RIBA ودبلومات الإختصاص، وهذا ما يجعلها معرفية لا ثقافية.

وفي فرنسا يغلب الطابع التشكيلي، بينما في المانيا الطابع الحرفي العلمي.

هنا نشير الى وجود اختلافات كبيرة بين

مناهج التدريس في العراق واساليب المدرسين واهدافهم، وهذا يستدعي اعداد استراتيجية واضحة للتدريس المعماري، تتفق عليه الأقسام المعمارية جميعا. واعادة النظر في المناهج من قبل متخصصين مجربين ذوي مرجعيات رصينة. ولنبدأ بإعداد اسس مشتركة في الأقسام المعمارية لمناهج تعليم القواعد الأربعة الأساسية: الوظيفية في المبنى، الطرق الإنشائية، والتشكيل، والفكر التصميمي، ولنتوصل معها الى الحد الادنى – ولا اقول الاعلى – من الاتفاق في شأنها، ومن دون الدمج بينها في التعلم. وبعدها ليكن لكل واحد اتجاهه الخاص الذي يغني بفرادته التجربة التعليمية المعمارية.

السؤال – الاستنتاج بعد هذا السفر من الاستعراض هو: أين نحن من كل هذا؟

عندنا فرص قد لا تتاح للآخرين من توفر كوادر فنية وعلمية مجربة داعمة للأقسام المعمارية، لكن تم ابعادها (عن قصد للاسف) من الجهاز التعليمي، وهناك آخرون ذوو اختصاصات فريدة في العمارة من خارج تلك الاقسام. وهذه الكوادر متهيئة الآن ويمكن أن تغني التجربة المعمارية، باختصاصاتها الدقيقة وباعتماد تجربتها في التدريس ونصائحها، من خلال دورات تعليم مستمر للكوادر التدريسية، خصوصا في الاختصاصات النادرة مثل التصميم المعماري الداخلي، وهندسة المناظر، ونظم الاتصالات العامة والرقمية، اضافة الى اعتماد مختبر الاتصالات كمركز اساسي للتعليم، الذي أصبح ضروريا جدا مثلما هو الحال في معهد ماساشوستس. ومن الممكن استدعاء متخصصين من خارج الجهاز التعليمي او من داخله، لاعداد المركز وتشغيله، ولإنضاج التعاون بين صنوف الثقافة والمعرفة المهنية من خلال دورات التعليم المستمر.

إن هذا سيؤدي دون شك الى تخريج جيل من المعماريين المتميزين المسلحين بالمعرفة، وبالتالي الى تكوين عمارة رصينة ذات مرجعية معتمدة، بعيدا عن الرغبات الذاتية التي تعصف بالتدريس يسارا ويمينا، وعن تفصيل المناهج وفق مقاسات الأساتذة لا تفصيل الأساتذة على مقاس المناهج. ولعل من المناسب هنا التذكير بضرورة تحلي الأساتذة بأساليب النقد العلمية المجردة والمعتمدة على مرجعيات رصينة، وليس انطلاقا من الرغبة والذوق الذاتيين، حيث يحدد المدرس القواعد ويطلب من الجميع مجاراة ثوابته ومنطقه. وهذا بالضبط هو ما يسمى بالمنطق المقلوب.

كذلك يتطلب الامر امانة اخلاقية مطلقة، وحيادية في الموقف من فلسفات الحركات المعمارية والفنية المحلية والعالمية. فعلى المدرس ان لا يبغض حركة ويحب اخرى، لا سيما وان العمارة هي في الأساس وجهة نظر لا تجوز معاقبة الطالب على تبنيها. كذلك نرى ضرورة اعتماد مبدأي القياس والتقويم، حيث ان القياس المعتمد لا يرافقه التقويم، الذي يخشاه كثير من الأساتذة ورؤساء الأقسام، ممن يدرّسون مواد ليست من اختصاصهم أصلا، وليس لديهم الحد الأدنى من المعرفة بها، وانما يفعلون ذلك كإسقاط فرض. وهناك فوق هذا واقع ان بعض رؤساء اقسام العمارة انفسهم هم من غير المعماريين، ومن المؤكد أن هذا يفقد الشهادة التي تمنحها تلك الاقسام صدقيتها. ومن هنا ايضا تشديدنا على الابتكار والابداع وليس الببغائية في التعليم.

وليكن شعارنا:

نحو تعلم العمارة كادراك معرفي وليس تعليمها بالتلقين الثقافي المجرد.

التأهيل والتنمية

د. مجيد مسعود

لمحة عن مفهوم النمو والتنمية

النمو:

هو تحقيق زيادة في الدخل الوطني بنسبة أكبر من نسبة الزيادة في عدد السكان خلال الفترة المشمولة بالبحث. إلا أن هذه الزيادة في الاقتصاد الريعي كما هو في العراق، يكون مصدرها غالباً حقول النفط والغاز وما في حكمهما.

أي أن هذه الزيادة الكمية تعطي اضافة لنفس البنية الموروثة من السابق، وتتحقق هذه العملية بتأثير آلية السوق غير الموجهة.

التنمية:

المقصود بها هنا هي العمل المنتج للإنسان (المجتمع) الممتلك لقدرة وإرادة التغيير بوعي، لجميع الهياكل الاقتصادية – الاجتماعية، الموروثة بصورة مشوهة.

وتنويعها وفق بدائل وأولويات مبررة علمياً وزيادة تشابكها داخلياً. وذلك لتحقيق التقدم من خلال زيادة سيطرة المجتمع على موارده المادية والمالية والبشرية، المتاحة والمحتملة، ولرفع فاعليتها ومردودها وتسخيرها لصالح المجتمع بأسره. أي النهوض بالإنسان وتحقيق العدالة في التوزيع، فيما بين الفئات والجهات. والانتقال من عوامل التنمية الاتساعية إلى عوامل التنمية المكثفة.

وهذا يتطلب أن تتحقق أطوار عملية التنمية بهذا المفهوم الواسع على ضوء رؤية واضحة للمدى المنظور. وذلك بتدبير مسبق وتخطيط مرن لرسم اتجاهات التغيير للوصول إلى الاهداف والغايات المشخصة نوعياً والمحددة كمياً. مع مراعاة حقوق الأجيال القادمة ونظافة البيئة.

وبتعبير آخر فإن التنمية الشاملة المستدامة، بتغيراتها الكمية والكيفية للقوى المنتجة بجانبيها المادي والبشري المؤهل، ولعلاقات الإنتاج التي تنسجم معها، إنما تستهدف من هذا المسار التنموي تحقيق الارتفاع المستمر والمتكامل الجوانب لمستوى حياة الشعب، ليكون سعيداً في وطن حر.

العلاقة في ما بين التأهيل والتنمية

يمكن ملاحظة هذه العلاقة المتبادلة، كما هو موضح في هذا الشكل المبسط أدناه لغرض الإيضاح:

نتخلص من هذه العلاقة المتبادلة، كلما زاد عدد العاملين المستخدمين لقوة عملهم وتطوير مهاراتهم مما يؤدي إلى زيادة إنتاجيتهم، عند توفر بقية العوامل الملائمة للنهوض بالإنتاج وتحسين جودته، وهذا يعني تعويضاً مجزياً للعاملين، يرفع من قدرتهم الشرائية، وإشباع حاجتهم الأساسية كماً ونوعاً.

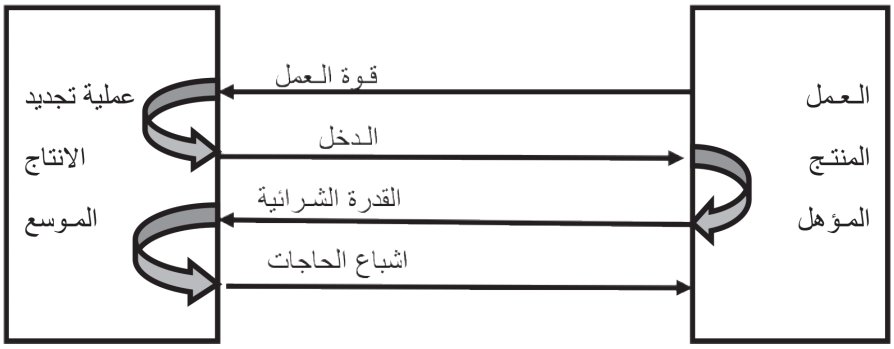

ومن خلال أطوار هذه العملية يتوسع الطلب على المنتجات السلعية والخدمات الفعالة المكملة لها. ويؤدي هذا إلى الاستخدام الأفضل للطاقات الإنتاجية وتحديثها بمنجزات العلم وتطبيقاته التكنولوجية. وتقود هذه العملية التنموية إلى فتح فرص عمل جديدة والقضاء على البطالة.

وهكذا تنبثق عوامل التنمية الذاتية الدافعة إلى التجديد الموسع للإنتاج باستمرار.

لمحة عن التأهيل

نستدل من تاريخنا القريب، حيث كان التدريب في عهد الإنتاج الحرفي الصغير وفقاً لنظام الطوائف للشغيلة العاملين في المهن المختلفة. وهو تدريب ضيق من ناحية محتواه، وقصير الأمد من حيث زمن إعداده. يركز على ممارسة عمل روتيني يتكرر كل يوم وبنفس المواصفات، مع بقاء أمية الغالبية منهم، ومع بقاء غربتهم عن المحيط الذي وجدوا فيه.

وفي الزمن المعاصر تم إعداد جهاز للتربية والتعليم يمكنا الإشارة إلى تدرجه على النحو التالي:

المرحلة الإبتدائية (6 سنوات) يفترض أن تؤدي إلى إعداد عمالة نصف ماهرة تعقبها المرحلة الإعدادية (3 سنوات) يتزامن معها مراكز للتدريب، ينتظر منها أن تؤهل عمالة شبه ماهرة. وبعد هذه المرحلة للتعليم الأساسي، يرتقي هذا السلم إلى التعليم الثانوي (3 سنوات)، وتشعبه إلى عام وفني يؤمل منه إعداد عمالة ماهرة.

ويرتقي هذا الهيكل إلى التعليم الجامعي والعالي، متضمناً كليات ومعاهد فنية وتكنولوجية متنوعة (3 – 5 سنوات) ليؤهل عمالة فنية متخصصة. وفي قمة هذا الهيكل تأتي الدراسات العليا لنيل الدبلومات ودرجتي الماجستير والدكتوراه، المفترض منها أن تخرج عمالة اختصاصية مؤهلة بدرجة عالية.

المختصون في هذا الجانب عقدوا المؤتمرات والندوات واعدوا الابحاث عن مفاصل الضعف الذي يعاني منه هذا الجهاز من حيث مناهجه المعتمدة أساساً على التلقين وغالبية الدروس النظرية، وضعف الكادر التدريسي وحرمانه من الكثير من حقوقه المادية والمعنوية، وقلة أماكن التعلم والتدريب المناسبة وفقرها من وسائل التوضيح والمختبرات والمكتبات اللازمة لهذه العملية التعليمية التدريبية، واقترحوا الحلول الملائمة. ولهذا فإن غالبية مخرجات هذا الجهاز تبحث عن الوظيفة في المكاتب المريحة، ولا تستجيب لمتطلبات

وحاجات سوق العمل. ولهذا نجد من جانب فيضاً من الخريجين الباحثين عن فرصة عمل، مقابل حاجة ماسة للعمالة المؤهلة للكثير من الفروع والخدمية الفعالة، مما تضطر البلاد لاستيرادها من الخارج. بينما المطلوب هو أن تكون مخرجات هذا الجهاز هي لتأهيل العمل المنتج محتواً وشكلاً المناسبين لطلب سوق العمل، وذلك باعتبار هذه المخرجات هي من أهم المدخلات للعملية التنموية الشاملة المستدامة.

تنبغي الإشارة في هذا المجال إلى الاضافة النوعية الهامة التي رفدت الوطن بمئات آلاف الخريجين من المعاهد والجامعات في الاتحاد السوفيتي ودول المنظومة الاشتراكية السابقة. وكذلك من خريجي معاهد وجامعات بعض الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية، من حملة الاختصاصات العلمية الهامة.

وهذه الإضافة النوعية للقوى العاملة المؤهلة قد أوجدت توازناً نسبياً في ما بين مخرجات التعليم والتدريب من داخل الوطن ومن خارجه.

ولكن مع الأسف الشديد لم تتحقق الاستفادة كما هو المطلوب من هذه الكوادر المؤهلة. وازداد الأمر سوءاً في السنوات الأخيرة بهجرة وتهجير الكثير من هذه الثروة العلمية البشرية، وذلك نتيجة للظروف الطاردة لهم، بسبب تطبيق نظام المحاصصة الطائفية الاثنية البغيضة، التي أدت وما زالت تؤدي إلى هدر هذه الموارد البشرية.

وصرنا نعيش هذه الحالة المتردية للابتعاد عن تبني نظام الدولة المدينة الديمقراطية، كما وضح مفهومها الحزب الشيوعي العراقي في وثائقه ومنابر إعلامه، حيث يرتكز مضمونها على:

سياسياً: حرية الرأي والفكر وما ينبثق عنهما من مؤسسات، وفصل للسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وسيادة القانون، واعتبار المواطنة هي الهوية الجامعة لكل العراقيين، وأن يتحقق تداول السلطة سلمياً عبر صناديق الانتخاب، بإشراف الأمم المتحدة.

اقتصادياً: توزيعاً عادلاً للثروة الوطنية والدخل الوطني، وحق المواطن في العمل، التعليم، الطبابة، السكن، وضمان الشيخوخة.

اجتماعياً: المساواة بين الجنسين، إزالة التمييز بين الأفراد على أساس الانتماء الديني، الطائفي، القومي.

وبهذا الربط في ما بين جوانب النظام المدني الديمقراطي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، تتوفر قوة الجذب لهذه الموارد البشرية المؤهلة، لأن الوطن حالياً بأشد الحاجة لكل هؤلاء المهاجرين والمهجرين والمهمشين محلياً، من أجل النهوض بالاقتصاد الوطني واعمار ما خربته الحروب، ولا سيما الحرب الأخيرة منها ضد العدوان الهمجي من داعش واخواتها التكفيريين، وإعادة أهلنا النازحين المظلومين إلى ديارهم الآمنة. وفي الوقت الراهن والسنوات القادمة تدخل حديثاً أجيال جديدة من شاباتنا وشبابنا إلى الحياة العملية، وهؤلاء بحاجة إلى التأهيل المناسب إلى سوق العمل.

ولا بد أن تكون برامج اعدادهم بعيدة عن أسلوب التلقين السابق، وتعريفهم بمنجزات العلم وتطبيقاته التكنولوجية، بشكل يؤدي إلى زيادة نوعية وكمية في انتاجية العمل المجتمعي، باعتبارها هي المحصلة لهذه العلاقة المتبادلة في ما بين التأهيل والتنمية.

الى / مجلة الثقافة الجديدة الغراء
تحية رفاقية خالصة وبعد ..
م / تصويب
عند مطالعتي لمجلتنا الأثيرة الثقافة الجديدة العدد / 384 لشهر أيلول / 2016 وجدت وتحديدا في مقال الرفيق محمد علي زرقة (إعادة نشر) بعض الامور التي تحتاج الى تصويب وكما يلي
1 – الصفحة / 74 من المجلة ورد أن وزارة أرشد العمري ووزيرها سعد صالح هي التي أجازت الأحزاب الخمسة وعلى ما يبدو لقدم هذه الأحداث حيث مر عليها أكثر من ستين عاما حصلت للرفيق محمد علي زرقة خطأ حيث أصيب بداء النسيان، لأن وزارة المجرم ارشد العمري لم تكن مؤهلة لا سياسيا ولا أخلاقيا لأنْ تتبنى إجازة الاحزاب الوطنية، بل وزارته كانت وزارة رجعية قمعية بوليسية معادية للديمقراطية بكل أشكالها. وقد قامت وزارته المجرمة بقمع تظاهرة 28/ حزيران/ 1946 بالرصاص، فوق جسر الاحرار (مود سابقا). وقد استشهد في هذه التظاهرة أول شيوعي، هو الشهيد شاؤول طويق، وشهداء آخرون. ومن ثم أقدمت على ارتكاب مجزرة كاورباغي في 12/ 7 /1946 ضد عمال النفط المعتصمين في منطقة كاورباغي في كركوك. والمجرم أرشد العمري قبل أن يصبح رئيسا لمجلس للوزراء كان أمينا للعاصمة بغداد. ومن صفاته البارزة هو الطيش والرعونة والتهور وفاقدا لوقار المسؤولية، وعندما كان أمينا للعاصمة لا يتورع من ملاحقة باعة اللبن الجوالين راكضا وراءهم في الاسواق لغرض سكب اللبن على الارض والأرصفة. وصدق الجواهري الكبير عندما قال قصيدته المشهورة بحقه:

أي طرطرا تطرطري تقدمي تأخري
وطبلي للباججي وزمري للصدر
وزارة كركري يرأسها ابن العمري

2 – كان العراق طيلة الحرب العالمية الثانية، وما قبلها، يعيش تحت وطأة الاحكام العرفية، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بانتصار الدول الديمقراطية، وعلى رأسها الإتحاد السوفيتي ضد محور الشر.
3 – رغم معايشة الرفيق محمد علي زرقة للرفيق زكي محمد بسيم حياتيا وتنظيميا، وقع في خطأ بسيط في تسميته، والصحيح هو زكي محمد بسيم، صاحب المقولة المشهورة عند منصة الاعدام بتاريخ 14 / 2 /1949:
"لو قدر لي العودة الى الحياة مرة ثانية، لما اخترت غير هذا الطريق".
ولغرض تبيان الحقيقة للقارئ، والمتابع الكريم، أرجو نشر هذا التصويب، وتقبلوا خالص تحياتي الرفاقية وشكرا.

الرفيق
الشيوعي المخضرم
محمد رشيد جبر
بابل/ المحاويل
٢٠١٦ / ٩ / ٢٨

طاولة حوارية لمجلة (الثقافة الجديدة) بعنوان:

(ازدياد حالات الطلاق وأثره على المنظومة القيمية للأسرة - مدينة الصدر نموذجا)

في الأول من تشرين الاول 2016 وبالتعاون مع جمعية الأمل العراقية، اقامت مجلة (الثقافة الجديدة) طاولة حوارية استضافت فيها عددا من السادة القضاة والمحامين والاكاديميين. وكانت الطاولة بعنوان (ازدياد حالات الطلاق وأثره على المنظومة القيمية للأسرة – مدينة الصدر نموذجا).

حضر الطاولة

- **القاضي سالم روضان الموسوي/ قاضي الاحوال الشخصية الرصافة**
- **القاضي عماد نعيم العكيلي/ قاضي الاحوال الشخصية في مدينة الصدر**
- **الاستاذ رائد فهمي/ الوزير الاسبق للعلوم والتكنولوجيا**
- **الدكتورة رواء ناطق الشيخ/ استاذة علم النفس بجامعة القادسية**
- **الدكتور جاسم محمد الساري/ استاذ علم النفس بجامعة بغداد**
- **الآنسة نور حميد مصلح/ الباحثة الاجتماعية في محكمة الرصافة**
- **المحامي علي خنجر الاميري**
- **المحامي حيان الخياط**
- **المحامي أمير حسين العنبكي**

وقدم للطاولة الشاعر ابراهيم الخياط ممثلا عن مجلة (الثقافة الجديدة)، وادارها الاعلامي المعروف عماد جاسم.

الشاعر ابراهيم الخياط (الى اليسار) والإعلامي عماد جاسم (الى يمين الصورة)

في البداية رحب الشاعر ابراهيم الخياط وباسم المجلة بالحضور الكرام، مشيراً الى أن المجلة يعود اصدارها الى العام 1953 بالتعاون مع المثقفين والفنانين والشعراء، حيث صدرت ثلاثة أعداد منها عام 1953 و1954 وتم حجب العدد الرابع ولم يصدر الا بعد ثورة 14 تموز، علماً أن المجلة لم تصدر بصورة سرية. والمجلة مواظبة على الصدور كل شهرين وقد تصدرت لأكثر من قضية سابقا ولاحقاً.

المجلة عقدت الكثير من الطاولات الحوارية والآن تتصدى لحالات الطلاق وازدياده والآثار التي يتركها، حيث هناك اسباب اجتماعية واقتصادية وحتى سياسية. وفي النية عقد طاولات اخرى. وننتهز هذه الفرصة لنتوجه بالشكر للحضور الكرام وكذلك تعاون جمعية الامل العراقية، التي نعقد هذه الطاولة في مقرها.

مدير الندوة الاستاذ عماد جاسم:

نشكر السادة والسيدات، الحاضرين والحاضرات، على المساهمة في هذه الطاولة حيث عودتنا مجلة (الثقافة الجديدة) على مثل هذه الطاولات. لقد تم اختيار مدينة الصدر نموذجا لحالات الطلاق، ولكن هذا لا يعني عدم وجود هذه الحالات في مناطق اخرى. لنتفق في البداية على آليات الطاولة: يقدم الضيوف ملخصا مدته لا تزيد عن عشر دقائق لأوراقهم البحثية، وبعد ذلك يتم تقديم المداخلات والتساؤلات والآراء. ثم فتح باب المداخلات للسادة والسيدات الحضور.

كان أول المتحدثين القاضي سالم روضان الموسوي، الذي استهل حديثه بتقديم الشكر الى مجلة (الثقافة الجديدة) وجمعية الامل. وأشار في حديثه الى أن تسليط الضوء على هذه الظاهرة والالتفات إليها، هو مبادرة مهمة لإيجاد الحلول لحالات الطلاق والتعامل مع حالات الطلاق. وتطرق الى أن بحثه يتناول: أهمية البحث الاجتماعي في تطور المجتمع، فالمجتمع بحاجة الى تطوير، وتظهر حالات جديدة في المجتمع على الاقل في كل عقد هناك تحول زلزالي في المجتمع، وكل مرحلة تعطينا نتائج قد تكون سلبية او ايجابية. في مدينة الصدر وهي مدينتي عملت فيها كمحامي وقاضي احوال شخصية، لاحظت أن هناك فرقا في طبيعة المجتمع في هذه المدينة عن المناطق الاخرى في بغداد. المجتمع في مدينة الصدر يتميز بالطابع العشائري الريفي ونحن لا نستطيع ان نمنع الطلاق. عقد الزواج وجد لأساس المودة واذا انتفت يكون الانفصال أفضل والمشكلة في مرحلة ما بعد الطلاق. قبل الزواج العلاقة ودية وعندما يختلف الزوجان تنتفي الحالة السابقة وتبدأ حالات العداء. وفي مدينة الصدر قد تمتد الخصومة بعد الطلاق لحالات القتل بينما في المناطق الحضرية تكون الحالة أخف، فالمرأة لديها الاندماج في المجتمع واحيانا قد تتزوج المرأة بعد الطلاق، والمرأة هنا عاملة لها القدرة على قيادة نفسها، بعكس المرأة في الريف أو في المناطق التي ما زال يغلب عليها الطابع والوعي الريفي، المرأة هي وسيلة انتاج وتابعة للرجل بعكس وضع المرأة في المدينة حيث مستوى التعليم في المدينة أفضل من الريف.

إن البحث الاجتماعي يتناول دراسة المشاكل الاجتماعية والأسرية وخصوصا المتعلقة بقضايا التفريق والحضانة والوصاية وسواها من المواضيع؛ كما يسهم بتشخيص الخلل في المنظومة الاجتماعية وتأشير ذلك من اجل إيجاد التشريعات التي تعالج هذه المشاكل والنهوض بالمجتمع نحو التطور. من الإشارات الأولى للبحث الاجتماعي

في المنظومة القانونية العراقية والعمل القضائي حين عيّنت وزارة الشؤون الاجتماعية عددا من الموظفات من خريجات فرع الخدمة الاجتماعية باحثات اجتماعيات وانتدبن للعمل في المحاكم الشرعية وذلك عام 1954، ثم استحدثت هيئة البحث الاجتماعي بموجب التعليمات العدد (4) لسنة 1985 التي أصدرها وزير العدل بموجب المادة (11) من قانون وزارة العدل رقم (101) لسنة 1977. ومن خلال ما تقدم نجد ان الهيئة المذكورة تمثل جزءا من منظومة عمل المحاكم والقضاء العراقي وتخضع لرقابة القاضي إداريا وتعمل تحت إشرافه والهيئة دورها ينحصر بالجوانب الفنية من إعداد الإحصائيات والدراسات وتطوير المهارات للباحث الاجتماعي. وكان البحث يتم بعد إقامة الدعوى وبناء على قرار من قاضي محكمة الأحوال الشخصية بإحالة طرفي الدعوى إلى البحث الاجتماعي قبل النظر في الدعوى وتكون في قضايا التفريق والحضانة والوصايا وقضايا القاصرين وسواها، ويكون التقرير المقدم من الباحث الاجتماعي بعد الإحالة وأحيانا تؤجل الدعوى لجلسة أو جلستين لحين ورود تقرير البحث الاجتماعي الذي في أحسن أحواله لا يتعدى اللقاء من الزمن ساعة واحدة بين الباحث الاجتماعي وطرفي الدعوى وفي غرف مزدحمة بأعداد المراجعين والموظفين، وأحيانا يكون الباحث الاجتماعي مكلفا بمهام إدارية إضافة لعمله. واغلب الحالات تأتي بنتائج سلبية، منها عدم التمكن من المصالحة أو تقريب وجهات النظر بين الطرفين المتخاصمين، ومن ثم يتم بناء عقيدة المحكمة على ذلك التقرير بالتفريق أو رد الدعوى دون أن يقترن برضاء وموافقة الطرفين، ويكون له دور في بناء عقيدة المحكمة عند إصدارها لقرار الحكم.

تم تطوير عمل الباحث الاجتماعي عندما اصدر مجلس القضاء الاعلى التعليمات رقم 1 لسنة 2008 المعدلة، وفيها تم احداث نقلة نوعية في عمل البحث الاجتماعي اذ اصبح الباحث الاجتماعي مستقلا تماما في عمله عن المحكمة، من الناحية الفنية المتعلقة باختصاصه. ويرتبط بهيئة البحث الاجتماعي التي ترتبط بأعلى الهرم الوظيفي في مجلس القضاء الأعلى وزاد عدد الباحثين الاجتماعيين، وأسس في كل محكمة أحوال شخصية مكتب للبحث الاجتماعي، يضم عددا من الباحثين الاجتماعيين، وبحسب زخم العمل. واصبح للباحث الاجتماعي كامل الحرية في التعامل مع الحالة، بعيدا عن اجراءات الترافع واصبح مرحلة سابقة على النظر في الدعوى، وله ان يتمدد زمنيا. ومنح الباحث الاجتماعي الفرصة في إجراء أكثر من جلسة بحث بين أطراف الدعوى وأحيانا ينتقل إلى موقع الأسرة وبيت الزوجية أو حتى الى موقع العمل، وله الصلاحية في تمديد مدة البحث إذا كانت ضرورية. ومن دراسة احصائيات الدعوى ومقارنتها بين الفترتين يتوضح لنا زيادة في حالات الصلح خلال الاعوام بعد تطوير عمل الباحث الاجتماعي.

وبعد ذلك تحدث القاضي الاول عماد نعيم حسن العكَيلي، قاضي محكمة الاحوال الشخصية في مدينة الصدر قائلا: نشكر مجلة (الثقافة الجديدة) وجمعية الامل على تسليط الضوء على مشكلة الطلاق في مدينة الصدر. هذه المدينة تعاني من كثرة البشر فيها وكثرة المشاكل الاجتماعية. الطلاق كظاهرة اجتماعية خطيرة، المجتمع في مدينة الصدر قبلي والنظرة الدونية للمرأة مازالت ظاهرة

منتشرة وكذلك النظرة الدونية للابن، اذا كانت علاقته حسنة مع الزوجة. حالات الطلاق في المدينة كثيرة جدا، الزواج من 70 – 120 كعقد زواج، والطلاق من 50 100– يوميا. المجتمع ينظر للمرأة كقنبلة موقوتة ويجب تزويج البنات رغم انهن بحاجة الى توجيه، وكذلك يعملون على تزويج ابنائهم وهم صغار السن، وهذه الحالات قد تؤدي الى التفريق والطلاق وبنسبة 30 – 40 %. وهناك أسباب متعلقة بالاختيار. وفي المناطق الشعبية تكون الفترة قصيرة للتعارف والزواج وهذه الفترة القصيرة لا تعطي الصورة الحقيقية للزوج او الزوجة، وبعد الزواج تنكشف الحالة. هناك اسباب متعلقة بالمرأة وجهلها بواجباتها تجاه زوجها وتجاه اهل زوجها ولا تعرف حقوقها من اين تبدأ وأين تنتهي، وقد ينظر الزوج لها بأنها مجرد خادمة لقضاء حاجته منها. الرجل ينظر للمرأة انها لخدمة حاجاته الخاصة، تنظيف البيت، تربية الاولاد وقضاء الوطر الجنسي. وقد يبحث الرجل عن امرأة كند له خارج بيت الزوجية. هناك تأثير المجتمع، فالمرأة التي يتقدم بها العمر ينظر لها المجتمع بأنها غير مرغوبة للزواج وهي نظرة سطحية، وقد يؤثر ذلك محدثا اضطرابات نفسية للمرأة كي لا تصبح عانساً، ولذلك تبحث عن اي زوج كان، حتى يقال عنها انها متزوجة! اليوم في مدينة الصدر تم تقسيم البيوت الى قطع صغيرة متلاصقة، وهناك عدم مشاركة بين الزوجين في الحوار، ما ساعد على الخيانة الزوجية، وتشكيك الرجل بزوجته، معتقدا انها تخونه عند استخدامها الموبايل. هناك موجة تعاطي الحبوب المسكرة التي تنتج عنها مشاكل قد تؤدي الى الطلاق. كذلك تغيير الحالة المادية وعدم انفاق الزوج يؤدي الى الطلاق. وبعد زيادة الرواتب اخذ الرجل ينظر الى المرأة الموظفة صاحبة الراتب خاصة في 2008، وكانت اكثر حالات الطلاق في سلك الشرطة. هناك أسباب نفسية للطلاق اهمها الملل بين الطرفين، حيث الحياة الرتيبة، ولا يوجد تجدد في الحياة. هناك حالة غياب الحوار بين الزوجين، فالزوج متعب باعتباره رب الاسرة والمالية، ولا يوجد حوار وعدم المشاركة بين الزوجين في الحوار، وعدم وضع الحلول للمشاكل ووسائل الحد من الطلاق، الى جانب الجهل بحقوق الزوجين. وينبغي تعزيز دور الباحث الاجتماعي عند الزواج اولا. وعلى سبيل المثال في تونس يحال الزوجان الى لجنة نفسية قبل الزواج.

الدكتورة رواء ناطق الشيخ/ أكاديمية:

شكراً للدعوة الكريمة، لقد تم اغناء الموضوع من السادة القضاة. بالنسبة لي سأتحدث عن صدمة الطلاق وهل تعتبر صدمة للمرأة فقط أم للطرفين، وما هي الآثار النفسية باعتبار مجتمعنا مجتمعا ذكوريا؟ وهل هناك ضغوط نفسية تتعرض لها المرأة؟ وهل يصاب الرجل بصدمة الطلاق أيضاً؟

الطلاق كصدمة نفسية تم تشخيصها من بداية الدراسات التي تناولت الصدمات النفسية كحالة مهددة للمرأة تمر بثلاث مراحل: الانكار والمقاومة والإعياء. مرحلة الاعياء تبدأ المرأة بالدخول بدوامات الاضطرابات النفسية حيث تصاب بالاكتئاب كونها مطلقة ويحدث لديها حالة توتر ويؤثر عليها الطلاق في حياتها وعملها والخوف من المجهول خاصة اذا كانت لا تملك مصدرا اقتصاديا. وهناك حالة الاكتئاب الانفعالي وزيادة ارتفاع الهرمونات ويؤدي الى فقدان الشهية والعزلة وعدم الشعور بالسعادة، وإذا كان لديها أطفال فهذه كارثة. بعد

الطلاق يحدث التقزم النفسي وهي متلازمة التقزم النفسي حيث تتكون لديها مشاعر الاحتقار للذات وصورة مشوهة للجسد ومشاعر الفشل المتواصلة والاحباط. وقد تنعكس هذه المشاعر على الأطفال، اضافة الى تولد الميول الانتحارية وقد يقل ذلك اذا كان لديها اطفال والبعض من النساء ينتحرن مع اطفالهن، وتصبح الشخصية امام توجهين أساسيين؛ الموقف السلبي من كل الاحداث فتصبح شخصية سلبية غير فاعلة، مكتئبة ومنطوية على الذات، ذات صورة سيئة عن النفس. وقد تصاب بفرط الجفلة وتعاني من احلام وكوابيس مزعجة واضطرابات النوم.

ان ظهور الحالات النفسية هي جرس انذار لكن يمكن معالجتها، وأنا من اشد المعجبين بالتجربة الماليزية فالرئيس المهاتير محمد عندما جاء للحكم كانت نسبة الطلاق الى الزواج عالية. فبدأت الحكومة بتنفيذ خطة طموحة، بعد استشارة المتخصصين استطاعت من خلالها تخفيض هذه النسبة الى حد كبير. اليوم لا يسمح للشباب في ماليزيا بالزواج الا بعد الحصول على (رخصة الزواج). وهذه الرخصة تمنح بعد اللجوء الى دورات تدرّس فيها مواد عن الحياة قبل الزواج وبعد الزواج. وايضا دروس حول الحياة الصحية والنفسية والروحية للمتزوجين مع اتاحة فترة يلتقي فيها الطرفان من اجل تعارف اكثر. ولو تم تطبيق هذا الموضوع على الاقل في ما يتعلق بالفحص النفسي لقلت نسب الطلاق عندنا.

من جهة اخرى يجب دراسة الاثار النفسية الناتجة العنف الذي تواجهه المرأة وبالأخص الرفض والعنف المجتمعي سواء النفسي او المادي الذي تعانيه المرأة بعد الطلاق.

تعتمد الآثار النفسية المترتبة على هذا الرفض والعنف ضد المرأة على الكثير من العوامل منها: الشدة، التكرار، الاستمرارية، ادراك المرأة للعنف ونوع العلاج والرعاية اللاحقة التي تتلقاها بعد العنف. كما تختلف الآثار النفسية للعنف من حيث (نوع العنف الممارس)، فضلا عن مدة ظهور الاعراض النفسية، اذ تقسم الى: قصيرة الامد وتلك طويلة الامد؛ الاولى تحدث فور وقوع العنف مثل (نوبة الاكتئاب الانفعالي، نوبة القلق، او البكاء الهستيري او نوبة الغضب) او افكار ومحاولات انتحار او الادمان على المهدئات او الكحول.

وقد تظهر آثار طويلة الامد تحديدا للمتعرضات لصدمة العنف كالضرب الذي يصل الى التهديد بالقتل او محاولات القتل. وتبدأ الانحرافات والاضطرابات النفسية والسلوكية منها متلازمة التوتر العام، او الاعراض التحولية (الهستيريا).

الدكتور جاسم محمد الساري/ باحث واكاديمي:

كل الاشياء أتت معنا من ميسان، وليس غريبا أن نجد الان قطيعا من الخراف في بيوت مدينة الثورة، الثورة فيها تخمة بشرية التي لها آثارها السلبية. ان ورقتي البحثية تتناول: البنيةُ النفسيةُ للطلاق وللمرأةِ المُطلقة وأطفال الطلاق:

ظاهرة ازدياد عدد حالات الطلاق مشكلةٌ اجتماعيةٌ ونفسيةٌ خطيرة، تعد مؤشرا و"فلتر" كاشفا لعوامل ولظروف اجتماعية مختلفة، وهي مؤشر لضعف الروابط بين افراد المجتمع وجماعاته، فالمُجتمع العراقي مر بجملة من التغيرات الاجتماعية والثقافية والاهتزازات التي أدتَ الى ارتفاع عدد حالاتِ الطلاق.

الطلاق فيه جانب ايجابي فهو خيارٌ إنساني يتعلقُ بحرية الاختيار، فالمُطلقون هُم أفراد التقوا وتفرقوا، وربما هذه الفرقة تكون أفضلُ لهم لما قد ينطوي عليه من حفظ جُزء من الاحترام بينهم ويحفظ كرامة الإنسان، ويُقدمُ لهُ جزء من الحُرية. كُل هذا لا يجعلنا نُجرمُ مفهوم الطلاق فهو سلوكٌ بشري مثل أي سلوك آخر وهو يُمثلُ محاولة لحياة جديدة ويضمنُ حرية الاختيار، وهو حقٌ من حقُوق الإنسان ومُتعلق بمفهوم الذات لدى الأفراد وثقافة البلد.

واضيف الى الاسباب العامة للطلاق التي ذكرها الاستاذ القاضي عماد نعيم، اسباباً اخرى: غياب التفاهم النفسي والفروق الفكرية والثقافية. كذلك سيادةُ الأنانية. ولا ننسى حالات الارتباط النزوي القائم على اندفاعية آنية. هذا بدون ان نغفل النزعة الشكية المتنامية تجاه المرأة.

كما اننا نلاحظ تراجعا في القيمة الاجتماعية للأسرة والزواج في الأوساط التي تُعلي شأن تحقيقَ الذات الفردي من خلال الإنجازات المهنية والعامة. ان كمية الاغتراب في الحياة اليوم زادتْ ليزداد معها الاغتراب الزواجي؛ فالفرد يرى أمامه التطرف والعنف والفساد والكذب واللامعيارية؛ فالاغتراب كسرَ اواصر الارتباط بالعالم. ونلاحظ ايضا سيادة شعور عام بالعدمية التي رسختها ظروف ما بعد 2003، وكذلك الوهم الافتراضي الذي خلقهُ العالم الافتراضي الذي وصل بالفرد الى تورم الذات ورؤية صورة جديدة لذاته لا تتساوق وتتناسب مع القرين.

في ظلِ مُجتمع عراقي من سماته الأساسية: الذكورية والفحولة، وبالأخص مُجتمعا شعبويا عشائريا مُتمثلا في مدينة الصدر، الوجهُ الأبرز للسيناريو المُحتمل للطلاق، هو إنَّ الرجل ستكون مُعاناتهُ عادية او ربما بلا مُعاناة! اما الأنثى التي كانت فاقدةُ لذاتها بتحولها الى أداة أو ماكنة خاصة في مثل هذه الطبقات الاجتمَاعية الفقيرة ثقافياً، فإنَّها مع الطلاق ستفقدُ حريتها، او لن تُمارس حريتُها بل تصطبغُ هذه الأنثى بصبغة الشبهة او الوصمة؛ فكيف تستطيعُ ممارسةَ حياتها وتربية أولاد المُطلقة الذين ربما لنَ يروا والدهم، لذا فمن الأفضل هو بقاؤها مع الزوج.

كثير من الآثار المترتبة على الطلاق تلحق بالطفل ومن ثم بالمجتمع، التشرد والجنوح والتأخر الدراسي وغيرها، كما إنَّ لصدمةَ الطلاق تأثيراً كبيراً على الاطفال في تكوينَ شخصيتهم وتوجيه سلوكهم. فدافعُ الثمنَ الأول للطلاق همُ الاطفال وهذا الثمن يتخذُ صوراً مختلفة من الانكسار النفسي والأزمات النفسية وسلوكيات التمرد وسوء التكيف المدرسي والاجتماعي.

يعاني الاطفال من التوتر النفسي والعنف، وانعدام الطمأنينة وارتفاع مستوى القلق بأنواعه المُتعددة كالقلق من العدوان، وقلق التسيب والإهمال والضياع بانفصال الوالدين، وتبنيهم لآلية دفاعية تتخذُ طابع العنف والخشونة تسمى "جلد التمساح" يتحصنون بها بقناع من الخشونة والقسوة والفظاظة، ممارسةً العنف تجاه من هم اقل قوة عن طرق تقليد ومُحاكاة عُنف الأب تُجاه الأم، في ظاهرة من تبادل الأدوار. هذا التماهي لدى أطفال الطلاق يعمل كي يستعيدوا توازنهم النفسي ويشعروا بالقوة من خلال تعميم هذه السلوكيات على مُختلف مواقف الحياة، متجهين نحو الجنوح مع صلابة عودهم وعلاقاتهم مبنية على المصلحة والمنفعة.

طفلُ الطلاق يتعرض ايضا للنبذ العلني من

أحد الوالدين ويوسم انه هو النحس ويُعاملُ بالنبذ والعداء ويفقدُ الاعتراف به وتؤدي الى الشعور بالوصمة وعند استجابته لهذا النبذ والإبعاد، فإنَّهُ سَيردُ بعنف تُجاه الأهل والمدرسة والشارع والقانونً في محاولة لاستعادةَ الاعتراف بشخصه والشعورً بتوازنهِ النفسي الوجودي.

الباحثة الاجتماعية نور حميد مصلح/ بكالوريوس علم نفس – طالبة في كلية الحقوق:

تحية طيبة.. لن اضيف الكثير لما ذكره الاساتذة القضاة والأكاديميون عن اسباب الطلاق او عن اثره النفسي في المرأة والرجل والطفل. وقد تكلمت عن هذا في ورقتي لكني سأتكلم بالنسب والارقام.

اشارت الاحصائيات الى زيادة ظاهره الطلاق في العراق بعد 2003 بشكل كبير؛ اذ ان نسبة الطلاق قبل 2003 قاربت 3% لكنها ارتفعت الى 29% في عام 2005 ثم ارتفعت الى 50% في عام 2007 وبلغت 65% في العام2009. كما ان دعاوى الطلاق بحسب بيان صدر من مجلس القضاء الاعلى بلغت في عام (2004) 28.689 ألف دعوى، وبعام (2005) 33348 ألف دعوى، وارتفعت الى 35،627الف دعوى في (2006) ثم وصلت الى 41،536 الفا في(2007) ، وبلغت ذروتها عام (2009) 820،453 ألف حالة طلاق .

ومع التباين بين محافظة وأخرى، كانت نسبة الطلاق الاعلى في بغداد، تليها البصرة وجاءت المثنى اسفل الترتيب. وأظهرت احصائيات السلطة القضائية ارتفاع معدلات الطلاق وتسجيلها قرابة 6000 حالة شهريا، فقد سجلت الاحصائيات 5926 حالة طلاق في شهر واحد بمعدل 198 حالة يوميا، وبغداد جاءت بالمركز الاول؛ حيث سجلت محاكم العاصمة العراقية 2719 حالة طلاق خلال شهر واحد.

وإذا اخذنا كنموذج دراسة عن محكمة الاحوال الشخصية في بغداد/ الرصافة؛ إذ بلغت نسبة قضايا الطلاق في المحكمة خلال الاعوام الماضية 81% (2003 – 2015). وكان للباحث الاجتماعي في السنوات الاخيرة دور متميز في حل الكثير من القضايا.

ان هذه الارقام ليست المحصلة النهائية لحالات الطلاق في المجتمع العراقي؛ إذ ان ما خفي كان أعظم، ذلك اننا نفتقر للإحصائيات الميدانية الموثقة، وللتعداد العام للسكان. ونتيجة لتأثير التقاليد الدينية والأعراف العشائرية وقلة الوعي الثقافي فان الكثير من حالات الزواج والطلاق تتم خارج الأطر القانونية، ولا تدرج ضمن السجلات الحكومية فكيف يكون الحال ان تم حصر تلك الحالات وإدخالها ضمن الاحصائيات الرسميةعندها لا بد ان تكون الارقام مخيفة ومثيرة للفزع ولا يسعنا عند ذلك إلا أن نقول بان المستقبل لا بد أن يكون مظلما.

لكن ما يحدث فعلاً هو أن المحاكم لم تفعّل دور الباحثة أو الباحث الاجتماعي، وهو الشخص المخول قضائيا تقديم تقرير للمحكمة عن إمكانية استمرار الزواج من عدمه.

من الضروري توفير الدعم اللازم للباحثين الاجتماعيين والحقوقيين والمشرعين من الكفاءات العراقية الممتازة سواء في الداخل أو الخارج، لغرض دراسة الظاهرة ومعرفة أسبابها المختلفة، والعوامل المؤدية لها وايجاد الحلول الجذرية لها، من خلال تجاوز العامل الاقتصادي والبطالة بتوفير فرص عمل واطلاق القروض الصغيرة

والمتوسطة لدعم المشاريع الفردية الصغيرة وتعقيد اجراءات الطلاق في المحاكم الشرعية وتفعيل دور الباحث الاجتماعي والنفسي في المحاكم الشرعية ليتبوأ دوره الصحيح في مجال ايجاد الحلول للمشاكل بين الطرفين المتخاصمين والحيلولة دون وقوع الطلاق بينهما والحد من ظاهرة ايقاع الطلاق خارج المحاكم المختصة وتوعية الشباب المقبلين على الزواج بأهمية هذا الرباط المصيري المقدس وخطورته وتداعياته وهذا يتم ايضا من خلال الباحث الاجتماعي. وهذا لن يتم إلا اذا صدقت النيّات وتضافرت الجهود لمعالجة كل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية وتحجيم هذه الظاهرة. وهذا لم يحدث حتى وقتنا الراهن، وما تحقق في هذا الصدد لا يتجاوز إصدار قرارات ترقيعية لا تبحث في أصل المشاكل وتجتثها من جذورها.

حيان الخياط/ محامي وناشط مدني:

نشكر مجلة (الثقافة الجديدة) كما اشكر السادة القضاة والاكاديميين على ما تفضلوا به. ورقتي البحثية هي: الطلاق عبر وسائل الاتصال الالكترونية وايضا يمكن دراسة اثره على زيادة عدد حالات الطلاق. وأود الاشارة الى أن القاضي عماد العكيلي له كتاب حول الموضوع بعنوان: "الطلاق بوسائل الاتصال الحديثة". نحن نعيش في "عصر التكنولوجيا" من اهم تجلياته وسائل الاتصال الحديثة، فبضغطة زر يمكننا ان نشاهد ونتحدث مع من نشاء ولو كان في الجانب الآخر.

قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 هو المعني بمسألة تنظيم كيفية إنهاء العلاقة الزوجية، وقد وردت فيه ثلاث طرق: الطلاق، التفريق القضائي، التفريق الاختياري (الخلع). القانون قديم ولا يواكب ما استجد من ظروف الحياة في بعض نصوصه، وعلى الرغم من تعديله عدة مرات إلا انه لا يزال بحاجة إلى إضافة وتعديل ليتناسب مع روح العصر ولمواجهة المشاكل الجديدة التي أخذت بالظهور نتيجة لتطور التكنولوجيا. والتعديل الذي نشير إليه لا يتضمن تجاوزا لفحوى القانون نفسه او مخالفة لنصوص الشريعة التي يستند عليها.

مهما يكن من أمر، فان هذا الموضوع الشائك بحاجة إلى المزيد من البحث والدراسة سواء على مستوى الرسائل والأطاريح او الكتب والبحوث الاكاديمية حيث لاحظنا عدم وجود مصادر كثيرة تشرحه بشكل واف من مختلف جوانبه. ومن جانبنا نتمنى أننا قد أضفنا ولو شيئاً يسيراً لسدّ هذا النقص.

وقد وجهت الكثير من الاسئلة والاستفتاءات للمشايخ والفقهاء والمراجع تستفسر عن استخدام وسائل الاتصالات والتواصل الالكترونية في هذا المجال.

الشيخ محمد جواد مغنية، اكد على عدم وقوع الطلاق بالكتابة ولا بالإشارة عند الامامية إلا من الأخرس العاجز عن النطق. وهذه الكتابة بالورق او على الجوال او وسائل التواصل الاجتماعية. وكذلك ورد إلى المرجع السيستاني عدد من الاستفتاءات ترتبط بهذا الموضوع اكد فيها على عدم صحة الطلاق كتابة.

اما الفقه السنّي فقد اختلف في موضوع الطلاق عن طريق الكتابة مع ترجيح لكفة الرأي الذي ينادي بصحة مثل هذا الطلاق وهناك عدد من الامثلة وردت في فتاوى على موقع "إسلام ويب". وهناك ونماذج اخرى وردت على موقع "صيد الفوائد" موجه إلى الشيخ خالد بن سعود البليهد عضو الجمعية العلمية السعودية للسنّة.

اما الطلاق عن طريق المكالمة الهاتفية (صوتا) فقد اعتبره فقهاء السنّة نافذا كسائر الطرق (انظر فتوى الشيخ خالد عبد المنعم الرفاعي). اما المرجع السيستاني فلا يقر بصحة الطلاق بالتلفون وذلك خلال اجابته على احد الاسئلة. وجواب السيد السيستاني لا يعني عدم صحة الطلاق لأنه تمّ عن طريق الهاتف النقال بل عدم صحته بسبب عدم وجود شاهدين أثناء تلفظ الزوج بصيغة الطلاق، فالفقه الجعفري يشترط وجود شاهدين عند وقوع الطلاق.

اما الطلاق عن طريق المكالمة الفديوية والتي تعني توفر الصوت والصورة بين طرفي المكالمة، بالنسبة للفقه السنّي فان جمهور الفقهاء يذهبون إلى صحة الطلاق عن طريق الكتابة والمكالمة الصوتية، فمن باب أولى أنهم يذهبون إلى ان الطلاق عن طريق المكالمات الفديوية سيؤدي إلى النتيجة نفسها. اما فقهاء المذهب الجعفري فان هناك اختلافا في ما بينهم حول هذه المسألة، إلا أننا عثرنا على جواب للمرجع محمد سعيد الحكيم يقول فيه بصحة مثل هكذا طلاق في حال توفر شروط الطلاق الصحيح.

وفي واقعة حقيقية حكمت محكمة الاحوال الشخصية في بغداد الجديدة بالعدد 8012/ش/2016 برد دعوى اقامتها مدّعية بطلب الطلاق الخلعي وانه غير واقع شرعا لأنه تم عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي (ماسنجر الفيس بك) لان الطرفين من مقلدي المذهب الجعفري حيث يشترط في أحكامه انعقاد مجلس الطلاق حقيقة في مكان وزمان واحد.

وافي حالة اخرى حكمت محكمة الاحوال الشخصية في الكرادة بصحة طلاق مدعية طلاقا رجعيا واقعا للمرة الاولى، وحيث ان الطلاق وقع خارج المحكمة وتم بوجود عدد من الشهود ووقع الطلاق من خلال اتصال هاتفي بالصوت والصورة ولان طرفي هذه الدعوى من اتباع المذهب الحنفي الذي لم يشترط لصحة الطلاق الواقع "الشهادة"، وان سماع المحكمة للبينة الشخصية كان لإثبات صدور فعل الطلاق من الزوج المدعى عليه، وهذا ما ثبت للمحكمة على سبيل القطع.

وبعد انتهاء تقديم ملخصات الاوراق البحثية (والتي ننشر نصوصها كاملة في الجزء الثاني من هذا الملف) فُتح باب النقاش وتقديم المداخلات والاستفسارات.

أول المتداخلين كان الاستاذ رائد فهمي/ وزير العلوم والتكنولوجيا الاسبق حيث أشار في مداخلته الى ارتفاع نسبة الطلاق في مدينة الثورة المرتبطة بحالات الفقر والبطالة. لكن يمكن أن نميز بين نوعين من العوامل؛ أحدهما مرتبط بالعوامل الاقتصادية، وعوامل اجتماعية ضاغطة، اضافة الى العوامل النفسية. الجانب الاخر للرتابة والاختيار وادامة العرقة. هناك مسؤولية جماعية، ومسؤولية الدولة والواقع الاقتصادي ومطالبين بالتطوير. اليوم هناك عوامل عامة شاملة، نواجه مشكلة كبيرة، قانون الاحوال الشخصية وهو قضية كبيرة، تدخل في العوامل المدنية، مثلا حالة القاصرين، حيث لا يوجد ما يمنع من زواجهما بالنسبة للشرع، ولكن ذلك غير مقبول من الناحية المدنية. هناك معالجات مادية وثقافية وتوعوية وتمهيد لمن يريد الزواج. حالات الطلاق وزيادتها، الدولة مكلفة بمعالجتها، ونحن في طريقنا الى تغيير منظومة القيم، نحن في حالة انفصام وهناك تناقض في منظومة القيم، وضرورة ايجاد الحلول اللازمة.

مدير الندوة الاستاذ عماد جاسم:
اتمنى ان توجد دراسة مستقبلية لحالات الطلاق، بعض الدول لديها دراسات حول المطلقات وامكانية نجاح المطلقة وضرورة معرفة الحالات في المجتمعات الأخرى، علما اليوم المطلقة لدينا ليست كالسابق.

المحامي علي خنجر الاميري:
ان هذا الموضوع يمثل عصب الحياة في مجتمعنا، وقد أتت الينا قيم اثرت على المرأة لم تكن موجودة في السابق. المرأة اخذت نظرة تاريخية متخلفة هي عنصر سلبي وهي عار على الرجل حيث أنها معرضة للسبي، وهيمنة الرجل عليها، لهذا مرّ المجتمع العربي بمرحلة وأد البنات أو قتل النساء. نظرة المجتمع للمرأة سلبية، النظرة الدينية نظرت للمرأة نظرة دونية في الاسلام وكذلك لدى الديانة اليهودية والمسيحية. وفي روما تقول الاسطورة ان مؤسسها لم يرضع من امرأة وإنما من ذئب! المرأة اخذت نظرة تاريخية متخلفة فرضت عليها نظرة اجتماعية. وبعد دخول عرب الجزيرة للعراق دخلت هذه الافكار لمجتمعنا، لم يحدث أي تغيير عند المرأة، وبقيت الجواري تملأ أسواق بغداد في عهود سابقة، وهذا يدلل على اهانة النفس البشرية وبقيت متلازمة معنا الى يومنا هذا؛ حيث يعتبر البعض المرأة ناقصة عقل. وحول اسباب الطلاق اشار المتحدث الى أن مجتمعنا في الريف تحكمه بعض العادات، التي ادت الى تفكك الرابطة الأسرية، فمثلا، عندما يتزوج الابن فيكون ذلك في بيت والده؛ حيث سيؤدي ذلك الى بقاء السلطة الابوية. كانت الرابطة الاسرية في الستينات جيدة ولكن الحروب أدت الى اضعافها.
وعقبت الانسة نور حميد على ان المرأة المطلقة في الخارج يختلف وضعها عما هو عليه في العراق، فهناك يوجد تقبل لذلك بينما عندنا المرأة تطمس. نحن مجتمع ذكوري لا يوجد تكيف للمرأة في العراق مع حالة الطلاق.
وتطرق الاستاذ عماد جاسم الى وضع المرأة في تونس حيث تم تجاوز العنوسة كثيرا وللمرأة هناك استقلالية.
من جهته، تساءل المحامي أمير حسين العنبكي حول الطلاق بين زوجين في مكانين مختلفين أين دور القضاء؟ ويسأل عن مجلس العقد؟
أجاب القاضي سالم روضان الموسوي قائلا: نحتاج الى مجلس العقد في الطلاق الخلع، ويمكن ان يحدث اتفاق بين غائبين. في المذهب الجعفري لا يمكن في مجلس العقد الا بوجود الزوجين في مكان واحد وبشاهدين اثنين. ثم اشار القاضي الى ان من الضروري ان يكون هناك انتقال في علم النفس من الجانب النظري الى الجانب الميداني ويمكن التعاون مع مراكز البحث النفسي في ذلك. وكأنما نعتبر ان المرأة هي المسؤولة عن الطلاق ولم نفكر بتوعية الرجل لنخلق الاهتمام والارتقاء به للتنازل عن عرشه. ومن جهة أخرى ضرورة توعية المجتمع ليقبل المرأة المطلقة، فلا توجد مشكلة بعدها عند طلاق المرأة.
وعن أسباب الطلاق فأن 90% تعود الى أسباب اقتصادية من بطالة وعدم وجود وحدة سكنية وضيق السكن الذي يولد اليأس والكفر كما يقول الامام علي (ع). فاذا كانت لديهم وحدة سكنية مستقلة فلا يتخاصموا. علينا ايجاد وحدات سكنية مستقلة وهذه مهمة الدولة في توفير السكن حيث تنتهي 80% من حالات الطلاق. وذكر بأن صدام عندما جاءنا قام بنفي الشيوعيين من المدرسين الى مدينة الثورة؛ حيث كان

لهم دور مهم في جلب الافكار النيرة، التي تأثر بها الطلبة ولكن بعد السبعينيات بدأ صدام بزيادة رواتب العسكريين وأهمل المعلمين ودورهم.

وعقب الدكتور جاسم الساري، مبينا انه من دعاة الخدمات النفسية، وأردف لكن وزارة الصحة لا تسمح لنا بهذا الدور الا للطبيب النفسي، كما لا توجد لدينا نقابة تبيح لنا ممارسة مهنة، وأشار الى أن سوق النخاسة ما زال موجودا في العراق.

وفي تعقيبه بيّن القاضي الروضان بأنه يمكن الدخول عن طريق مجالس المحافظات.

وتساءلت الدكتورة رواء الشيخ عن الرأي في اضافة الاخصائي النفسي الى جانب الباحث الاجتماعي، وهل جاءت حالات طلاق للمحاكم عن تناول المرأة للمخدرات؟ وعن الجنبة الايجابية للطلاق التي اشار اليها د. جاسم الساري في حديثه، نعتقد ان هذا يصح على الاشهر الاولى من الزواج، وليس بعد 35 سنة من الزواج مثلا، مؤكدة أن 90% من حالات الطلاق هي لأسباب اقتصادية، ولكن قد يكون بخل الزوج سببا للطلاق ايضاً. وبينت الدكتورة بأنه كان لديها دور في التثقيف بمسألة العنف الأسري، علما هناك كتاب من وزارة العمل يسمح لنا بممارسة التحليل النفسي والاستشارة النفسية، على أن يكون ذلك بإشراف طبيب نفسي.

وتطرقت الباحثة الاجتماعية نور حميد في تعقيبها وتوصياتها الى ضرورة اعادة القيم والافكار الجديدة والالتفات الى الاجيال القادمة وطلاب الثانوية مع اضافة مادة للمدارس خاصة بحقوق الانسان وتثقيف الطلاب بالزواج والطلاق وزرع الافكار الايجابية لدى الطلبة، والعمل على تقبل المجتمع للمرأة ودور رجال الدين بذلك.

هذا إضافة الى ضرورة ايجاد مراكز ارشاد والعمل على تطوير قدرات الباحثين والارشاد واقامة الدورات العملية لهم، ومنح الصلاحيات للباحث الاجتماعي وحل مسألة الزام الزوج على تنفيذ القرارات وإيجاد الآليات لذلك.

وفي معرض مداخلته اشار المحامي حيان الخياط الى ان سن الزواج في عمر 15 سنة موجود، وان القانون يتغير بعد تغير المجتمع وهناك عدم تقيد بالزواج خارج المحكمة، وقد ازدادت حالات الزواج خارج المحاكم. وعن دور المحامين بيّن بانهم يبذلون ما بوسعهم ولكن القرار بيد القاضي.

وتطرق الدكتور جاسم الساري الى قلة مبالغ النفقة الزوجية والاطفال مما يشجع الزوج على الطلاق. وتحدث عن امكانية مشاهدة الزوج لأطفاله بعد الطلاق في المحكمة وبشكل محدود وفي مكان غير مناسب. كما ان زيادة عدد المحاكم ضرورية للنظر في القضايا المطروحة أمامها.

وعقب القاضي عماد العكَيلي مجيبا على التساؤلات المطروحة في الندوة بأنه وخلال عمله لم تمر عليه حالات المسكرات التي تمارسها المرأة. وعن التعويض عن الطلاق أشار الى احدى التجارب؛ حيث هناك استهانة بموضوع الطلاق من قبل البعض وتوفر الامكانات المالية لديهم.

واكدت د. رواء الشيخ على ضرورة فحص الزوج نفسيا قبل الزواج والاشارة الى ذلك في التوصيات.

أما القاضي سالم الروضان فتحدث عن المشاهدة، مبينا بانه لا توجد مصاحبة ومبيت، هناك مقترح من مجلس الوزراء وفي المصاحبة يكون عمرها اكثر من سبع سنوات وبهذا الصدد هناك متنزهات يمكن التعاقد مع متخصصين في علم النفس يمكن اللجوء

اليهم وقد يساعد ذلك على التقارب بين الزوجين المطلقين. وهناك مشكلة في النفقة قد تفرق اكثر بين الزوجين، وهناك قرار بإنشاء صندوق للنفقة تستقطع من الزوج وتأتي الزوجة لاستلامه ولكن هذا لم يفعّل. وهناك موضوع الا وهو ضرورة تفعيل مادة الفنية في المدارس والثقافة الفنية والمسرح والادب حيث أن لها أهمية في توعية الطالب. واحيانا قد يكون هناك خلل في المرأة فقد يكون عقلها ذكوريا، والمرأة لا تدافع عن نفسها، ولكن الامل موجود.

وختم الاستاذ عماد جاسم ومن بعده الشاعر ابراهيم الخياط، اعمال الطاولة الحوارية شاكرين الحضور الكرام على دورهم في الطاولة الحوارية، وجمعية الامل على تعاونها في اقامة هذه الندوة.

وفي أدناه خلاصة للتوصيات التي توصلت اليها الطاولة الحوارية:

1. ضرورة تعديل قانون الاحوال الشخصية ليتناسب مع روح العصر، واسباغه بنزعة مدنية، والسعي الى تقليص المساحة الذكورية فيه عن طريق جعل حق التفريق تشاركيا انطلاقا من مبدأ المساواة بين المرأة والرجل. وكي يستطيع القانون بعد تعديله حل المشاكل الجديدة التي ظهرت نتيجة تطور التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي.

2. العناية بالأسرة العراقية والاهتمام بها لأن ذلك سيساعد على النهوض بالواقع الاجتماعي وإيجاد الآلية اللازمة لذلك. مع السعي الى معالجة المشاكل الاجتماعية قبل وقوع الفعل الذي يؤدي الى تفاقم الاثار السلبية.

3. معالجة الاوضاع الاقتصادية عموما والعمل على حل أزمة البطالة وأزمة السكن وهي من الاسباب المهمة لحالات الطلاق.

4. زيادة عدد المحاكم والقضاة، والاهتمام بهيئة البحث الاجتماعي وبالباحث الاجتماعي وتعزيز عمله باختصاصات من علم النفس وعلم الاجتماع.

5. فحص الزوجين نفسيا قبل الزواج وبيان مدى اهليتهما للزواج وإيجاد الآلية المناسبة لذلك. مع السعي الى انشاء مراكز الخدمة النفسية والقيام بالزيارات الميدانية للأسر.

6. تشريع قانون يمنع زواج القاصرين ومنع الزواج خارج المحكمة وزيادة مبالغ النفقة الزوجية وإنشاء صندوق للنفقة الزوجية تستقطع من الزوج.

7. امكانية جعل (مشاهدة المحضون) في المنتزهات وبحضور الطرفين بدلا من المحكمة حيث ان ذلك قد يساعد على تقارب وجهات النظر بين الزوجين المتخاصمين.

8. توعية الطلاب بمفهوم الزواج والطلاق وواجبات الزوجين وحقوقهما عن طريق ادخال مواد دراسية ضمن المنهاج الدراسي. وتفعيل مادة التربية الفنية والمسرح والأدب في المدارس حيث لها اهمية كبيرة في الارتقاء بوعي الطالب بالعلاقات الانسانية.

9. التوجه لوسائل الاعلام لأداء دورها في التوعية والإرشاد وإلقاء الضوء على ظاهرة الطلاق الخطرة.

10. التعاون مع منظمات المجتمع المدني والتشجيع على اقامة المؤسسات الاجتماعية التي تهدف الى ايجاد افضل الطرق والوسائل من اجل دراسة وإيجاد حلول لمشاكل الاسرة وتوعيتها. والعمل على ان يتم دعم هذه المؤسسات ونشاطها من قبل الدولة.

11. التثقيف الدائم بأهمية التعامل الايجابي مع وسائل الاتصال الحديث.

النصوص الكاملة للأبحاث والدراسات المقدمة في الطاولة الحوارية

أهمية البحث الاجتماعي في تطوير المجتمع

القاضي سالم روضان الموسوي

القاضي سالم روضان الموسوي، باحث وكاتب في الشؤون القانونية والقضائية وله طروحات فكرية متعددة. نشرت له الصحف والدوريات العراقية والعربية العديد من البحوث والدراسات والمقالات. عضو في العديد من المنظمات والجمعيات والمنتديات الثقافية والقانونية. صدرت له عدة كتب في الجانب القانوني والقضائي.

المقدمة

إن البحث الاجتماعي يتناول دراسة المشاكل الاجتماعية والأسرية ومحاولة إيجاد الحلول لها كما يسهم بتشخيص الخلل في المنظومة الاجتماعية وتأشير ذلك من اجل إيجاد التشريعات التي تعالج هذه المشاكل والنهوض بالمجتمع نحو التطور والتقدم، ولا بد لنا ان نعرف ماهية الأسرة لكي ندرك أهمية البحث الاجتماعي لأنه ينصب على دراسة المشاكل التي تحدث من خلال العلاقات الأسرية. وتعد عملية البحث الاجتماعي مجهودا إنسانيا منظما وهادفا يتجه به الباحث إلى الكشف عن طبيعة المشكلات الاجتماعية ومعالجتها. وهذا ما يطرح قضية هامة تتعلق أساسا بصيرورة اجتماعية لها محددات لا بد أن يراعيها البحث الاجتماعي، كما أن هذا الأخير يختلف في طبيعته؛ فمنه من لا يتعدى المجال النظري للظاهرة الاجتماعية باعتبارها موضوع البحث بصفة عامة ومنه من يتعدى ذلك إلى الدراسة الميدانية للظاهرة الاجتماعية. وسأتولى العرض في هذه الورقة بعدة فروع وعلى وفق الآتي:

الفرع الأول
مفهوم الأسرة

1. عرّفت كتبُ اللغة أسرةَ الرجل (بأنهم رهطه الذين يتقوَّى بهم). ورهط الرجل: (أهله، وقومه، وقبيلته، وعشيرته) (1). والأسرة بمعنى عائلة الرجل، أهل الرجل وعشيرته "ذهب هو وأُسْرته إلى المصيف - أسّس أُسْرة ناجحة"/

الأُسْرة المالكة: أهل الملك أو الملكة – ربُّ الأُسْرة: عائلها والمسؤول عنها. والأسرة أيضا جماعة يربطها أمر مشترك "أُسْرة الجمعيّة التَّعاونيّة – الأُسْرة التعليميَّة: العاملون في حقل التعليم" أُسْرة اللُّغات السَّاميَّة: فصيلة اللغات الساميَّة – أُسْرة عمل: فريق عمل. والأسرة رهط الرجل وتُقَدَّرُ عدة الرهط عادةً، بما فوق الثلاثة، ومادون العشرة، وفي بعض المعاجم اللغوية بأن أصل الأسرة هو الشد بالقيد، ومنه يقال أُسِرَ الرجل إذا أوثق بالقيد وهو الإسار، ويعرف الناس جميعا بالبداهة أن الأسرة تتكوّن من والدين هما المرء وزوجه، ومن أولادهما وذوي قرباهما: من جدين وجدتين وأعمام وعمات وأخوال وخالات وأبنائهم جميعا (2)، وعلى هذا، فإن الأسرة هي المجتمع الذي يوكل إليه أمر التقيد بالأعراف الاجتماعية، والتزام العادات والتقاليد الحضارية، وإتباع القيم الدينية، والأخلاقية، ونقل مفاهيمها السامية النقية الصافية إلى الأجيال المتعاقبة عبر العصور.

2. أما عن المنظور الإسلامي للأسرة فإننا لم نجد لفظ (الأسرة) قد ورد بهذا الاستعمال في القرآن الكريم، ولا في السنة النبوية المطهرة، إلا أننا نجد المفهوم متداولاً فيهما بألفاظ أخرى ويبين القرآن الكريم للناس في الآيات الأولى من سورة النساء أن المجتمع الإنساني، بعشائره، وقبائله، وأقوامه، وأممه وشعوبه، ذو أصل واحد، ومنشأ واحد، عنه يصدرون ومن وحدته يتفرقون، منبثين في أطراف الأرض، رجالاً كثيرا ونساء. يجمعهم جامع التقوى عن طريق الإيمان بالله، كما تجمع بينهم آصرة الرحم. وفي موضع اخر أشار أصل تكوين الانسان وغاية خلقهم بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْبا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوْا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللهَ عَلِيْمٌ خَبِيْرٌ) (3) والمتتبع لآيات القرآن الكريم في حديثها عن أصول تكوين الأسرة، يجد أنها فصَّلت في نشأة الأسرة، وبينت بيانا لا يدع للَّبْس مجالاً، بل نرى القرآن الكريم يتحدث عن أصل البشرية وبداياتها الأولى، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبا﴾(4) فهذه الآية تبين وتوحي "بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة؛ فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة؛ فخلق ابتداءً نفسا واحدة، وخلق منها زوجها؛ فكانت أسرة من زوجين، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرا وَنِسَاءً﴾، ولو شاء الله لخلق، في أول النشأة، رجالاً كثيرا ونساءً، وزوّجهم؛ فكانوا أسرا شتّى من أول الطريق؛ لا رَحِم بينها من مبدأ الأمر، ولا رابطة تربطها، إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد، وهي الوشيجة الأولى (5). ويمكن لنا ان نقتبس التعريف الاصطلاحي الذي ذكره بعض الكتاب حيث اشاروا الى ان الاسرة (هي مجموع الرجل والمرأة حينما يرتبطان معاً برابطة الزواج التي قد تصطحبها ذرية، وهي رابطة اجتماعية تشمل الجدود والاحفاد وبعض الاقارب على ان يكونوا في معيشة واحدة، وهي وحدة اجتماعية مقومة برابطة الزواج)

(6). من أجل ذلك، حرص الإسلام الحرص كله على صيانة هذه الرابطة الإنسانية من عبث العابثين، وعدها نواة أولية لكل الوحدات، بذرة طيبة منها يتكاثر الخير والإيمان، والصلاح، خلية وطنية منها يتناسل التعارف والتواد بين الناس على تقوى من الله ورضوان.

وهذا يقودنا إلى مدخل البحث الاجتماعي وأهميته في صيانة الأسرة والحفاظ عليها، لأن البحث الاجتماعي يشكل دورا كبيرا ومهما في معالجة المشاكل الاجتماعية.

الفرع الثاني
أهمية البحث الاجتماعي

يعتبر علم الاجتماع من العلوم ذات الصلة بالهيكل البنيوي للأسرة والمجتمع، كما ان للقضاء دورا في صيانة الأسرة والمجتمع من خلال تطبيقاته في مجال الأحوال الشخصية وخصوصا المتعلقة بقضايا التفريق والحضانة والوصاية وسواها من المواضيع. لذا فان الاهتمام بالبحث الاجتماعي هو اهتمام بالأسرة والمجتمع، ويجب المساهمة في دعم القضاء بالوسائل المساندة والمساعدة له في اخذ دوره في توفير الأمن الاجتماعي. وأهمية البحث الاجتماعي تلمسها المختصون في هذا المجال وقدموا دراسات كثيرة تتعلق بمضمونه ومداه وحتى التعريف لمفهوم البحث الاجتماعي لم يقف عند باب معين بل قسم إلى ثلاث فئات أساسية (تعريفه من خلال أهدافه او من خلال إجراءاته ومنهجه وأخيرا بوصفه سلوكا اجتماعيا) وللبحث الاجتماعي أهداف منها:-

1. الوصف، أي بمعنى تسجيل جميع الملاحظات التي تخص البحث، لمعرفة العلاقات المتبادلة وخصائصها.
2. اكتساب معرفة جديدة.
3. التفسير، أي بمعنى معرفة أسباب وكيفية حدوث الظاهرة الخاصة بالبحث، وما نتائجها.
4. التنبؤ، أي بمعنى مقدرة الباحث على إيجاد معطيات عن قيم المتغيرات الخاصة بالبحث.
5. حل المشكلة، بحيث يقوم البحث على حل مشكلات الإنسان الاجتماعية، والإنسانية، والاقتصادية، ووضع الحلول والوقاية منها.
6. التحكم، بحيث العمل على إيجاد ظروف المشكلة وشروطها لظاهرة ما، وتحقيقها في أي زمان أو مكان.
7. التطبيق، أي بمعنى التطبيق العلمي لها في خدمة المجتمع.
8. توفير قاعدة بيانات إحصائية تساعد في الدراسات تجاه الظواهر الاجتماعية سواء كانت مؤسسة بحثية أو مراكز إصدار القوانين وغيرها من المفاصل المتعلقة بالتخطيط الاجتماعي في سياسة الدولة.

الفرع الثالث
هيئة البحث الاجتماعي

من الإشارات الأولى للبحث الاجتماعي في المنظومة القانونية العراقية والعمل القضائي حيث عينت وزارة الشؤون الاجتماعية عددا من الموظفات من خريجات فرع الخدمة الاجتماعية باحثات

اجتماعيات وانتدبن للعمل في المحاكم الشرعية وذلك عام 1954، ثم استحدثت هيئة البحث الاجتماعي بموجب التعليمات، العدد (4) لسنة 1985 التي أصدرها وزير العدل بموجب المادة (11) من قانون وزارة العدل رقم (101) لسنة 1977. ومن خلال ما تقدم نجد أن الهيئة المذكورة تمثل جزءاً من منظومة عمل المحاكم والقضاء العراقي وتخضع لرقابة القاضي إداريا وتعمل تحت إشرافه والهيئة دورها ينحصر بالجوانب الفنية من إعداد الإحصائيات والدراسات وتطوير المهارات للباحث الاجتماعي. ثم تم تطوير وتحديث هذه التعليمات عندما اصدر مجلس القضاء الاعلى تعليمات البحث الاجتماعي رقم 1 لسنة 2008 المعدلة وفيها تم احداث نقلة نوعية في عمل البحث الاجتماعي؛ اذ اصبح الباحث الاجتماعي مستقلا تماما في عمله وله كامل الحرية في التعامل مع الحالة التي يتعامل معها، بعيدا عن اجراءات الترافع وله ان يمدد زمنيا في حالة البحث، اذا وجد ضرورة، وان ينتقل الى الميدان في بيت الاسرة او مكان العمل. وهذه الالية الجديدة وفرت لنا فرصا للإصلاح الاسري اكبر بكثير مما كان عليه البحث الاجتماعي قبل صدور هذه التعليمات. وسأعرض لبعضها بعجالة لبيان الفرق الكبير في الأرقام وسأختار مفصل رئاسة استئناف بغداد الرصافة التي تقع ضمن اعمالها محكمة الأحوال الشخصية في مدينة الصدر باعتبارها من مفاصل القضاء وجعله عينة للجداول الاحصائية:

الجدول الاحصائي الخاص بمكاتب البحث الاجتماعي في محاكم الاحوال الشخصية في استئناف الرصافة لسنة 2009:

عدد الدعاوى الواردة الى مكاتب البحث الاجتماعي: 12715

المحسوم منها: 12479

الصلح: 1183

الإبطال: 3303

المحالة الى القاضي للترافع فيها: 7993

جدول عام 2014

المجموع: 20077

الصلح: 2110

الابطال: 5330

المجموع الصلح: 7440

الجدول الإحصائي الخاص بمكاتب البحث الاجتماعي في محاكم الاحوال الشخصية في استئناف الرصافة للاشهر (10، 11، 12) الفصل الرابع من عام 2015:

عدد الدعاوى الواردة: 6018

المحسوم منها: 4531

الصلح: 584

الابطال: 1030

ويكون المعدل لسنة 2015

المجموع السنوي: 24072

الصلح: 2032

الإبطال: 4120

المجموع: 6152

وفي ادناه مخطط يوضح مقدار الزيادة في حالات الصلح خلال الاعوام المذكورة مع التنويه الى ان عنوان الابطال هو الصلح بين الطرفين، وترك الدعوى دون ان تتم مراجعتها من اصحاب العلاقة او التي لم ينظم فيها محضر للصلح، وإنما يكون عبر التوجيه الشفوي للباحث الاجتماعي في بداية اقامة الدعوى.

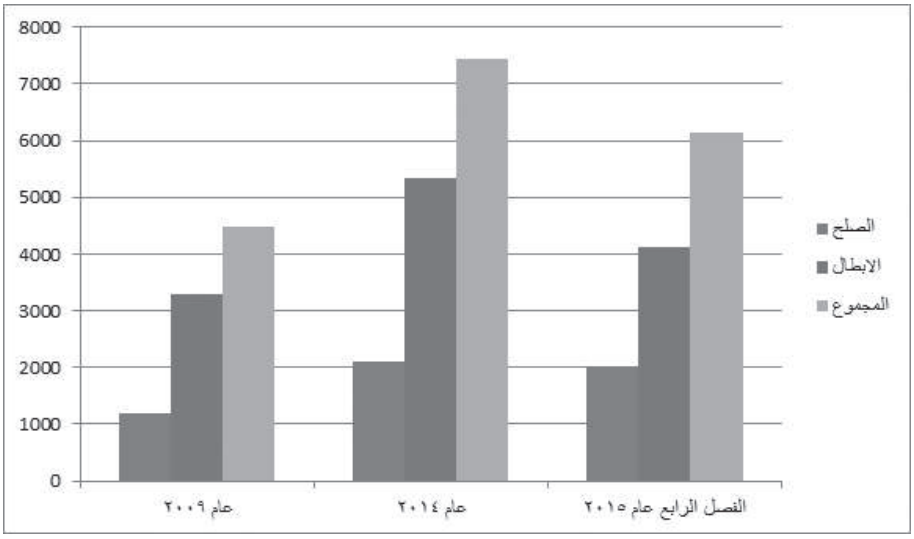

الفرع الرابع
عمل البحث الاجتماعي

إن عمل البحث الاجتماعي في قضايا الأحوال الشخصية يتعلق في دعاوى الأحوال الشخصية للمسلمين وغير المسلمين وحتى غير العراقيين وكان البحث يتم بعد إقامة الدعوى وبناء على قرار من قاضي محكمة الأحوال الشخصية بإحالة طرفي الدعوى إلى البحث الاجتماعي قبل النظر في الدعوى، وتكون في قضايا التفريق والحضانة والوصايا وقضايا القاصرين وسواها ويكون التقرير المقدم من الباحث الاجتماعي بعد الإحالة وأحيانا تؤجل الدعوى لجلسة أو جلستين لحين ورود تقرير البحث الاجتماعي الذي في أحسن أحواله لا يتعدى اللقاء من الزمن ساعة واحدة بين الباحث الاجتماعي وطرفي الدعوى، وفي غرف مزدحمة بأعداد المراجعين والموظفتين وأحيانا يكون الباحث الاجتماعي مكلفا بمهام إدارية إضافة لعمله. واغلب الحالات تأتي بنتائج سلبية بعدم التمكن من المصالحة أو تقريب وجهات النظر بين الطرفين المتخاصمين، ومن ثم يتم بناء عقيدة المحكمة على ذلك التقرير بالتفريق أو رد الدعوى دون أن يقترن برضا وموافقة الطرفين. ويكون له دور في بناء عقيدة المحكمة عند إصدارها لقرار الحكم. إلا أن صدور تعليمات البحث الاجتماعي رقم 1 لسنة 2008 طورت العمل وأصبح البحث الاجتماعي مرحلة سابقة على نظر الدعوى ومنح الباحث الاجتماعي الفرصة في إجراء أكثر من جلسة بحث بين أطراف الدعوى، وأحيانا ينتقل إلى موقع الأسرة وبيت الزوجية أو حتى موقع العمل. وله الصلاحية في تمديد مدة البحث إذا كانت ضرورية. وأصبح الباحث الاجتماعي مستقلا عن المحكمة في عمله من الناحية الفنية المتعلقة باختصاصه ويرتبط بهيئة البحث الاجتماعي التي ترتبط بأعلى الهرم الوظيفي في مجلس القضاء الأعلى،

وزاد عدد الباحثين الاجتماعيين، وأسس في كل محكمة أحوال شخصية مكتب للبحث الاجتماعي يضم عددا من الباحثين الاجتماعيين وحسب زخم العمل.

الفرع الخامس
علم النفس وعلم الاجتماع في تجربة البحث الاجتماعي

إن البحث الاجتماعي يشكل دورا كبيرا ومهما في معالجة المشاكل الاجتماعية، ويعتبر علم الاجتماع من العلوم ذات الصلة بالهيكل البنيوي للأسرة والمجتمع. كما ان للقضاء دورا في صيانة الأسرة والمجتمع من خلال تطبيقاته في مجال الأحوال الشخصية وخصوصا المتعلقة بقضايا التفريق والحضانة والوصاية وسواها من المواضيع. لذا فان الإهتمام بالبحث الاجتماعي هو اهتمام بالأسرة والمجتمع، وتطويرهما يعني رفع مستوى كفاءتهما على الصعيد الفكري والعمل الاقتصادي والتفاعل والتواصل الاجتماعي والإنساني. ويرى الدكتور قيس النوري عالم الاجتماع العراقي ان التطوير يكون عبر عدة محاور منها: تطوير التوجه القرابي، تطوير التوجه الزواج بتطوير العلاقة بين الجنسين، تطوير التراتب العمري، تسريع التكيف الوظيفي والمهني، انماء الممارسات الديمقراطية (7). ومن هذا الاهتمام بالأسرة اضحى من الواجب المساهمة في دعم القضاء بالوسائل المساندة والمساعدة له في أخذ دوره في توفير الأمن الاجتماعي. من الإشارات الأولى للبحث الاجتماعي في المنظومة القانونية العراقية والعمل القضائي حيث عيّنت وزارة الشؤون الاجتماعية عددا من الموظفات من خريجات فرع الخدمة الاجتماعية باحثات اجتماعيات، وانتدبن للعمل في المحاكم الشرعية وذلك عام 1954، ثم استحدثت هيئة البحث الاجتماعي بموجب التعليمات العدد (4) لسنة 1985 التي أصدرها وزير العدل بموجب المادة (11) من قانون وزارة العدل رقم (101) لسنة 1977. ومن خلال ما تقدم نجد ان الهيئة المذكورة تمثل جزءا من منظومة عمل المحاكم والقضاء العراقي وتخضع لرقابة القاضي إداريا وتعمل تحت إشرافه والهيئة ينحصر دورها بالجوانب الفنية من إعداد الإحصائيات والدراسات وتطوير المهارات للباحث الاجتماعي. ولا بد من تعزيز هذه الهيئات بالاختصاصات في علم النفس وعلم الاجتماع لأنها ذات صلة بالتعامل مع سلوكيات الافراد ودراسة نفسياتهم وشخصياتهم والغور في اعماقهم لتحليل المشكلة وإيجاد الحل لها، وهو اصل المجال الذي يبحث فيه علم النفس، فنجد ان دوره كبير وواضح.

الخاتمة

من خلال ما تقدم نجد ان الاسرة هي اساس كل استقرار، وأنها مصدر تقدم المجتمعات فإذا ما اوليناها العناية والاهتمام فإننا سننهض بالواقع الاجتماعي حيث لاحظ علماء الجريمة إن سلوك الإنسان حينما يشكل اتجاها منحرفا فانه يصدر من إنسان تتوفر فيه بعض الصفات منها شخصية الإنسان ذاته سواء في تكوينه العضوي الخارجي، او في تكوينه النفسي وإصابته ببعض مظاهر الخلل والاضطراب النفسي. وتمكن علماء التحليل النفسي من الربط بين مظاهر الخلل النفسي وبين الاندفاع

نحو طريق الإجرام، ولوحظ إن أهم العُقد النفسية عند المجرمين هما عُقدتا الشعور بالظلم والشعور بالنقص، حيث إن عقدة الشعور بالظلم واليأس والإحباط الذي يحمل بعض الناس على التضحية بأنفسهم أو بأرواح بشرية أخرى لإحداث تغييرات جذرية، ففي الدراسة التي أعدتها الأمم المتحدة عن الإرهاب في عام 1979، من خلال اللجنة الخاصة التي شكلتها لدراسة هذه الظاهرة، فهذه العقدة تعني الإحساس بالظلم من جانب المجتمع، والجريمة ستكون في هذه الحالة هي الرد الطبيعي على هذا الظلم، وبذلك لا يتوانى الشخص عن الإقدام على الجريمة تحت تأثير ردع القواعد الاجتماعية أو القانونية او العقابية حيث يقول احد مراجع الدين (دائما توجد مشاركة اجتماعية في العنف، ودائما نحن مشاركون فيه بدرجة ما)، كما يقول غاندي، ليست البنادق البريطانية وحدها هي المسؤولة عن عبوديتنا بقدر ما هي مسؤولية تعاوننا الإرادي مع هذه البنادق، وان الإرادة المنقوصة لدى أفراد المجتمع غير المحصنين أخلاقيا تجعلهم يجدون لدى العنف تحقيقا لتلك الحاجات سواء كانت مادية أو معنوية أو تعبيرا ذاتيا أو ردود أفعال مكبوتة او اهتزازات نفسية (8). وفي بعض تقارير البحث الاجتماعي للجانحين من الأحداث نجد ان سبب ميولهم الى الجريمة هو التفكك والاضطهاد الأسري والعوز والفقر المادي ليسا هما السبب الوحيد في جنوح بعض الأحداث، بل ان غياب رقابة الوالدين قد يدفع لجنوح بعض الأحداث من بين الأسر المقتدرة ماديا، وهذا ما يمثل الأهمية في الالتفات الى المعالجة الاجتماعية قبل وقوع الفعل الذي يؤدي إلى تفاقم الآثار السلبية ودراسة أسباب هذه المشاكل الأسرية ومحاولة توفير الحلول العملية لها وليس التنظير عبر البرامج الإصلاحية التي ليس لها من وجود سوى في الإعلام.

الهوامش:

(1) للمزيد انظر: معاجم اللغة العربية.

(2) لسان العرب، لابن منظور.

(3) الآية 13 من سورة الحجرات.

(4) الاية 1 من سورة النساء.

(5) الدكتور بن يحيى الطاهر الناعوس ـ الاسرة في القرآن الكريم ـ ص 6، بحث منشور في شبكة الانترنيت.

(6) غدير حمودي، فقه نظام الاسرة في القرآن الكريم ـ منشورات دار الولاء ـ بيروت ـ ط1ـ ص 15.

(7) للمزيد انظر: الدكتور قيس النوري ـ مرجع سابق ـ ص 100 وما بعدها

(8) للمزيد انظر: القاضي سالم روضان الموسوي ـ فعل الإرهاب والجريمة الإرهابية ـ منشورات الحلبي الحقوقية ـ بيروت ـ ط1ـ عام 2010 ـ ص 60.

ظاهـــرة الطـــلاق - اسبابها ومعالجتها

القاضي عماد نعيم حسن العكَيلي
قاضي محكمة الاحوال الشخصية في مدينة الصدر

قال تعالى في كتابه الكريم
بسم الله الرحمن الرحيم
((يا ايها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا ان يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امرا فإذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف واشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الاخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا)).
(سورة الطلاق 1 – 2)

يعد الزواج عماد الاسرة القويم وهو سنة الله في الكون فقد كتب الله الزواج على الانسان والحيوان والنبات، فقد قال تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) فهو سنة الله في الكون كله. والله خلقنا ازواجا وجعل الزواج عماد الكون والحياة على الارض.

والزواج ركن اساسي تقوم عليه الحياة فهو اساس الاسرة التي هي نواة المجتمع وهو اساس العلاقة التي تحكم الرجل والمرأة قال تعالى (يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا).

ونظرا لمكانة الزواج وخطورته على المجتمع فقد كانت عناية الله عز وجل به وما يترتب عليه واتى الاسلام ليوضح قواعده وأسسه لأنه الاساس الذي تبنى عليه الاسرة المسلمة اللبنة الاولى في المجتمع، ولما لهذا من خطورة ومكانة في النظام الاجتماعي تولاه الشارع الحكيم برعايته وتفصيل قواعده وتحديد احكامه منذ التفكير فيه الى اتمامه ثم احاطه بعنايته منذ قيامه حتى نهايته بالطلاق او الموت، ولم يتركه للناس كي يقيموا قواعده.

وقد شرع الطلاق كعلاج لحالات مستعصية للخلافات الزوجية التي لا يمكن حلها إلا بالطلاق، وقد وضع الشارع الحكيم الوسائل الوقائية والطرق العلاجية حتى تحمي الاسرة من التشرد والضياع وتجعل الزوج لا يقدم على الطلاق حتى يستنفذ جميع الفرص التي منحه الشرع إياها، ولكن بعد ان تخفق جميع تلك الوسائل العلاجية لرأب الصدع ويستمر الخلاف بين الزوجين على اشده وتصبح الحياة جحيما لا يطاق بالنسبة للزوجين عندئذ لا بد منه. وعلى هذا فالطلاق ليس مشكلة كما يتوهم البعض انما هو حل لمشكلة عجز عن حلها

الزوجان. والأهل الحريصون على الوفاق، وربما باءت جهودهم بالفشل ولم يفلحوا في اعادة البسمة الى الاسرة فكان الطلاق حلا مقبولا رغم قسوته.

والطلاق هو ظاهرة اجتماعية قديمة، عرفت منذ قيام المجتمع الانساني الذي عرف الزواج كبداية لتكوين الاسرة وعرف الطلاق كنهاية للحياة الزوجية غير الناجحة، فقد عرف العالم ومختلف الحضارات القديمة هذه الظاهرة الاجتماعية ولكن بنسب متفاوتة. فقد عرفتها شعوب وادي الرافدين ووادي النيل وكل شعوب العالم القديمة باستثناء الشريعة الهندوسية التي لا تبيح فصم عرى الزوجية.

تعريف الطلاق

يعرف الطلاق في اللغة بأنه رفع القيد، وحل الوثاق. يقال: أطلق الفرس والأسير إذا أزال قيد الفرس وحل وثاق الأسير. وقد جاء في (لسان ابن منظور) أن الطلاق: طلق المخاض عن الولادة.

وفي الشرع فهو رفع القيد الثابت بالنكاح، ذلك أن عقد الزواج يعتبر قيدا يربط بين الزوجين، وهو كذلك حل رابطة الزواج، وإنهاء العلاقة الزوجية في الحال وفي المآل بلفظ مخصوص.

وقد عرفه بعض فقهاء القانون بأنه فصم رابطة الزوجية وإنهاؤها بحكم قضائي يقع من قبل الزوج أو الزوجة.

ويتبين من كل هذا وذلك أن الطلاق شُرع لينهي العلاقة أو يفصل بين الزوجين اللذين ارتبطا بعقد الزواج.

وعرف المشرّع العراقي الطلاق في نص المادة 43 من قانون الاحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 كالتالي: (الطلاق هو رفع قيد الزواج بإيقاع من الزوج او الزوجة اذا وكلت به وفوضت، او من القاضي، ولا يقع الطلاق إلا بالصيغة المخصوصة له شرعا).

ويعرف الطلاق من الناحية النفسية كما يرى علماء النفس بأنه احد انواع الاضطراب النفسي. وينظر اليه بأنه عبارة عن عدم التلاؤم بين شخصية الزوجين والتي تكون سببا للصعوبات في الزواج، فالطلاق مظهر لتلك الحياة الزوجية التي ينعدم فيها الانسجام.

أما من الناحية الاجتماعية فيعرف الطلاق بأنه ظاهرة اجتماعية تنبع من المجتمع، وتنجم هذه الظاهرة عن علاقات زوجية غير سليمة، وانه مرض اجتماعي خطير؛ اذ انه يعني تحطيم الزواج والعائلة والروابط الاساسية للمجتمع.

والطلاق يشكل مشكلة هامة في الوقت الحاضر يجعل من الضروري الاهتمام بدراستها، فالطلاق لا يمس شخصا واحدا انما يمس شخصين او اكثر بل يمس جزءا كبيرا من المجتمع.

وانتشرت في الوقت الحاضر حالات الطلاق بكثرة، حتى ان احصائيات محاكم الاحوال الشخصية سجلت نسبا كبيرة جدا من حالات الطلاق. وعند الاطلاع على الاحصائيات نجد ان نسبة الطلاق مخيفة بسبب تزايد حالات الطلاق في المجتمع. وعند البحث عن اسباب الطلاق نجد ان اكثرها متشابهة كتعدد الزوجات او عدم الانجاب او بسبب الخيانة الزوجية. ولعل ذلك بسبب سهولة وسائل الاتصال الحديثة عبر شبكات التواصل الاجتماعي كالفيسبوك والتويتر وغرف الدردشة، ودورها في عقد علاقات غير مشروعة بين الجنسين، وكذلك ظهر ما يعرف بالطلاق الصامت وهو ان

تعيش الزوجة مع زوجها تحت سقف واحد دون ان تكون هناك اي علاقة ودية بينهما، وقد تكون هناك عوامل وراء عدم انفصال الزوجين بالطلاق حيث يعكر صفو الحياة الزوجية من حين لآخر بعض المشكلات بين الزوجين.

اسباب الطلاق

يمكن تقسيم اسباب الطلاق الى اربعة اسباب رئيسية:

أولا/ اسباب متعلقة بمرحلة الاختيار والتعارف:

التعارف السطحي بين الطرفين والتعارف في نطاق أسري محدود وفي اطار رسمي مصطنع وتجنب وحرص كلا الطرفين على عدم اظهار الحقيقة والتكلف وإخفاء حقيقة الشخصية والحرص الشديد على الظهور بالشخصية التي يفضلها الطرف الاخر والتسرع في اتخاذ قرار الارتباط والزواج دون اتاحة الفرصة الكاملة للتعرف على حقيقة الشخص الآخر وعدم اتاحة الاسرة الفرصة امام الطرفين بالانفراد من اجل التعارف اكثر والأعمق، وعدم مراعاة التوافق الثقافي والاجتماعي والفلسفة الخاصة بطريقة الحياة بين الطرفين. فاختلاف البيئة التي نشأ فيها كل طرف ينتج عنه اختلاف جوهري في الشخصية ونظام الحياة وقصر فترة الخطوبة واعتبار انها كلما قصرت، وكان الزواج اسرع، هو الافضل. ورغبة الفتاة في الزواج من اجل الزواج فقط خوفا من التقدم في السن وتجنبا لنظرة المجتمع لها. ووجهة نظر الرجل السطحية في اختيار الزوجة المناسبة وغالبا يكون على اساس المظهر ووجهة نظر المرأة السطحية عن العريس المناسب، ان يكون مستعدا ماديا للزواج في اقصر وقت ممكن ومحاولة الطرفين في الظهور امام الطرف الآخر بشخصية مثالية نادرة، ومحاولة تقمص الرجل وخاصة اذا كان ضعيف الشخصية لشخصية قوية ومحاولة الفتاة تقمص شخصية الفتاة الأنيقة العذبة سيدة المنزل الممتازة.

ثانيا/ أسباب متعلقة بالمرأة:

جهل المرأة بالتعامل مع الرجل وجهلها بالثقافة الجنسية يجعل زوجها لا يشعر بالإشباع الجنسي معها، ووجهة نظر المرأة عن الزوجة المثالية انها تلك التي تجيد اعمال المنزل والطبخ والتي تتجنب اللباقة في الحديث والنقاش مع الزوج وعدم اهتمامها لفهم طبيعة الرجل والتعامل الخاطئ معه وجهلها بعدم جعل زوجها يتعلق عاطفيا بها، وتركيز المرأة على دور سيدة المنزل وتجاهل دورها كشريك للزوج في الحياة وعدم تحمل المسؤولية تجاه الاسرة، وذلك لعدم نضوج الانثى فكريا وثقافيا مما يتعذر عليها تحمل المسؤولية وقيادة الاسرة. وكذلك فان ضعف شخصية المرأة يجعلها تكون اسيرة لآراء وأفكار المقربين لها، وتؤثر سلبا على علاقتها الزوجية. وان المفهوم الخاطئ عن ان المرأة التي تمتلك شخصية قوية انها تعني السيطرة وتعني تعدي حدود الاحترام مع الزوج وربما اهانته وعدم تلبية احتياجاته وعدم اهتمام المرأة بمظهرها وأسلوبها في الحديث مع الرجل بعد الزواج وعدم الاهتمام باللمسات الرومانسية بعد الزواج وبالأخص بعد انجاب الاطفال وعدم اهتمام المرأة بالرجل وانه مجرد رجل يلبي احتياجاتها المادية فقط وعدم رغبة المرأة في مراجعة عيوبها

ونقاط ضعفها ومحاولة اصلاحها والشجار الدائم بسبب اختلاف الزوج عنها في بعض وجهات النظر وعدم محاولة الزوجة العثور على مشتركات فكرية بينها وبين زوجها بهدف التلاقي فيها، والابتعاد عن الخلافات وعدم احساس الزوجة بالرضا عن شريك حياتها، ورغبتها في رجل افضل منه، وأحيانا زواج المرأة من رجل وهي متعلقة عاطفيا برجل آخر. وهناك بعض النساء لديهن علاقات عاطفية قبل الزواج تؤثر سلبا على احساسها بزوجها وثقتها به والغيرة الزائدة عن الحدود، وغير المبررة كغيرة الزوجة من علاقة الزوج بوالدته وأسرته يخلق خلافات مستمرة، وكذلك فان زواج المرأة من رجل ادنى مستوى منها علميا او ثقافيا وكذلك اساءة الزوجة الى زوجها وإبراز عيوبه امام اهله والمقربين منه وتعامل المرأة بأسلوب غير لائق مع زوجها، وخاصة امام اهلها مما يجعل الزوج ينفر منها ويقلل الاحترام بينهما، والشك الدائم في تصرفات الزوج ومتابعته وتحليل تصرفاته وإحساس المرأة انها خدعت من قبل الرجل عند انكاره الوعود التي كانت بينهما واعتراض الزوجة على حقوق الرجل الفردية كالخروج وقضاء وقت مع اصدقائه ولجوء المرأة الى الصمت مما يتسبب في تكوين حاجز مانع بين الزوجين والتقليد الاعمى من جانب الزوجة لوالدتها او شقيقتها والتعامل مع زوجها بنفس طريقة والدتها وشقيقتها، حتى لو كانت غير صحيحة. كذلك ادارة الاسرة وفقا لما تمليه عليها والدتها وشقيقتها او ما تعلمته من اسرتها. وقد يكون هناك سبب صحي كإصابة المرأة بمرض يمنعها من الانجاب او اصابتها بمرض يمنعها من المعاشرة الزوجية والقيام بواجباتها تجاه الزوج مما يجعل الرجل ينفر من زوجته او يخلق المشاكل للوصول الى الطلاق.

ثالثا/ اسباب متعلقة بالرجل:

الكثير من الرجال يرون ان المرأة خلقها الله فقط لتلبية احتياجات الرجل وهي مجرد خادمة وجسد للإستمتاع، وان الرجل يحرص على اشباع احتياجاته والتجاهل عن عمد لإشباع احتياجات زوجته العاطفية وتعويضها عما فقدته من حنان واهتمام والديها وعدم مراعاة الرجل لمشاعر زوجته، والمدح ومغازلة الاخريات أمامها، وعدم احترامه لرغبات زوجته والتمتع بجسدها وقتما يشاء هو، وضعف شخصيته حيث يكون تابعا لأهله وانسياقه الاعمى خلفهم وتنفيذ توجيهاتهم، وتفضيل الزوج لأهله على حساب زوجته والتقصير معها او اهانتها من اجل إرضائهم وسماح الرجل لامه او اخته بتعدي حدود الاحترام في التعامل مع زوجته بحجة انهم الاقرب إليه منها وإهانة الرجل لزوجته امام اهلها او التقليل من قيمتها وإهانتها امام اولادهما، واعتقاد الرجل ان الرجولة هي في المظاهر الجسدية والقدرة الجنسية فقط، وإهمال الرجل للتواصل العاطفي وأهميته للمرأة والاكتفاء فقط بممارسة العلاقة الحميمية عند الرغبة في اشباع احتياجاته، وعدم اهتمام الرجل بنظافته الشخصية مما قد يتسبب في نفور زوجته منه. وكذلك حب الرجل واهتمامه فقط بأولاده ومعاملة الزوجة على انها مجرد مربية للأطفال يثير كره الزوجة لزوجها وعدم اكتفاء الرجل بزوجته بل يقوم باتخاذ عشيقة له وعدم معرفة الرجل بالثقافة الجنسية والتعامل مع المرأة وإلقاء المسؤولية على عاتق الزوجة يجعلها تشعر انها هي الرجل

وبالتالي تفقد أنوثتها، وكذلك افشاء اسرار العلاقة الحميمية والتحدث بتفاصيلها مع اهله والمقربين منه مما يثير غضب الزوجة ونفورها منه وشعورها انه غير أمين عليها، ومنعه من حقه في معاشرتها وعدم اهتمام الرجل بالتحدث مع زوجته ومشاركتها الحديث في القضايا الخاصة والعامة.

رابعا/ تأثير المجتمع:

التأخر في سن الزواج يجعل المرأة تصب جل اهتمامها بالزواج كي لا تلقب بالعانس مما يؤثر على نفسيتها سلبا، وان المجتمع ينظر الى ان المواصفات في العروس المرغوب فيها ان تكون صغيرة في السن مما يجعل المرأة تشعر بضعف فرصة الزواج كلما تقدم بها العمر وكذلك فان المجتمع يجعل من جمال المرأة اسرتها والتزامها الديني السطحي المقتصر على الملابس هو من اهم اسباب الزواج دون النظر الى بقية الصفات المتوافرة في الزوجة المناسبة للرجل وان المجتمع ينظر لمن تتم خطبتها اكثر من مرة على انها غير مرغوب فيها كون ان المجتمع يفترض انها ليست صالحة للزواج ما يضطر المرأة للقبول بأي خطيب كزوج رغم عدم التوافق بينهما خوفا من نظرة المجتمع وحفاظا على سمعتها.

وكذلك فان المرأة تبقى رهينة علاقة زوجية بائسة كي لا يطلق عليها لقب مطلقة، وان المجتمع يفرض على المرأة عدم التطلع الى ثقافة جنسية؛ اذ ليس لها تعلمه او تطلع عليه انما فقط تتعلم ما يقوم به زوجها بتعليمها له والحرص على عدم معرفة المرأة بالعلاقة الحميمية قبل الزواج. والسلطة الذكورية في المجتمع التي ظلمت المرأة والتي اعتاد عليها الرجال من خلال التنشئة الاجتماعية ما جعل الرجل يظلم المرأة ويهون من حقوقها بمنتهى البساطة، ويتعامل معها على انها ملك خاص له، يتصرف بها كيفما يشاء، ووقتما يشاء. عدم قبول الرأي الآخر من المرأة وعدم السماح لها بالاشتراك في ادارة الاسرة.

وهنالك اسباب مباشرة للطلاق لا يمكن اخفاؤها او تجاهلها لأنها تسبب المشاكل بين الزوجين ولا يكون حلها إلا بطريق الانفصال وهي:

أولا/ الخيانة الزوجية:

يكون لأحد الزوجين علاقة مع شريك آخر وغالبا ما تبدأ العلاقة بالمجاملات والإعجاب وتتطور الى الحب والغرام من خلال وسائل الاتصال الحديثة المعاصرة او قد تصل العلاقة الى علاقة جنسية، فهذه العلاقات تؤدي الى الطلاق. وبحسب طبيعة المجتمع فربما تغفر الزوجة خيانة زوجها لها إلا انها ان شاءت الانفصال فإنها تلجأ الى القضاء. ولعل العرف الاجتماعي السائد لا يساعد المرأة كي تنفصل او تطلب الطلاق في هذا المجال لان خيانة الرجل واتخاذه عشيقة من دواعي الفخر والرجولة، ويجد الرجل الكثير من التبريرات له لخيانته زوجته. بينما نجد ان الآراء تتفق على استحالة استمرار العلاقة الزوجية في حال كانت الخيانة من قبل الزوجة وقد تكون هنالك بعض الشكوك تجاه الزوجة لمجرد استخدامها الهاتف او وسائل التواصل الاجتماعي وتصل هذه الشكوك الى اتهامها بالخيانة.

ثانيا/ تعاطي المسكرات:

نتيجة لانتشار وسهولة تعاطي المسكرات والمخدرات وإدمانها، فقد يقوم الرجل بإهمال زوجته مما يؤدي الى تدخل اهلها لغرض تطليقها للحفاظ عليها وعلى اولادها.

ثالثا/ عدم الانفاق:
لعل صفة البخل لدى الرجل من اكثر الصفات التي تكرهها المرأة؛ إذ ربما يقوم الرجل بالامتناع عن الانفاق على زوجته وأولاده نتيجة بخله او بسبب عدم وجود مورد مالي مناسب له بسبب البطالة، وسوء الوضع الاقتصادي، ما يجعل الحياة الزوجية لا تطاق وتضطر المرأة للانفصال عن زوجها.

الاسباب النفسية للطلاق

مما لا شك فيه ان العامل النفسي له دور كبير في تسيير الانسان وان الطلاق ينتج حتما عن سوء الحالة النفسية لكلا الزوجين، او لأحدهما، ويجب على المنظمات المهتمة بشؤون الاسرة وحمايتها ان تقوم بتوعية الزوجين للحفاظ على الاسرة والتي تؤثر بشكل كبير على سلامة المجتمع.
وتتضافر في حدوث الطلاق عدة عوامل نفسية نستعرضها تباعا وهي:
أولا: الملل الحاصل بين الطرفين وعدم التجدد في الحياة فبسببها تفقد الحياة الزوجية رونقها وتجددها وتصبح مملة فيكون الطلاق والخلاص من هذه العلاقة هو النتيجة الحتمية لهذا الملل.
ثانيا: غياب الحوار بين الزوجين حيث ان اهمال الزوجين للحوار بينهما والمشاركة في الرأي بينهما وتخصيص وقت كاف للحوار بين افراد الاسرة وغياب لغة الحوار اللين الهادي بينهما يؤدي الى حصول ابتعاد نفسي بين الزوجين.
ثالثا: عدم مشاركة الزوجين في اتخاذ القرارات والحلول للمشاكل التي يتعرض لها الزوجان او احدهما مما يجعل كل زوج قابعا في وادٍ.
رابعا: اهمال المصارحة بين الطرفين. وحيث ان المصارحة هي من انبل الصفات التي تجعل للعلاقة الزوجية طعما اخر وبغيابها تتراكم الظنون في نفس كل طرف ويتباعد شيئا فشيئا، في حين ان المصارحة والمكاشفة بين الزوجين هي رابطة قوية تجعل بعد الزوجين عن بعضهما امرا مستحيلا.
خامسا: عدم وضع حلول للمشاكل التي تحصل بين الزوجين وإهمال معالجتها مما يسبب حدوث فجوة في العلاقة بين الزوجين.
سادسا: عدم تغيير الاسباب والأساليب التي تسبب المشاكل بين الزوجين وعدم تغيير الصفات السيئة ومغادرتها لصفات افضل، وهذا يعني فشل الزوج تجاه شريكه في التأثير به وتغيير صفاته غير المحببة.

الوسائل التي تحد من الطلاق

هناك عدة وسائل يمكن لها ان تحد من الطلاق وتبقي الرابطة الزوجية على وجه حسن دون حصول منغصات. ومن ضمن هذه الوسائل ما سنعرضه تباعا:
أولا: معرفة كل زوج لحقوقه والتزاماته وحقوق الزوج الآخر عليه. فمن حقوق الزوجة على زوجها نفقتها وكسوتها ومسكنها الملائم وألا يؤذيها ولا يهجرها ويحسن معاملتها، ومن حقوق الزوج على زوجته احترامه وحسن معاشرته.
ثانيا: معرفة كلا الزوجين ان مصيرهما واحد، وأنهما شريكان في مشروع ليس فيه رابح او خاسر فكلاهما مكمل للآخر.
ثالثا: تفكير كلا الزوجين في مستقبل اسرتهما وأولادهما، وان مصلحتهما تقضي البقاء في بيت الزوجية بجو اسري هادئ ومليء بالانسجام والعاطفة.

رابعا: مراعاة كل زوج لظروف الآخر.
خامسا: تنازل كل زوج عن بعض حقوقه للتآلف مع الطرف الآخر والإبقاء على الرابطة الاسرية المنسجمة.

طرق علاج ظاهرة الطلاق

ظهرت في الوقت الحاضر مناشدات كثيرة تركز على ايجاد الحلول لظاهرة الطلاق من خلال مؤسسات اجتماعية عن طريق عقد ندوات وحلقات نقاشية، وان هذه المؤسسات لم تكن موجودة سابقا. ولعل من اهم اسباب ظهور هذه المؤسسات هو الانفتاح الكبير الحاصل في العراق بعد التغيير الحاصل ابان اسقاط النظام السابق عام 2003 الذي رافقه الكثير من الانفتاح في مجال الاتصال وحرية الصحافة والإعلام وكثرة حالات الطلاق الحاصلة في المجتمع العراقي.
ويلاحظ ان جهود هذه المؤسسات غير كافية لان امكانياتها محدودة وان الكثير من الازواج لا يحبذ ان يعرف احد بمشكلاتهم، فلا نجد اي تعاون مع هذه المنظمات.
ولا بد من دراسة اسباب الخيانة الزوجية مع تأهيل الاشخاص على لغة التفاهم والحوار مع الجنس الآخر وكيفية خلق بيئة اسرية مناسبة ومثالية للعيش.
كما لا بد من الحد من تدخل ذوي الطرفين في حياتهم الخاصة وهذا يكون عن طريق توفير سكن مستقل وذمة مالية مستقلة للزوجين عن ذويهما. وتوعية المقبلين على الزواج بحقوق وواجبات كل طرف وضرورة ان يكون سكن الزوجين مستقلا عن سكن اهل الزوج او الزوجة. الى جانب توعية ذوي المقبلين على الزواج بأهمية العلاقة الزوجية، وعدم التدخل بالحياة الخاصة لأولادهم وتقديم الدعم اللازم لهم في بداية حياتهم الزوجية.
وتوعية الزوجين - فيما لو حصل نزاع بينهما - باللجوء الى الحوار الهادئ لغرض حل النزاع او اللجوء الى من هو اهل لحل النزاع بينهما والابتعاد عن فكرة ان الطلاق هو الحل المثل لإنهاء الخلاف بين الزوجين.
وحث الازواج في ما لو فشلت مساعي الصلح بينهم الى اللجوء الى القضاء والسير بالطريق القانوني لحل النزاع الحاصل.
وعلى المؤسسات الرسمية والاجتماعية ابداء الدعم اللازم لمكاتب البحث الاجتماعي العاملة في المحاكم لأداء دورها في الوقوف على اسباب الخلافات الحاصلة داخل الاسرة وإصلاح ذات البين بين طرفي النزاع ورفد مكاتب البحث الاجتماعي بالعناصر الكفوءة وتقديم الدعم لهم من خلال التدريب المستمر لهم وتوفير المقرات الملائمة لهم.
وفي الختام ارى انه يجب الاهتمام بحماية الاسرة وبأفرادها جميعا، ونحن بحاجة ماسة الى القراءة المستمرة والجدية للظواهر التي تظهر في المجتمع والوقوف على أسبابها ومعالجتها.
املي ان اكون قد وفقت في القاء نظرة سريعة على ظاهرة الطلاق وأسبابها وطرق معالجتها.

الآثار النفسية للطلاق التعسفي لدى المرأة

الدكتورة رواء ناطق الشيخ
أكاديمية

الصدمة هي كل حدث يهدد حياة الفرد او جزء من جسده، يتعرض للخطر، ويكون بشكل غير متوقع ومفاجئ (صدمة الاغتصاب، صدمة مشاهدة القتل، التهديد بالقتل، الطلاق، الاختطاف) أو متكرر الحدوث (العنف الأسري، العنف الجسدي، وصدمة الاسر) ويعتمد على ادراك الفرد لما يشكل صدمة لديه. وتمر المرأة بثلاث مراحل بعد الصدمة هي: (مرحلة الإنكار، مرحلة المقاومة، مرحلة الاعياء)، اذ تبدأ في انكار حدوث الطلاق وتحديدا اذا كان تعسفيا وعدم تصديق حدوثه، ولا تعرف كيف تتعامل مع الواقع الحالي. لذا تبدأ مرحلة المقاومة حيث يحاول الجسم فيها مقاومة هذا الضغط النفسي الناتج عن الصدمة ويستنزف في هذه المرحلة الطاقة النفسية لتبدأ بعدها مرحلة الاعياء التي تسبق اضطراب ما بعد الضغوط الصدمية. ويتبادر هنا السؤال: هل كل امرأة تعرضت للطلاق التعسفي ستصاب بهذا الاضطراب؟

لنأتي هنا على الفروق الفردية بين الافراد؛ اذ ليس بالضرورة ان تتعرض كل مطلقة الى هذا الاضطراب لكنها ستتعرض للصدمة غالبا، وللصدمة تأثيرات سلبية على المناعة النفسية للفرد وعلى استنزاف الطاقة الحياتية للإنسان وهذا لا يشمل الجميع؛ اذ ان نسبة من المتعرضات لصدمة الطلاق التعسفي، تتفاعل عوامل كثيرة فيها، لتؤدي الى اصابتها بالاضطراب مثل وجود الاطفال او وجود الدعم النفسي للمرأة في العائلة، او الاكتفاء الاقتصادي الذي يجنبها الضغط الناتج عن الفقر والحرمان، ولا تقتصر الاثار السلبية للطلاق التعسفي على بعض الاعراض مثل الاكتئاب الانفعالي او القلق العصابي؛ اذ قد تتطور الى اعراض نفسية تعيق الحياة الطبيعية للإنسان. ومن هذه الاضطرابات:

- متلازمة القلق العام (توتر، خوف من المجهول، اعراض جسدية مثل: الصداع، التعرق، اضطرابات الاكل واضطرابات النوم).
- الاكتئاب الانفعالي (السوداوية، والشعور بظلم الحياة، وأفكار انتحارية، العزلة، الاحباط والحزن، فقدان الرغبة الجنسية، فقدان الاستمتاع بالأوقات السعيدة).
- متلازمة التقزم النفسي (الشعور بالدونية، تشوه صورة الذات، مشاعر احتقار الذات، صورة مشوهة عن الجسد والنوع الاجتماعي، الشعور بالعجز

وعدم القدرة على الحياة والنجاح ومشاعر فشل متواصلة).

• المراق او الشرسفية Hyp-chondriasis (توهم المرض والبدء بمراجعة الاطباء، الشكوى من اعراض لأمراض مجهولة غير حقيقية).

• الاضطرابات النفسجسمية السايكوسوماتية وهي الامراض الجسدية ذات المنشأ النفسي مثل اضطرابات الجهاز الهضمي، القولون، القرحة، او الضغط والسكر والصداع التوتري).

• الاضطرابات التحولية والانشطارية (الشلل الهستيري، العمى الهستيري، فقدان النطق الهستيري، نوبات البكاء الهستيري).

• الميول والأفكار الانتحارية (تقل في حال وجود الاطفال).

• اضطراب ما بعد الضغوط الصدمية PTSD (افكار اقتحامية عن الطلاق، استجابة جفلة مبالغ فيها، السلوك التجنبي، احلام مزعجة وكوابيس، مشاعر الحزن والسوداوية).

• انحرافات سلوكية مثل العلاقات المشبوهة وغير الشرعية وأحيانا تميل لتعويض الرفض الجنسي الحاصل في الطلاق من خلال محاولات لإثارة الجنس والآخر.

ان الاضطرابات النفسية ليست بالأمراض المستعصية التي لا تقبل العلاج والآثار النفسية للطلاق رغم تأثيرها السلبي على المرأة لكنها ليست امرا واجب الوقوع، إذ ان نسبا كبيرة من النساء تستطيع تجاوز صدمة الطلاق التعسفي وتجاوز هذه الصدمة يعتمد على عدة امور منها:

• الشخصية السوية للمرأة التي تتمتع بالمرونة النفسية.

• الاسناد النفسي من قبل الاصدقاء والمجتمع المصغر وزملاء العمل.

• شيوع الحالة في المجتمع مما يؤدي الى تخفيف الوصمة الاجتماعية للطلاق على المرأة.

• الدعم النفسي للمرأة من قبل العائلة مما يوفر مركز اسناد قوي لاجتياز الصدمة.

• التدخل السريع للمساعدة النفسية من قبل الاخصائي النفسي والاجتماعي.

• تعزيز مصادر السعادة اذ يرى (هوبفل) في نظريته لحفظ المصادر، ان التوازن في المحافظة وتعزيز مصادر السعادة للإنسان تساعده على تخطي الضغط النفسي الناتج عن الصدمة.

ولعل الطلاق وما يسببه من ضغوط نفسية للمرأة يكون حافزا للتعويض في النجاح في مجالات اخرى؛ اذ ان الاحباط الايجابي والضغط النفسي احيانا ممكن ان يدفع الانسان الى النجاح والتفوق في مجالات اخرى.

كما ان الآثار النفسية السلبية للطلاق من الممكن تجاوزها كما من الممكن تجاوز اي نوع من الصدمات الاخرى، التي تحتاج المرأة فقط الى تشريع يساعدها على رفع حيف هذا النوع من الطلاق عنها، والى قانون يفرض الفحص النفسي لحماية المرأة من الازواج ذوي الشخصيات السايكوباتية او الشخصيات المضطربة التي لا تشعر بالمسؤولية تجاه العائلة. وللتجربة الماليزية الاثر الواقعي في الحياة اذ تصدرت ماليزيا دول العالم في نسب الطلاق الى سنين قصيرة خلت حتى فرض الرئيس الماليزي السابق (محمد مهاتير) قانون (اجازة الزواج او رخصة

الزواج) الذي لا يسمح للخطيبين بالزواج إلا بعد اجتيازهم لدورة يتعلمون فيها آليات ادارة العائلة والبيت وكيفية ادارة مشاكلهم وحل نزاعاتهم، لتنخفض نسبة الطلاق في ماليزيا لتصل الى 7% بعد ان كانت قد تجاوزت 45% .

التوصيات:

• العمل على فرض قانون للفحص النفسي للراغبين بالزواج وبيان مدى اهليتهم النفسية للزواج وإنشاء اسرة.

• العمل على اقامة دورات للمقبلين على الزواج ترتكز على آليات التعاون والتسامح وإدارة البيت وتنشئة الاطفال وكيفية ادارة النزاع والمشاكل الاسرية للوصول الى حلول وتجنب الطلاق.

• العمل على وجود اخصائي نفسي في المحكمة مع الاخصائي الاجتماعي للعمل على فهم الحالات والتوصل الى حلول.

ازديادُ حالات الطلاق وأثرهُ على منظومة الأسرةِ القيمية "مدينة الصدر نموذجاً"

د. جاسم محمد الساري
باحث وأكاديمي

تمهيد:
الطلاقُ مشكلةٌ اجتماعيةٌ ونفسيةٌ خطيرة يُعاني منها مُجتمعنا، اذْ إنَّهُ يُنهي الزواج والوحدة الاسرية التي تكونُ نواة المُجتمع، في حين نجدُ في كُل الشرائع والقوانين والأخلاق فصولاً واسعةً لتنظيم هذه العلاقة وضمان وجودها واستمَرارها، وتناولها رجالُ الدين والفكر وعلماء الاجتماع والنفس واهتموا بهذه العلاقة، فكلُ واحد منهم حاولَ من جانبه انْ يُقدمَ ما يخدم نجاحَ هذه الرابطةُ الإنسانيَة؛ لأنَّ في ذلك استمرار الحياة نفسها وسعادتها وتطورها. وقَدستْ جميعُ الاديان السماوية الأسرة، وتضمنتْ تعاليمها جميعاً العمل على تفعيل وضمان تماسك أسري يخدمُ المُجتمع في نواته وبذرته الأُولى، ووضعتْ التشريعات التي توثقُ عُرى الروابط والوثاق بين الزوجين، وإبعاد شبح الطلاق عنهما، ولا تؤخذُ بأمره إلا لأسباب جوهرية تجعلُ العيشَ بين الزوجين وللأطفال امراً بالغ الصعوبة، فظاهرة الطلاق تُعدُ مؤشراً و"فلتر" كاشفا لمختلف العوامل والظروف الاجتماعية للظاهرة، كما إنَّ ظاهرة الطلاق مؤشرٌ لضعف الروابط بين افراد المجتمع وجماعاته. ومَرَّ مُجتمعنا العراقي بجملةٍ من التغيرات الاجتماعية والثقافية او ربما الاهتزازت التي أثرتْ في ارتفاع حالات الطلاق المؤثرة في الروابط الأسرية وإضعافها وأدى الى احتمال ظهور مشاكل وتوترات في جو الأسرة، وتُشيرُ الإحصائيات الى ارتفاع مُخيف في نسب الطلاق.

بعيداً عن تجريم المفهوم:
التفسيرُ الأحادي لا ينفع بالضرورة في العلوم النفسية الإجتماعية، وإحدى المشكلات التي تواجهُ العلوم النفسية والاجتماعية هي ارتباطها بالتفكير الشعبوي والصور النمطية عن الأفراد، لذا علينا اعتماد التفسيرُ المُتعدد لأي ظاهرة ومنها ظاهرة الطلاق؛ فاعتمادا على الاحتمالية العلمية علينا أنْ نطرح مجموعة احتمالات وإلاَّ نطرح الموضوع وكأنَّهُ جريمةُ قتل او مرض نفسي بل إنَّ الطلاق هو خيار إنساني يتعلقُ بحرية الاختيار. فالمُطلقون هُما أفراد التقوا وتفرقوا في خيمة الاجتماع البشري، وربما هذه الفرقة هي أفضلُ لهم لما قد ينطوي عليه من حفظ جُزء من الاحترام بينهم ويحفظ كرامة الإنسان ويُقدمُ لهُ جزء من الحُرية.
ففي ظل مُجتمع عراقي من سماته الأساسية هي الذكورية والفحولة وخاصةٍ في مُجتمعٍ

شعبوي عشائري مُتمثل في مدينة الصدر. الوجهُ الأبرز للسيناريو المُحتمل للطلاق، هو إنَّ المُطلق الرجل ستكون مُعاناتهُ عادية او ربما بلا مُعاناة! اما الأنثى التي كانت فاقدةٌ لذاتها حسب تَعريف "آريك فروم" بتحولها الى أداة أو ماكنة خاصةً في مثل هذه الطبقات الإجتماعية الفقيرة ثقافياً (فروم، 2002)، فإنَّها مع الطلاق ستفقدُ حريتها، او لن تُمارس حُريتُها بل تصطبغُ هذه الأنثى بصبغة الشبهة او الوصمة؛ فكيف تستطيعُ ممارسةَ حياتها وتربية أولاد المطلقة الذين ربما لنَ يروا والدهم، لذا فمن الأفضل هو بقاؤها مع الزوج على الرغم من سوء الوضع! وبما إنَّ الأسرةَ مُقدسة وتمثلُ القمة في الأشياء وأي خروج عنها يُمثلُ خطأً كارثياً؛ وهذا في حقيقته يتَعلقُ بنمط الاقتصاد في المُجتمع، فالمُجتمَعُ يُريد نواة له، وأسرة تعملُ ورجلا يجد الراحة والمأوى والطعام في هذه الأسرة، كنمط سيسيو تاريخي وهذا لا يتجاوز أنْ يكونَ كلامياً نمطيا، فالباحثُ والمُختص في علم النفس يجدُ إنَّ الطلاق ايضاً يحفظُ كرامة الإنسان ويمنحهُ الحرية، وهذا وإنْ كانتْ نسبتهُ 1 % فهو علمياً جدير بالدرس. فبقاء الزوجين سوية وهما يعيشان انفصالاً عاطفياً لا يجترُ معهُ ضمانات إيجابية لهما، وأيضاً تُجاه أطفالهما؟ أليسَ من المُمكن أنْ تتكون لدى هؤلاء الأطفال مشاعر يكتسبون من خلالها سلوكيات العنف والجريمة بحكم ساحة الخصام اليومية الممتدة بين الوالدين؟ بمعنى إنَّ التئام الأسرة المُستمر ليس دليلاً على العافية المُطلقة.

دينياً الطلاقُ من حق الأب، فالعصمةُ بيده، والطلاقُ يكون تعسفياً إذا مارسهُ الرجل من باب التنويع او التغيير في حياته او كُرهاً لزوجته؛ والأساسُ هُنا هو الدين والشرع الذي مَنح حق الطلاق لشخصٍ واحدٍ، فاستخدامُ هذا الحق الديني والاجتماعي ربما يُمارس بشكل تعسفي وبأنانية الرجل، ولا ضمان من تَعسف المرأة لو مُنحتْ هذا الحق! والفكر المدني لهُ رؤية أخرى في موضوعة الطلاق فهو ضامن لتفريق الفرد الراغب في الإنعتاق حتى مع وجود تضاد بين رغبتين او حريتين حسب تعبير "سارتر" والخروج بأقل الخسائر، فهذا الفكر لا يضمنُ الماء والكهرباء فقط! بل هو يضمنُ للبشر حق التصرف بهويتهم المُجردة دون ضغوط وسُلطات مسبقة؛ فالفكرُ المدني يوفرُ قاعدةً عامة للتفريق تضمنُ الحرية، ونتائجها تحوي الإيجاب والسلب ويُعبرُ عن رغبة مُجتمع في التخلص من السُلطات المُسبقة كالذكورية مثلاً.

كُل هذا لا يجعلنا نُجرمُ مفهوم الطلاق فسلوك الطلاق هو سلوك بشري مثل أي سلوك آخر وهو يُمثل محاولة لحياة جديدة ويضمن حرية الاختيار، وهو حق من حقوقَ الإنسان ومُتعلق بمفهوم الذات لدى الأفراد وثقافة البلد.

أسبابُ الطلاق:

1. الفقر.
2. التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي وسوء استخدامها، وإطلاع الأفراد على كمٍ من السعادات المُستحيلة التحقق.
3. الزواج خارج المحكمة.
4. الطائفية.
5. الهجرة.
6. شيوعُ عاداتٍ اجتماعية وثقافيةٍ بسهولة الطلاق.

أسبابُ الطلاق النفسية:

1 – عدم توفر اشتراطات الزواج الناجح

وغياب المُشاركة الوجدانية قبل الزواج، بمعنى إنَّ جذور الفشل متوفرة سلفاً قبل الزواج بغياب التفاهم النفسي والفروق الفكرية الثقافية او الاقتصادية؛ أنتجتْ عائلة تعيسة سببت الطلاق.

2 – سيادةُ الأنانية والتثبيت الطفلي حول الذات هو أبرز أسباب تعثر الارتباط العلائقي المُستقر والقابل للنمو.

3 – حالاتُ الارتباط النزوي القائم على اندفاعية آنية بدون غد ومُستقبل.

4 – تراجعُ القيمةِ الاجتماعية للأسرة والزواج والجدارةِ الوالدية خاصةً في الأوساط التي تُعلي شأن تحقيق الذات الفردي من خلال الانجازات المهنية والعامة، كمعوق للنجاح وللارتقاء في جدليةِ الانجاز والزواجِ.

5 – كميةُ الاغتراب في الحياة اليوم زادتْ ليزداد معها الاغتراب الزواجي، فالفرد يرى أمامهُ التطرف والعنف والفساد والكذب واللامعيارية، فالاغتراب كسرَ اواصر الارتباط بالعالم.

6 – فقدانُ فكرة الانتماء، هذه الفكرةُ اليوم ضعفتْ، فالفردُ سابقاً كان يؤمن بفكرة الأسرة اما اليوم فلديه اهتمامات أخرى كالهجرة وغيرها.

7 – النزعةُ الشكيةُ تُجاه المرأة.

8 – عدم فهم الذات قبل فهمه للآخر، فالفرد يسألُ في زمنٍ مُعين عن ماذا يُريد؟ ويبحثُ في أعماقه عنَ حاجاته واهتماماته؛ إلاَّ إنَّهُ يتوقف عَن طرح الأسئلة بسبب الضغط في بيئته ويبدأ يُربى حسبَ الشخصية المُقدمة لهُ، ولَكن هذه الأسئلة الأولى تعود لتُطرح من جديد عندما يدخلُ مجالات جديدة كالزواج او الهجرة او العمل، بمعنىً التغيراتِ العاصفة تجترُ معها هذه الأسئلة، ويعرف الذي يُريدهُ من الزواج هل هو شكل وجنس أم هو عقل وفكر وثقافة ام هو بحاجة الى مُربيةُ أطفال وفراش! فإذا كان فاهماً لذاته وما يُريدهُ ويعرفُ طموحاته فهو سينجَح لامتلاكه أدوات التكيف باستمرار، والعكسُ صحيح، عدم فهم الذات وارتباطه باللامعيارية السائدة اليوم بحكم الفساد السائد في جُل أبعاد الحياة في مُجتمعنا، وغياب المعايير يدفع بالفرد الى العديد من القرارات غير المحسوبة الثمن.

9 – الشعور بالعدمية التي رسختها ظروف ما بعد 2003.

10 – الوهم الافتراضي الذي خلقهُ عالم الفيس بوك والذي وصل بالفرد الى تورم الذات، ورؤية صورة جديدة لذاته لا تتساوق وتتناسب معَ القرين، فاجترار السلوك التحججي (التبريري) للأفراد والقُدرة التبريرية كإنجاب البنات وقلة الجمال وضعف الأنوثة وغيرها من التبريرات الواهية.

في حين يذكرُ نظمي (نظمي، 2007) مجموعة من العوامل التي يعتقد إنها تؤدي الى الطلاق نجملُها بالآتي:

1 – الحاجاتُ المُزمنة: فالأفراد الذين لم تُشبع حاجاتهم بطريقة ذاتية صرفة تهملُ الواقع وتركزُ على الحاجة المُباشرة فقط؛ فيبحثون عن إشباع حاجاتهم المُباشرة ويغفلون الجوانب الأخرى في أزواجهم والتي ربما تكون في غاية الأهمية لنموهم وسعادتهم اللاحقة.

2 – عدم فهم الذات: الفرد المُغترب عن ذاته لا يستطيع أنْ يعرف ما يريدهُ كي يُصبَح سعيداً، فاختياراته لا تكون مُبنية على أساس حاجاته الحقيقية المُهمة، فهل هذا الفرد يُريدُ امرأةَ للجنس مثلاً او لتربية الأولاد او امرأة ذات فكر وثقافة. على هذا الفرد أنْ يُحدد ماذا يُريد؟ فالفرد يُربى حتى

لا يقمع ذاته، إلاَّ إنَّ قنوات تنشئة تُربيه وتُقدم لهُ صورة حسب منطق "فروم".

3 – عدم معرفة المحبوب.

4 – عدم إشباعَ حاجات الحُب في المراحل الأولى من الحياة: فقوة البحث الواعي عن الحب، ترتبطُ بمقدار ما حصل عليه الفرد في طفولته، فالفرد الذي لم يحصل على المحبة منذُ الولادة قدْ ينشأ سايكوباثياً! فاقداً القُدرة على ممارسة الحُب، فديمومة الزواج هو ثمرة لإشباع حاجات الحب في المراحل الأولى من الحياة.

الديناميةُ النفسيةُ للمرأة المُطلقة:

عناصرُ العلاقة الزوجية توضحُ في دينامياتها وانثيلاتها كماً من التحديات والصعوبات التي تواجهُ استقرار ونموَ هذه العلاقة؛ وعلى نفس الخط وفي الاتجاه المُقابل تُفصحُ أيضاً عن مقدار احتمالات الصفاء والوئام المؤسس للجدارَة الزوجية، هذه التحديات هي نتاج لظروف استثنائية قد تُفضي في نهايةَ المطاف الى فكِ عُرى هذه العلاقة بالطلاق. فالطلاقُ هو نَتاجُ تأزم شديد يعكسُ حالات من التصدع الخفي غير الواضح والبينَ للعلاقة الزوجية، حيث تتلاشى هذه العلاقةُ عاطفياً وجنسياً، ويتشتتْ الكيانَ الوجودي لهذه العلاقة، لينتهي هذا التأزم وفي ذروة درجاته المُتقدمة الى التصدع العَلني المُعلنَ لتفكك الرباط الزواجي.

التصدعُ الخفي هو حالةُ انطفاء للصلة العاطفية الجنسية او برودها ووصولها الى درجة الصقيع! ليبدو الزواج وقدْ استنزف على صعيد العاطفة والشراكة في تحقيق أهداف الحياة. الإنطفاءُ وخَفوت وهجَ الصلةَ الزواجية لا يمنعُ من احتفاظ الرباط الزواجي بتمظهراته القانونية والاجتماعية أمام الآخرين، حفاظاً على السُمعة او للحفاظ على مرجعية عائلية للأطفال. ولو حللنا هذا التصدعُ الخفي الى مكوناته وعناصره الأساس لأفصحَ هذا التحليل (المكوناتي) العاملي الى مجموعة من العوامل الخارجية ذات القُدرة على تعطيل المَنح والبذل والعطاء اللازم لتغذية الأسرة كالبطالة الدائمة او الخسارة المادية وانهيار المكانة المهنية والاجتماعية. كذلك رُبما يحدث الإنطفاء والتباعد النفسي، نتاج تغيرات إيجابية لأحد الزوجين ليجعلَ الزواج غيرُ مُتكافئ؛ لتبدو العلاقة الزوجية غيرُ قادرة على تلبية الواقع الجديد في تطلعاته وما يفرضهُ الواقع الجديد من اشتراطاته ليُحقق الانطلاق الوجودي للعائلة.. التصَدعُ الخفي للصلة الزواجية لا يُختزلُ بالعوامل الخارجية فقط بلْ هُناك مجموعة من العوامل الداخلية ذات الأثر في إنتاج الأنطفاء، ولعلَّ حالة (البيت – الفندق) هي الأكثرُ شيوعا. التصدعُ الخفي هو عملية تراكمية للتناقضات والإحباطات التي تُزيدُ من الألم النفسي مُنتَجةً ما يُصطلحُ عليه في أدبيات السايكولوجيا بالهدر النفسي للذات، هذا الهدر الذي يتمظهرُ في توظيف غيرُ صحيح لطاقة الحياة الأيروسية التي تُسحبُ من القرين الى موضوع آخر؛ مُفسحةً المجال لأنْ تحل بدلاً عنها الطاقةُ المُعاكسة وهي طاقة التدمير والعدوان الثناتوسية.

يقوم الطلاق على أرضية من الانطفاء العاطفي الجنسي بسحب كُل التوظيف الطاقاتي العاطفي مولداً حالةً من الحياد والتباعد او توظيف العدوانية تُجاه الآخر والحرب عليه في محاولة لإنزال أكبر الأذى عليه، اما طاقة الأيروس ـ طاقة الحُب ـ التي تمَّ سحبها فيُعادَ توظيفُها في علاقة بديلة او ترتدُ على الذات بتركيز عالٍ بصورة حُبٍ للذات، لأجل ردْ الاعتبار المفقود وإزالة الحيف والضيم الذي عانتهُ هذه الذات؛ هُنا تبدو العدوانية

مُبررة كدفاع عن الذات وإنقاذ لها من علاقة حملتْ المُعانَاة والإحباط والأذى. التوظيفَ الأيروسي لطاقة الحُب وتوظف ضمن ما يُدعى بـ "التوظيَف المُعاد" بجعل العدوان والتدمير والانفصال النفسي، يحلُ محل قوى الترابط والتوافق والحب؛ مُمارسةً ألوان العُنف النفسي والجسدي، وتحلُ لذة الانتقام والسطوة محل الود والوفاق، ولأجل إكمال هذا السيناريو لا بدَّ من تحميل العلاقةَ المُنفصمة هذه الأوزارُ كُلُها ليتاحَ المجالَ والمساحةَ كاملةً لتُمارس العدوانية فعلها بنوع من راحة الضمير ولتبريرَ سلوكَ الانفصال، فلا يدعْ مَجالاً للشعور بلوم الذات وتأنيب الضمير والشعور بالذنبَ؛ فالَفرد لا يستطيعُ أنْ يتحمل بوعي تحمل مسؤوليته، عدوانيته تُجاه الآخر؛ فالعدوانيةُ وسلوك إلحاق الأذى بالآخر يبحثُ عن مُبرراته في حالات الطلاق؛ تلك المُبررات التي تجعلُه يتصفُ بطابع الدفاع المشروع عن كيانها الوجودي، وإلاَّ فإنَّ مشاعر الذنب والخطيئة ستجتاحُ الفردَ وعندها يقعُ أسير أزمة نفسية داخلية يصعبُ عليه تحملها. وحتى يفعلُ ذلكَ نجدُ أحد الزوجين الذي بادر الى الإنفصال او كلاهما يُبالغُ في "تسويد" صورة الآخر، مُحملاً إياهُ الأوزار كُلها والمثالب والخطايا، فقط ليُبررَّ لنفسه سلوكاً مشروعا. العدوانيةُ هُنا لا تستمدُ من الإحباط العلائقي بل يتحولُ القرين الى موضوع لإسقاط كُل مصادر الإحباط الوجودي وكُل مآس الذات وخيبات الوجود، وما تُسفرُ عنهُ منَ تورمات نفسية وحقد ورغبات تشف، تنزوي كُلها في العلاقةَ الزوجية المُحبطة (حجازي، 2006).

التصدعُ الصريح: هو انفجار الأزمات الزوجية الى المستوى العلني الظاهراتي، مُتخذاً أشكالاً مُتنوعةً من النزعات الدائمة والشجار والعُنف المُتبادل او الذي يُمارسهُ أحد الطرفين (الزوج عادةً) على الطرف الآخر. ويُنتجُ بفعل ظروف خارجية تؤدي الى إحباطات توقعات او حاجات تبدو أساسية لأحدَ الطرفين، وأيضاً يُنتجُ بفعل خفوت فورة الرغبة التي تشدُ الزوجين للعلاقة، وربما يؤدي ذلك الى تفجر العدوان تُجاه الزوجة. والإحباطات الخارجية تحولُ الحياة الزوجية الى ميدان للتشفي وإسقاط فشله الخارجي على الرباط الزوجي الذي يتخذُ عندها طابع الغُبن الوجودي، مما يجعل عُنفهُ مُبرراً. التصدع الصريح يتكرر في الأسر من الشرائح الشعبية لعدم الاكتراث للاعتبارات الاجتماعية في صون المظاهر. ويُظهرُ هذا النوع من التصدع عجزاً عن إدارة الشراكة الزوجية بشكل عقلاني من التوافق والمرونة لاستمرار العلاقة وهذا العجز هو نتاج الزواج المُبتنى على الإرغام او الزواج المُستعجل، استسلاما لنزوة او شهوة أو دون التعرف الموضوعي الكافي إلى القرين وسماته وأوضاعه. فالتصدع الصريح يحدثُ على خلفية القصور النفسي والعاطفي والجنسي، وربما يكون أحد الزوجين او كلاهما نشأ في أسرة مُتصدعة ودخلا الزواج وهما مُثقلان بتركةً ثقيلة وكأنَّ التصدع يُعيدُ إنتاج نفسه، وعلى نفسَ الخلفية الكشطالتية هُناك شكل آخر يتمظهر بوجود أخوة الزوج وأخواته عندما يعيشون في حيزٍ مكاني واحد.

الديناميةُ النفسية لأطفال الطلاق:

تترتبُ آثار على الطلاق وأضرار تلحق بالأسرة والطفل ومن ثم بالمجتمع. وهذه الظاهرة تُساهم في مُشكلات اجتماعية أخرى كالتشرد والجنوح والتأخر الدراسي وغيرها. كما إنَّ لصدمة الطلاق تأثيراً كبيراً على الاطفال في تكوين شخصيتهم وتوجيه سلوكهم، مؤداة الى احتمال ظهور مشاكل

وتوترات في جو الاسرة مما يؤثر على تماسكها ويوصلها الى الطلاق، فالأطفال هم أكثر ضحايا الطلاق تضرراً، فالتوتر النفسي والصراعات المفتوحة والعنف تُمثل تهديداً حقيقياً للطمأنينة القاعدية الضرورية للنمو السوي، فطفل الطلاق ينشأ في عالم من التهديد مما يُزيد من مشاعر انعدام الطمأنينة عنده، رافعاً مستوى القلق عنده بأنواعه المتعددة كالقلق من العدوان وإلحاق الأذى بتكامله النفسي والجسدي، وقلق تفكك الأسرة المصاحب للتسيب والإهمال بانفصال الوالدين، وما قد يحمله من أخطار الضياع، فموجات القلق هذه تجد لها دائماً ما يُغذيها بدوام الصراعات وتكرار العنف ووجود أرض خصبة لولادة الانكسارات النفسية وفقدان الثقة بالذات والعيش في حالة التعرض الشديد للتهديد، لكن الأخطر في أطفال الطلاق هو تبنيهم لردود فعل دفاعية ضد القلق، تتخذ طابع العنف والخشونة عبر آلية دفاعية يتبناها هؤلاء الأطفال وتسمى هذه الآلية بـ"جلد التمساح" وهي عملية تحصن الطفل ضد ما يعصف به من قلق بقناع من الخشونة والقسوة والفظاظة، مُغذياً ذلك كُله من النمذجة والتقليد والمحاكاة لنموذج يحتذيه وأمام عينيه هو عُنف الأب تُجاه الأم. هُنا هو يتمثل تلك النظرة عن الدُنيا التي يحياها، فقانون الوجود هو قانون الغلبة والقوة غلبة الأقوياء على الضُعفاء وهمُ الذين يُسيطرون، لذا الطفل يميل الى السلوك العدواني بمقدار تقدم نموه الجسدي واكتسابه لبعض مظاهر الفعل السلوكي وردود الفعل. وهو يجد له في ذلك دائماً قدوة ونموذجا جاهزا ومثالهُ الأب الضارب للزوجة والأبنّاء، والمُتسلط عليهم، وهؤلاء يستجيبون بنفس السلوكيات تُجاه مَنْ هُمُ أضعف منهم، فبالضرورة مَنْ كان ضحية العدوان يُمارسُ العدوان تُجاه الذين أقل قوة منه، في ظاهرة من تبادل الأدوار؛ فالنمذجةُ والتماهي يعززان آلية "جلد التمساح" لدى أطفال الطلاق، ليستعيدوا توازنهم النفسي ويشعروا بالقوة من خلال تعميم هذه السلوكيات على مُختلف مواقف الحياة، متجهين نحو الجنوح مع صلابة عودهم، وعلاقاتهم مبنية على المصلحة والمنفعة، أطفال الطلاق نتاج لأسر مُتصدعة تُظهرُ عجزاً في إدارة حياتها نفسياً ومادياً وتكون الولادات فيها كثيرة ومُتتابعة من دون حصول كُل مولود على نصيبه الضروري من الحُب والقبول والرعاية، فأمر الإنجاب متروك لحتمية البايولوجيا وحدها. ولأنَّ السائد هو فقدانُ السيطرة في الإدارة الوالدية وسيادة أسلوب الارتجال في الإدارة الوالدية وسيادة أسلوب الارتجال في العيش؛ فلا يتوفرُ للأطفال المجال الحيوي المُلائم داخل المنزل فإنَّهمُ يتحولون الى الشارع كمجال حيوي بديل بما يحملهُ من أخطار خُلقية وإغراءات للجنوح، خاصة إذا كان العيشُ في أحياء هامشية تتصف باللامعيارية الأخلاقية مُتعرضين للتشرد والضياع والتعرض للعشرة السيئة التي تفتحُ أبواب الولوج الى مُغامرات الجنوح في محاولة للتفريغ الانفعالي عن الاحتقانات النفسية الداخلية لاستعادة شيء من التوازن النفسي. وهذا الوضع الوجودي بالضرورة لا يُشجعُ على التحصيل الدراسي فالفقرُ الثقافي تلازمية بينة وواضحة المعالم مع الصراعات والعُنف ويُرافقها بالطبع تدني مستوى توقعات الأهل على صعيد تحصيل أبنائهم وعدم توفير الوسائل والمُعززات الفاتحة لشهية الدرس والتفوق العلمي، وتصل الى حد أنَّ الأهل لا يعلمون عن دراسة أبنائهم. طفلُ الطلاق يتعرضُ للنبذِ العلني

من أحد الوالدين في عملية اسقاط أزمات تصدع الرباط الوجودي، والفشل الوجودي وتوسيمهُ ووصمهُ بأنَّ طفل الطلاق هذا، هو نحس ويُعاملُ بالنبذ والعداء ويفقدُ الاعتراف به وتؤدي الى الشعور بالوصمة. وعند استجابته للوصمة والنبذ والإبعاد فإنَّهُ سيردُ بعنَف تُجاهَ الأهل والمدرسة والشارع والقانون في محاولة لاستعادة الاعتراف بشخصه؛ وهو هُنا يَرفعُ شعاراً "إذا لم تحبوني فإنشغلوا بي"، واني أتعبكم وأفضحكم حتى يشعرُ بتوازنه النفسي الوجودي. دافعُ الثمن الأول للطلاق همُ الأبناء؛ هذا الثمن يتخذُ صوراً للانكسار النفسي والأزمات النفسية وسلوكيات التمرد وسوء التكيف المدرسي والاجتماعي.

سايكولوجيا الطلاق:

التصدع الخفي والصريح ينتهي بانفصام عُرى الرباط بالطلاق او بالهجر الفعلي للزوجة عبر الزواج بأخرى، قاطعاً صلتهُ بالعائلة الأولى، والهجر والطلاق كلاهما قائم على بُنيَة تحتية من انطفاء الرباط العاطفي والجنسي، ساحباً التوظيف العاطفي مولداً حياداً وتباعداً خاصةً بعد منازعات ليوظف بعدوانية تجاه الآخر، وإنزال أكبر الأذى به، أو توظفُ بعلاقة جديدة بديلة رداً للاعتبار المفقود وتبريراً للعدوانية والتشفي وتحميل العلاقة المُنفصمة كُل أوزار تُمارسُ العدوانية براحةِ ضميرٍ، بتسويدِ صورة الآخر. قد يتزوج كُل القرينين ويؤسس لحياة جديدة مع إهمال الأولاد عند جد او جدة أو قريبٍ يضيقُ بأعبائهم ذرعاً. قد تكون هُنَاك ظروفاً تعويضية عند البعض من المُطلقين تُقللُ من الآثار الحاصلة للطلاق بحكم رصيدهم الوراثي وتنشئتهم الايجابية الأولى مما يُقدم مناعةً ومصداً أكبر في مقاومة الآثار السلبية والخروج بثمنٍ نفسي ووجودي أقل.

الاستنتاج:

الطلاق نتاج لتآكل فكرة العائلة في ذهنية المُطلقين، وهذه الفكرةُ بعظمتها وقيمتها الإنسانية الكبرى لما تنطوي عليه من مفاهيم الانسجام والتراحم والتآلف والروح الجمعية إلاَّ إنَّ المُطلق الزوج او الزوجة في لحظة لا يُريدُ أنْ يبقى أو يكون ضمن فكرة الجماعة؛ والدافعُ والمُتحكم بهذا السلوك (سلوك الطلاق) هو الاغتراب بأبعاده المُتعددة، وذلك لفقدان الفرد أدوات تكوين علاقة سَليمة مع إنسَان آخر، الطَلاق هو تقويضُ فكرة الانتماء للعائلة إلاَّ إنَّ هذا لا يمنع من جَنبة إيجابية محددة في هذه الظاهرة بتجديد الانتماء للحَياة أحيَاناً.

التوصية:

تشريع قانون يجعل العصمة وحق التفريق تشاركياً انطلاقا من مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة لتقليص المساحة الذكورية التي يتمتع بها الرجل.

المصادر:

فروم، آريك (2003). الإنسان المُستلب وآفاق تحرره، ترجمة وتعليق حميد شهيب، تقديم راينر فونك. الرباط: شركة نداكوم للطباعة والنشر.

حجازي، مصطفى (2000). الصحةُ النفسية، منظور ديناميكي تكاملي للنمو في البيت والمدرسة، بيروت: المركز الثقافي العربي.

نظمي، فارس كمال (2007). الحُب الرومانسي بين الفلسفة وعلم النفس، أربيل: دار آراس أكرم.

زيادة حالات الطلاق بعد عام 2003
نموذج الدراسة/ محكمة الاحوال الشخصية في الرصافة

نور حميد مصلح/ باحثة اجتماعية
بكالوريوس علم نفس – طالبة في كلية الحقوق

تزايد حالات الطلاق في العراق بعد عام 2003

ازدياد عدد حالات الطلاق من أخطر الظواهر التي يمكن أن يتعرض لها أي مجتمع في العالم، بوصفها سببا جوهريا في تقويض دعائم الأسرة وتشتت أفرادها، وما يترتب عليه من خلل كبير في النظام الاجتماعي القائم على تماسك وانسجام الأسرة لكونها تشكل النواة الأولية في المجتمع البشري بصورة عامة. وبسبب تلك التداعيات الخطيرة والأضرار الفادحة الناتجة عن حالة الطلاق، فقد وضعت الشرائع السماوية ومنها الإسلام، وكذلك القوانين الوضعية، لعقد الزواج، قواعد وأسسا وأصولا تشعر المتزوجين بأنهم يقدمون على خطوة مصيرية تربطهم برباط مقدس قائم على المودة والتراحم والألفة، لا تنفكّ أواصره إلا للضرورة القصوى.

ولم يكن العراق ومنذ أن تشكلت دولته الحديثة في عشرينيات القرن الماضي متميزا عن باقي بلدان العالم العربي في مختلف النواحي العمرانية، والفنية، والأدبية، وفي النظم وتشريع القوانين فحسب، بل كان متميزا كذلك باستقرار الأسرة العراقية وتماسك أواصرها . فبعدما بدأت الجهات القضائية، ودوائر الأحوال المدنية بتسجيل عقود الزواج والطلاق بصورة رسمية، لم يسجل أي ارتفاع ملحوظ في معدلات الطلاق في المجتمع العراقي بل ان حالة الطلاق اذا وقعت في اسرة معينة كان ذلك حريا بان تتعرض تلك الاسرة الى الانتقاد بل وحتى الرفض من قبل محيطها. لكن الظروف المتردية والحروب الطاحنة التي مر بها المجتمع، ألقت بأعبائها الثقيلة على كاهل العراقيين، وبددت ثرواتهم ومواردهم، وكانت نتائجها سلبية على تماسك الأسرة العراقية واستقرارها. فأخذ مؤشر حالات الطلاق يأخذ منحى تصاعديا، إلا ان معدلات الطلاق لم ترق إلى أن تكون بمستوى الظاهرة الاجتماعية البارزة. وقد تفاقمت ظاهرة الطلاق في العراق بعد الانفتاح والمتغيرات التي شهدتها البلاد بعد العام (2003)، والذي قاد بدوره الى تبدل الكثير من المفاهيم الاخلاقية والمجتمعية حيث تعرضت الكثير من الأسر للتفكك والانهيار ما أدى إلى إلحاق العديد من الأضرار بالمجتمع العراقي وبنيانه الاسري. وتشير الإحصائيات إلى أن ظاهرة الطلاق في العراق تزداد بشكل كبير ومطرد خلال السنوات الأخيرة، وهو ما يعد تهديدا لكيان المجتمع. ولقد اشارت الاحصائيات الى زيادة ظاهره الطلاق في العراق بعد 2003 بشكل كبير اذ ان نسبة الطلاق

قبل 2003 قاربت 3% لكنها ارتفعت الى 29% في عام 2005 ثم الى 50% في عام 2007 وبلغت 65% في العام 2009. كما ان دعاوى الطلاق بحسب بيان صدر من مجلس القضاء الاعلى بلغ في عام (2004) 28.689 ألف دعوى، وعام (2005) 33348 ألف دعوى، بينما ارتفعت الى 35.627 ألف دعوى في (2006) ثم وصلت الى 41.536 ألف حالة في (2007) ووصلت الى ذروتها عام (2009) لتبلغ 820.453 ألف حالة طلاق. كما ان الاحصائيات تشير الى وجود تباين بين المحافظات؛ فكانت نسبة الطلاق الاعلى في بغداد تليها البصرة وجاءت المثنى اسفل الترتيب. واظهرت احصائيات السلطة القضائية ارتفاع معدلات الطلاق وتسجيلها قرابة 6000 حالة شهريا، فقد سجلت الاحصائيات 5926 حالة طلاق في شهر واحد بمعدل 198 حالة يوميا وبغداد جاءت بالمركز الاول حيث سجلت محاكم العاصمة العراقية 2719 حالة طلاق خلال شهر.

وإذا اخذنا كنموذج دراسة عن محكمة الاحوال الشخصية في بغداد/ الرصافة، وبلغت نسبة هذه الظاهرة في المحكمة وخلال الاعوام الماضية2003) 81% الى 2015) وكما مبين في الجدول رقم (1).

جدول رقم (1)

عدد حالات الطلاق لسنوات من 2003 - 2015

حسب احصائيات محكمة الاحوال الشخصية في بغداد/ الرصافة

ت	السنة	عدد حالات الطلاق
1	2003	140
2	2004	143
3	2005	153
4	2006	156
5	2007	158
6	2008	160
7	2009	156
8	2010	158
9	2011	157
10	2012	159
11	2013	163
12	2014	164
13	2015	167

وفي ادناه جدول يبين المجهود الواضح الذي يقوم به الباحثون الاجتماعيون في محاولات بناءة لتقليل نسب الطلاق المنتشرة ومحاولة الحد منها من خلال التعرف الى الاسباب الرئيسة ووضع الحلول لها وتوعية الازواج بتجنبها. وقد تم اخذ انموذج للأعوام 2013 و 2014 و 2015 يبين الدعاوى الخاصة والواردة الى مكتب البحث الاجتماعي في محكمة احوال الرصافة وقد بينا فيه مجموع دعاوى الصلح والتي تم فيها تراجع الازواج عن قرارهم بإنهاء رابطة الحياة الزوجية وكذلك بينا الدعاوى المبطلة والتي تعد ايضا دعاوى صلح. كما اوضح الجدولان رقم(2) و رقم (3) تزايد ملحوظ في حالات الصلح الخاصة بمكتب البحث الاجتماعي.

جدول رقم (٢) خاص بمجموع الدعاوى الخاصة بمكتب البحث الاجتماعي

السنة	مجموع الدعاوى الواردة الى مكتب البحث الاجتماعي	مجموع الدعاوى المحالة الى السيد القاضي للمرافعة	مجموع الدعاوى المبطلة	مجموع دعاوى الصلح
٢٠١٣	٥٣٩	١٧٩	٢٤٠	١٢٠
٢٠١٤	٤٩٨	٢٢٣	١٢٣	١٥٢
٢٠١٥	٦٥٤	٢٨٧	١٦٠	٢٠٧

جدول رقم (٣) يوضح المخطط النسبي الخاص بمجموع الدعاوى الخاصة بمكتب البحث الاجتماعي

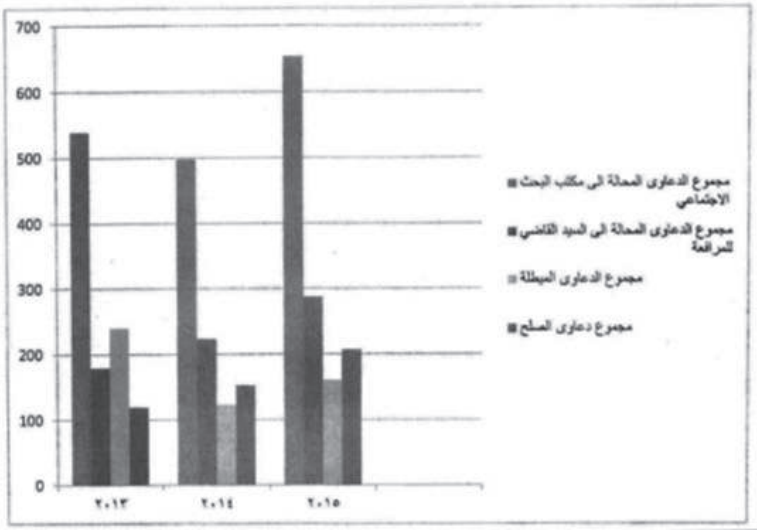

ان هذه الارقام ليست المحصلة النهائية لحالات الطلاق في المجتمع العراقي؛ إذ ان ما خفي كان أعظم، اذ اننا نفتقر للإحصائيات الميدانية الموثقة، وللتعداد العام للسكان. ونتيجة لتأثير التقاليد الدينية والأعراف العشائرية وقلة الوعي الثقافي فان الكثير من حالات الزواج والطلاق تتم خارج الأطر القانونية، ولا تدرج ضمن السجلات الحكومية فكيف يكون الحال ان تم حصر تلك الحالات وإدخالها ضمن الاحصائيات الرسمية فلا بد ان تكون عند ذلك الارقام مخيفة ومثيرة للفزع ولا يسعنا عند ذلك إلا أن نقول بان المستقبل لا بد أن يكون مظلما.

إن القانون العراقي يحتوي على مرونة وثغرات تساهم في التسريع بحالات الطلاق، وطلب التفريق القضائي. ومن تلك الأسباب القانونية الأساسية أن المادة 39 من قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 المعدل تنص على وجوب إقامة الدعوى في المحكمة الشرعية لمن يريد الطلاق واستحصال حكم به.

إلا اننا نجد ان الظاهر والأغلب هو ايقاع الطلاق خارج المحكمة غيابيا او الطلاق الرضائي (الخلع) بسبب انعدام الوعي القانون وعدم تقدير قيمة الحياة الزوجية والتسرع .كما ان المادة رقم (40) في القضاء العراقي تجيز لمن تضرر ضررا يتعذر معه استمرار الحياة الزوجية ان يطلب التفريق.

ولكن الغالبية العظمى ممن يطلبون التفريق لا يعتمدون على هذه المادة خوفا من ردّ دعواهم، لمعرفتهم بعدم وجود ضرر جسيم يتعذر معه استمرار الحياة الزوجية لأن الضرر لا يتعذر معه استمرار الحياة الزوجية. لهذا يتبعون طرقا أخرى لإيقاع الطلاق. ونصت المادة (41) على جواز طلب التفريق من قبل أي من الطرفين عند قيام خلاف بينهما والزم المشرع المحكمة في هذه الحالة إجراء التحقيقات اللازمة في أسباب الخلاف وسلك المسلك الشرعي في ذلك من حيث التحكيم والسعي لإصلاح ذات البين.

لكن ما يحدث فعلاً هو أن المحاكم لم تفعّل دور الباحثة أو الباحث الاجتماعي، وهو الشخص المخول قضائيا بتقديم تقرير للمحكمة عن إمكانية استمرار الزواج من عدمه.

وهنا لا بد من القول انه مهما كان السبب في تصاعد حالات الطلاق فإنها باتت تشكل اليوم ظاهرة سلبية ثقيلة تقوض بناء المجتمع العراقي الذي بدأ يخطو خطواته الاولى للخروج من ازمات الحروب المتلاحقة والصراعات الطائفية، خصوصا عقب الانسحاب العسكري الاميركي نهاية عام 2011 .

وكذلك إن توفير الدعم اللازم للباحثين الاجتماعيين والحقوقيين والمشرعين من الكفاءات العراقية الممتازة سواء في الداخل أو الخارج، لغرض دراسة الظاهرة ومعرفة أسبابها المختلفة، والعوامل المؤدية لها وإيجاد الحلول الجذرية لها، من خلال تجاوز العامل الاقتصادي والبطالة بتوفير فرص عمل وإطلاق القروض الصغيرة والمتوسطة لدعم المشاريع الفردية الصغيرة وتعقيد اجراءات الطلاق في المحاكم الشرعية وتفعيل دور الباحث الاجتماعي والنفسي في المحاكم الشرعية ليتبوأ دوره الصحيح في مجال ايجاد الحلول للمشاكل بين الطرفين المتخاصمين والحيلولة دون وقوع الطلاق بينهما والحد من ظاهرة ايقاع الطلاق خارج المحاكم المختصة وتوعية الشباب المقبلين على الزواج بأهمية هذا الرباط المصيري المقدس وخطورته وتداعياته، وهذا يتم ايضا من خلال الباحث الاجتماعي . وهذا كله لن يتم إلا اذا صدقت النيات وتضافرت الجهود لمعالجة

كل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية وتحجيم هذه الظاهرة وهذا لم يحدث حتى وقتنا الراهن، وما تحقق في هذا الصدد لا يتجاوز إصدار قرارات ترقيعية لا تبحث في أصل المشاكل وتجتثها من جذورها.

اهم الاسباب التي ادت الى زيادة حالات الطلاق :

بناء على ذلك تعددت الاسباب التي تؤدي الى انهيار الرابطة الزوجية وسيكون الطلاق كآخر حل لإنهاء تلك الرابطة لعدد من الاسباب المباشرة وغير المباشرة:

1) الزواج المبكر: يعد واحدا من الاسباب الرئيسية لانتشار ظاهرة الطلاق، كون ان الزواج في عمر اقل من 18 سنة يسبق عملية النمو الجسدي والنفسي والاجتماعي والثقافي للفتى والفتاة. فكلا الطرفين غير مؤهلين نفسيا أو اجتماعيا فيتم الانتقال من مرحلة المراهقة الى الحياة الزوجية وفي هذه الحالة غالبا ما يعيش الزوجان القاصران في كنف العائلة ويتبعان النمط التقليدي والاجتماعي. فالزوج يصبح مسلوب الارادة ولا يقدر على اتخاذ القرارات والزوجة لا تستطيع تحمل المسؤوليات والصعوبات لقلة تجربتها وانعدام خبرتها بمسالة التعايش والتكيف الى جانب زيادة تفكيرها الخيالي وعدم نضجها، فضلا عن جهلها بكيفية التعامل مع الزوج واحتياجاته الخاصة، وهذا ما قد يخلق نوعا من النفور حتى من أنوثتها وبالتالي قد تصاب ببعض المشاكل النفسية التي تؤثر عليها ولا تؤهلها مجددا للاستمرار داخل الحرم الزوجي. وعليه فالزواج المبكر للطرفين يؤدي في بعض الاحيان الى الطلاق كون إن الطرفين غير مؤهلين نفسيا واجتماعيا، وحتى صحيا بشكل كاف لفهم الزواج وتقدير مسؤولياته و بالتالي تحمله بجدارة.

2) العقم: مما لا شك فيه ان وجود الاطفال يعتبر عاملا في المحافظة على الحياة الزوجية واستقرارها والحيلولة دون انهيارها لان وجودهم يزيد من الترابط بين الزوجين من ناحية ويشعرهما بمسؤوليتهم اتجاه الاطفال من ناحية أخرى، كما يجعل كلا الطرفين أكثر مرونة في معالجة المشاكل الزواجية التي تعترضهما دون اللجوء الى الطلاق. وعلى العكس من ذلك إن عدم انجاب الاطفال يعرض حياة الاسرة الى الانهيار، فكثيرا من الازواج لا يستطيعون الاستغناء عن الاطفال فيكون عقم الزوجة مسوغا للزواج من زوجة ثانية وسببا لطلاق الزوجة الاولى التي لم تنجب. فوجود الاطفال يدعو كلا الزوجين الى الحرص على التصرف بروية وتعقل في حل المشاكل الاسرية وعدم اللجوء الى الطلاق حرصا منهما على مستقبل اطفالهم ولقد ثبت من الدراسات الاجتماعية ان هناك علاقة عكسية بين عدم وجود الاطفال وارتفاع معدلات الطلاق.

3) الخيانة الزوجية: يحدث الطلاق بسبب الخيانة الزوجية من طرف الزوج لعدم التجاوب من قبل زوجته ولإهمالها مظهرها وعدم مشاركته احاسيسه ومشاعره وهذا مما يدعو الى التعلق بامرأة اخرى يجد عندها ما نقص زوجته، فهذه العلاقة في الكثير من الاحيان تؤدي الى انفصال دائم أو مؤقت أو الى الطلاق بين الازواج. ومن جانب اخر فإن الشك و الريبة والغيرة المرضية واتهام احد الزوجين الآخر دون دليل مقنع يكون سببا في فساد العلاقة الزوجية وتوترها واضطرابها. فكثير من الآراء تتفق حول استحالة استمرار العلاقة الزوجية بعد حدوث الخيانة الزوجية ولا سيما في حالة المرأة الخائنة، أما في حالة الرجل فتختلف الآراء وتكثر التبريرات التي تحاول دعم استمرار العلاقة.

4) تدخل الأهل: يعد تدخل الاهل في خصوصية الحياة الزوجية دورا سلبيا مؤثرا في مدى استمراريتها بل تعد واحدا من الاسباب المهمة التي تؤدي الى الكثير من حالات الطلاق في مجتمعاتنا حيث ما زال الخضوع للقيم والعادات والتقاليد التي تحدد التصرفات العائلية وتؤكد اهمية خضوع الابن أو البنت للأهل حتى بعد البلوغ، فتدخل الاهل في شؤونهم الخاصة منها ما يتعلق بإنجاب الاطفال وتربيتهم وهناك امور تتصل بتدبير المنزل والتدخل في الشؤون المالية الى جانب تنظيم العلاقات ببقية شؤون الأسرة ناهيك عن التوجهات الخاطئة التي تدمر الاسرة من خلال تحريض احد الطرفين على مشاكسة الطرف الآخر فالتدخل في شؤون الزوج والزوجة يمكن ان يؤدي الى خلق حالة من التوتر والاضطراب داخل البناء الاسري الذي سرعان ما يتعرض الى الانهيار، إذا استمر التدخل في شؤون كلا الزوجين، حيث إن كلا من اسرتي الزوج والزوجة، لديها طبيعة حياة اسرية خاصة بها، من حيث مدى استقرارها أو صراعها الداخلي فمثل هذا التدخل لا يخدم استقرار الاسرة.

5) الازمات الاقتصادية: يلعب العامل الاقتصادي دورا مباشرا في استقرار الحياة الزوجية حيث إن انتظام العمل وتوفير المدخرات وسد احتياجات الاسرة يعني الاستقرار، وعلى العكس فإن انخفاض الدخل يعني عجز الزوج عن تلبية حاجات الاسرة بسبب ضعف حالته الاقتصادية، والذي من شانه ان يخلق المشاحنات و الصراعات المستمرة مع زوجته بسبب عجزه عن توفير متطلباتها الاساسية أو حتى الكمالية في ما يتعلق بالملبس، فتحدث بعض المشاكل بين الازواج او حتى مع الأطفال، لأنه بنظرهم يعتبر مقصرا بحقهم وغير قادر على توفير مقومات العيش لعائلته أو حتى لنفسه. ولا يخفى إن مثل هذه الظروف تؤثر تأثيرا كبيرا على معنويات الزوج وحياته السيكولوجية مما يعرضه الى الامراض العصبية والنفسية التي غالبا ما تكدر حياته وحياة عائلته. ففقدان القدرة على الكسب من العوامل التي تخلق التوترات والتي تؤدي في كثير من الحالات الى زيادة مشكلات الاسرة وحدوث الشقاق الاسري الذي يصل ببعض الاسر الى الطلاق، لذلك نرى إن نسب الطلاق قد ترتفع عند ذوي المراكز البسيطة وأصحاب الدخول المنخفضة وذلك بسبب الصعوبات الاقتصادية التي تواجه الاسرة وعجزها عن توفير مستلزماتها الضرورية، الامر الذي يؤدي الى قيام المنازعات وظهور المشاكل بين الزوجين، وتؤدي بالتالي الى تفكك الاسرة وانهيارها في حين تقل نسبة الطلاق بالنسبة للعاملين في مهن عليا.

6) تعدد الزوجات: ويعني في الغالب مشاركة أكثر من زوجة في منزل واحد يلغي إمكانية استقلال المرأة في بيتها، ويزداد الوضع سوءا بزيادة الاولاد ومحاولة كل زوجة ان تأخذ النصيب الاوفر لها ولأبنائها، وهذا من شأنه ان يثير المشاكل والخلافات التي تؤدي الى التوتر الاسري نتيجة عوامل متعددة واخطاء يرتكبها الزوج كتفضيله زوجة على اخرى أو ايثار بعض الاولاد بالعطف دون البعض الآخر، وعدم الوفاء بمطالب الاسرة وعجزه عن توفير احتياجاته اليومية - مما يؤدي الى قيام المنازعات والمشكلات بين الزوجين لأبسط الاسباب وتنعكس هذه الاوضاع على الاسرة التي لا يمكنها الاستمرار في التماسك والمحافظة على كيانها إذ لا تلبث المنازعات ان تؤدي بها الى الانهيار نتيجة الصراع الذي يحدث داخل البناء الاسري بين اطراف العلاقة الامر الذي ينتهي بالطلاق إما لرغبة

الزوج في التخلص من المشاكل أو بناء على طلب إحدى الزوجات لعدم تحملها الاستمرار في حياة زوجية مضطربة.

7) عدم التوافق بين الزوجين: في مجالات عديدة منها عدم التوافق الجنسي فتعدد المشاكل الجنسية التي يشكو منها الازواج سببا في عدم التوافق بين الزوجين، حيث يلعب العامل الجنسي دورا هاما في تكييف العلاقات الزوجية، وقد يكون عدم التوافق الجنسي تعبيرا عن سوء التكيف في مجالات أخرى من الحياة الزوجية، على ان الصراع الذي يدور حول الجنس ما هو إلا مظهر للصراعات والخلافات بين الزوجين مما يؤدي الى امتداد الخلاف في دائرة الجنس والحياة العاطفية الى مظهر آخر اكثر أهمية في صميم الحياة العائلية. فالمشكلات الجنسية يمكن ان تتحول الى بؤرة للاستياء او مسوغا لاحقا للطلاق، وهذا ما أثبتته الدراسات التي تشير الى عدم التوافق الجنسي كان سببا في حوالي 75% من حالات الطلاق إلا انه نادرا ما يذكره الزوجان، انه السبب كان وراء طلاقهم بل يختلقون اسبابا اخرى.

8) عدم التوافق الثقافي: إن لعدم التوافق بين الزوجين المرتبط بتدني المستوى التعليمي والثقافي تأثيره الواضح في طبيعة العلاقة الزوجية حيث الاختلاف في المستوى الثقافي والعلمي بين الزوجين يعد عاملا هاما في المدى القصير أو الطويل في حل الرابطة الزوجية. والسبب يعود في ذلك الى ان الثقافة التي يكتسبها الفرد تؤثر في افكاره ومعتقداته وميوله واتجاهاته وقيمه ومقاييسه فالشخص المثقف يختلف عن غيره في نظرته للحياة ونظمها. لذلك نجد ان اختلاف المستويات الثقافية بين الزوج و الزوجة له اكبر الاثر في حدوث الصراعات التي تؤدي الى الطلاق، خصوصا وان الاسرة - وهي جماعة تقوم على التعاون المتبادل - فهي لا تستمر طويلا في البقاء مع وجود فوارق وصراعات يعيشها الزوجان باستمرار. فالتماثل في الاصول الثقافية من العوامل الايجابية الاساسية في التوافق بين الزوجين، كما يعد التباين الشديد من العوامل السلبية، ويمكن التنبؤ الى درجة كبيرة من الصحة بتولد الصراع في زواج يجمع بين شخص ينتمي الى بيئة تحكمها القيم الدينية والاتجاهات المحافظة وشخص ينتمي الى بيئة تحملها أفكار متحررة وعادات طليقة، ومن المحتمل أن يكون الزوجان أكثر يسرا إذا كانا ينتميان الى أصول اجتماعية متماثلة كما يمكن تأكيد الاستقرار في الحياة الزوجية وتحقيق النجاح إذا كان الزوجان يحملان من القيم القوية ضد الطلاق أو غيره من اشكال التصدع الاسري. فما نلاحظه إن فشل الزواج يعود الى تباين الزوجين في المستوى الثقافي وفي إدراك أو انعدام هذه النواحي من كلا الزوجين فتسيطر العواطف على العلاقة الزوجية، بدلا من الفكر والتعقل. ولهذا نجد زواج العواطف يكون قويا في الايام الاولى لكنه، يبدأ بالفتور مع فتور العواطف وينشأ التباعد بين الزوجين بسبب انعدام الترابط الفكري والثقافي بينهما.

9) عدم التوافق أو الاختلاف في الخلفية الاجتماعية بين الزوجين: فقد يكون التباين في الخلفية الاجتماعية لكلا الزوجين عاملا هاما في تصعيد حدّة التوترات العائلية وتهديد الرابطة الزوجية بالانهيار أجلا أم عاجلا، حيث أن الاسرة لا يمكن أن تستمر في أداء رسالتها والمحافظة على كيانها مع وجود الفوارق العميقة في الخلفية التي يحسها الزوجان باستمرار. فالاختلاف الكبير في الاذواق والميول والرغبات لكل من الزوجين من شانه أن يتسبب في قيام المشاكل ويؤدي الى عدم الانسجام والاتفاق بينهما، كما أن

الفوارق في الميول والاتجاهات السياسية بين الزوجين تؤثر تأثيرا كبيرا على وقوع الخلافات بينهما، فالزوج قد يعتقد بفكرة سياسية معينة إلا ان هذه الفكرة تختلف عن الفكرة السياسية التي تحملها زوجته، وهذا دائما ما يثير الجدل والمناقشات السياسية العميقة بينهما، وقد ينته بشجار مفتوح يعكر صفو حياتهما الزوجية، ويؤدي الى انهيارها عن طريق الانفصال أو الطلاق.

10) سوء اختيار الشريك: فسوء الاختيار سواء كان من الزوج أم من الزوجة لا سيما في الحالات التي لا تربط بين الزوجين صلة قرابة. ففي فترة الخطوبة لا يسأل الخاطب عن خطيبته بشكل جيد ليتحقق من صفاتها ويعرف أخلاقها وطباعها، وربما بسبب النقل غير الصحيح والمدح المبالغ به عن حالها سواء من الام أو الاخت أو ممن كان سبب اقتراحها للزواج، أي السرعة في الاختيار وعدم دراسة شخصية الشريك، فضلا عن ان بعض الشباب يضعون اعتبارات لا تمت للحياة الزوجية بصلة كالبحث عن الغنى والحسب والتغاضي عن الصفات التي يمكن أن تسعد الزوجين.

11) السكن المشترك: يمكن اعتبار عدم توفر دار مستقلة لسكن العائلة هو أحد الاسباب الرئيسية في وصول الزوجين الى مرحلة الطلاق، حيث أن الزوجة تكون مقيدة في بيت أهل زوجها، اضافة الى تدخل الاهل في الحياة الزوجية. وهذا حتما سيؤدي الى قيام الخلافات والنزاع بينهما، بسبب التدخل الذي يمارسه أهل الزوج أو الزوجة في شؤونها بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وهكذا تبدأ المشاكل تتعقد نتيجة المواقف التي يتخذها أهل الزوج من الزوجة، وتدخلهم في شؤونها الخاصة في الوقت الذي تطمح الزوجة بان تكون سيدة في بيتها، فينشأ بسبب ذلك الخلاف ويشتد الصراع بين الزوجين نتيجة اختلاف وجهات النظر بالنسبة لكثير من الأمور، حيث ان الزوجين ينتميان الى جيل لاحق يختلف عن جيل آبائهما، الامر الذي يؤدي الى تضخيم المشاكل اليومية التي كان من الممكن أن تكون مجرد مواقف عابرة في حياة الزوجين.

12) عمل المرأة: بعدما نالت المرأة قسطا ملائما من التعليم وتحررت من القيود التي فرضها عليها المجتمع ووضعها في مرتبة ثانوية، فنزلت الى ميدان العمل الخارجي وحققت لنفسها استقلالا اقتصاديا نسبيا، لذلك اصبح الزواج لتحقيق الامن الاقتصادي اقل الحاحا بل من اجل تكوين الحياة العائلية الاجتماعية التي تجلب الغبطة والسرور والسعادة، لذلك اصبح الطلاق اقل صعوبة لأنها حققت استقلالا ماديا يجعلها تشعر بإمكانها ان تستقل وتعيش من دون الرجل، كما ادى نزولها الى ميدان العمل، الى تطور مركزها الاجتماعي وشعورها بشخصيتها المستقلة، كذلك فان حصولها على اجر ثابت بقدر اجر الرجل ادى الى تدعيم مركزها الاجتماعي والوظيفي في المجتمع؛ بحيث أصبحت لا تتحمل الاوامر والضغوط والمطالب الكثيرة التي يفرضها الرجل، الامر الذي يسبب تعكير العلاقات الزوجية وقيام الخلافات حول الادوار داخل الاسرة وإثارة المشاكل المستمرة بين الزوجين، والتي لا يمكن حلها إلا عن طريق الطلاق.

انعكاسات تزايد حالات الطلاق على المجتمع العراقي

اختلفت الدراسات في تأثير الطلاق ونتائجه على الرجل المرأة الاطفال والمجتمع. فبرغم اختلاف تأثير الطلاق على الرجل والمرأة

لكن الواقع يشير الى ان المعاناة يشعر بها الاثنان.

فالطلاق صدمة تؤثر سلبا على الصحة النفسية والجسدية للمطلقين، حيث تتغير مكانتهم الاجتماعية من متزوج أو متزوجة الى مطلق أو مطلقة وهذا يعني ان الطلاق يقلل المكانة الاجتماعية للرجل والمرأة.

فنظرة الناس الى المطلقين تتغير، ويفقد المطلقان الكثير من أصدقائهما ويعانيان من الوحدة ويتحملان تعليقات اللوم والفشل في الحياة الزوجية، كذلك الشك والريبة في سلوكهما مما يجعلهما يعيشان على هامش الحياة الاجتماعية.

آثار الطلاق على الرجل:

الرجل يتأثر بالطلاق والانفصال، فلن يكون سعيداً وهو يرى حياته الأسرية تذوي وتدخل مرحلة تتزعزع فيها، فإلى جانب فقدانه لزوجته سوف يفقد سعادته مع أبنائه، فإن ظل أبناؤه إلى جانبه شكلوا له مصدراً للقلق وخلق الخلافات مع زوجته الجديدة إن تزوج. فأحياناً لا يعتمد الرجل على زوجته أم أبنائه ولا يكتفي بعنايتها، بل يباشر العناية بأبنائه بنفسه مع وجودها إلى جانبهم فكيف إذا بحال رجل يكون أبناؤه مع امرأة، ترى أنهم منافسون لها، وهم يرون أنها دخيلة عليهم. والطلاق يصيب كبد الرجل وعقله وقلبه وجيبه، لأنه الخروج طواعية من أنس الصحبة وسكينة الدار ورحابة الاستقرار إلى دائرة بلا مركز. وهذه العبارة تصور مدى خطورة آثار الطلاق على الرجل وهو الذي يملك بيده وعقله وقلبه ولسانه إيقاع الطلاق، وما يكون ذلك من عاقل واعٍ، إلا إذا وصل الأمر إلى حالة استحالة العِشرة ونفور الصحبة، وهناك آثار كثيرة اجتماعية ونفسية وتربوية تقع على الرجل المطلق منها:

• الضرر الواقع عليه من كثرة تبعات الطلاق المالية كمؤخر الصداق ونفقة العدة ونفقة وحضانة الأولاد، الأمر الذي سينعكس أيضاً على الزوجة الثانية وأولادها، هذا إذا قبلت به زوجة أخرى لترعى مصالحه وأولاده في ظل وجود الأعباء المالية عليه الناتجة عن الطلاق.

• قد يصاب المطلق بالاكتئاب والانعزال واليأس والإحباط وتسيطر على تفكيره أوهام كثيرة وأفكار سوداوية وتهويل الأمور وتشابكها. وهذا الأمر يخلق عنده الشك والريبة من كل شيء يقترب منه أو يرنو نحوه فيفقد أفكاره والاتزان بأحكامه والاستقرار والتوازن. بمعنى آخر تصبح أفكاره لا تتسم بالثبات بل التقلب والتضارب وتصبح أحكامه عديمة الرصانة والتماسك فضلاً عن التردد وعدم التشوق لمقابلة الأصدقاء. إن هذا الاكتئاب وفقدان التوازن الاجتماعي وضياع أمن واستقرار البيت يشوبه قلق من فكرة فشل زواج آخر أو أنه رجل غير مرغوب فيه ومشكوك فيه من قبل المخطوبة الثانية لطلاقه الأولى.

آثار الطلاق على المرأة:

الطلاق يسبب للمرأة التعاسة طيلة حياتها فنسمع أن فلانة من الناس طلقت ولديها طفل أو اثنان.. مما يعني أن عمرها لم يتجاوز الخامسة والعشرين أو اقل من الثلاثين، فتصبح في غالب الأحوال تعيسة ان بقيت بدون زواج! وتعيسة إن تزوجت .. فمن يتزوج بها لن يكون بمثابة والد ابنائها حتى وإن ادعى ذلك! فالإنسان أبناؤه عليه حمل، فكيف بأبناء الآخرين؟ وان بقي أبناؤها مع

والدهم فستكون هي مشغولة الذهن عليهم وهي معذورة في ذلك. الإنسان ينشغل باله على ابنائه وهم حوله فكيف وهم بعيدون عنه. وتعتبر المرأة المطلقة مدانة في كل الأحوال، في مجتمعاتنا التقليدية - كونها الجنس الأضعف- والكل ينظر إليها على أنها ستخطف الأزواج من زوجاتهم. وتقول إحدى المطلقات: إن المطلقة تعود حاملة جراحها وآلامها ودموعها في حقيبتها، وتكون معاناتها النفسية أقوى. ويحاصر المجتمع المطلقة بنظرة فيها ريبة وشك في سلوكها وتصرفاتها، مما تشعر معه بالذنب والفشل العاطفي وخيبة الأمل والإحباط، وهذا يزيدها تعقيداً ويؤخر تكيفها مع واقعها الحالي. فرجوعها إذن إلى أهلها بعد أن ظنوا أنهم ستروها بزواجها وصدمتهم بعودتها موسومة بلقب "مطلقة" الرديف المباشر لكلمة "العار" عندهم وأنهم سيتنصلون من مسؤولية أطفالها وتربيتهم وأنهم يلفظونهم خارجاً مما يرغم الأم في كثير من الأحيان على التخلي عن حقها في رعايتهم إذا لم تكن عاملة أو ليس لها مصدر مادي كاف، لأن ذلك يثقل كاهلها ويزيد معاناتها، أما إذاً كانت عاملة أو حاملة لأفكار تحررية فتلوكها ألسنة السوء فتكون المراقبة والحراسة أشد وأكثر إيلاما. وأبرز ما يفعله الزلزال الاجتماعي الأسري (الطلاق) على الزوجة هو العوز المالي وزيادة الأعباء المالية على المرأة المطلقة مما يجعلها من أكثر الأطراف تضررا من الناحية الاقتصادية مما يؤدي إلى انخفاض في المستوى المعيشي.

آثار الطلاق على الأبناء:

حين تكون الأسرة متفككة منحلة بالطلاق فإن ذلك التفكك سينعكس أيضاً على الأولاد ويشبه علماء النفس الطفل بالإسفنج الذي يمتص أي سلوك وأي تصرف يصدر من أفراد الأسرة. فالأسرة هي المنبع الأول للطفل في مجال النمو النفسي والعقلي فيما يصدر عن الوالدين من أمراض سلوكية أخلاقية تكون الأسرة منبعها ويؤثر ذلك أكثر شيء على الأطفال. وتتمثل الآثار الناتجة عن الطلاق على الأولاد في عدة أمور منها:

• الضرر الواقع على الأولاد في البعد عن إشراف الأب إن كانوا مع الأم وفي البعد عن حنان الأم إن كانوا مع الأب، وفي هذه الحالة يكون الأطفال عرضة لوقوعهم تحت رحمة زوجة أبيهم بعد أمهم التي من المستحيل أن تكون بالنسبة لهم أماً فيصبحوا عرضة للانحراف والجنوح.

• في عدم الإشراف على الأولاد من قبل الوالدين واهتزاز الأسرة يعطي مجالاً لهم للعبث في الشوارع والتشرد واحتراف مهن محرمة. لأن صدمة تفكك والديهم بالطلاق تكاد تقتلهم بعدما يفقدوا معاني الإحساس بالأمن والحماية والاستقرار حتى باتوا فريسة صراعات بين والديهم خصوصاً إذا تصارع كلٌ منهما على من يكسب الطفل في جانبه حتى لو أدى ذلك إلى تشويه صورة الطرف الآخر أمام ابنه واتخاذ كل السبل الممكنة، فيعيش الطفل هذه الصراعات بين والديه يفقده الثقة بهما ويجعله يفكر في البحث عن عالم آخر، ووسط جديد للعيش فيه قد يعوضه عن حب وحنان والديه إلى الوقوع فريسة في أحضان المتشردين الذين يقودونه إلى عالم الجريمة.

• يُعّد الطلاق سببا مباشرا في فقد الطفل للثقة بنفسه حيث نجد أن بداخله كماً كبيراً من الشعور بالنقص وقد يدفعه هذا الشعور لبعض التصرفات المرفوضة، فقد صادفت فتاة كانت محل إعجاب الطالبات والمعلمات طوال فترة دراستها في المرحلة الابتدائية ثم جاء انفصال والديها الذي أثر أولاً على تفوقها

الدراسي وبعد ذلك اتجاهاتها المنحرفة حيث بدأت في لفت الأنظار إليها بالخروج عن كل السلوكيات الحميدة، فقد صارت كثيرة الإهمال في مظهرها وفي كل شيء.

آثار الطلاق على المجتمع:

إن الطلاق بخلوه من الآداب التي حددها الإسلام عند وقوعه حتماً به ضرر على المجتمع بأسره لأن المجتمع يتكون من أسر مترابطة تكوّن نسيجه، فانحلال وتفكك هذه الأسر يسبب اضطرابات اجتماعية يعاني منها المجتمع ومن أمثلة ذلك:

1. في انحلال الزواج وسيلة لزرع الكراهية والنزاع والمشاجرة بين أفراد المجتمع خصوصاً إذا خرج الطلاق عن حدود الأدب الإسلامي المحدد له كما ذكرنا سابقاً والذي يجر وراءه أقارب كل طرف في خصام وتقاضي واقتتال مما يسبب مشاحنات وعدم استقرار في المجتمع. وبدلاً من أن يعمل الأهل والأقارب لإصلاح ذات البين والصلح بينهما يصبحان مصدراً للخصام والانحياز والتعصب المؤدي إلى زعزعة واستقرار المجتمع، يقول الله تعالى: وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما.

2. الأحداث الناتجة عن الطلاق تؤثر في شخصية الرجل، وما ينتابه من هموم وأفكار وأعباء مالية قد تجره إلى تصرفات تضر بمصلحة المجتمع وعدم أداء عمله على أكمل وجه، وقد تجره لاتخاذ سلوك نحو الجريمة كالسرقة والاحتيال وغير ذلك. وهذه الهموم والآلام قد تنتاب المرأة أيضاً مما يجعلها تفكر بأي طريق للحصول على وسيلة للعيش وقد تسلك طرقاً منحرفة وغير سوية في ذلك مما يؤثر سلباً على المجتمع.

3. في تشرد الأولاد وعدم رعايتهم والاهتمام بهم نتيجة غياب الأب وتفكك الأسرة وعدم اهتمام الأم، يجعلهم يتجهون إلى سلوك غير سوي فتكثر جرائم الأحداث ويتزعزع الأمن في المجتمع، ويزداد معدل انحراف الأحداث والتخلف الدراسي وزيادة الأمراض النفسية بين الأطفال والكبار أيضاً .ولأجل هذه الآثار الناتجة عن الطلاق يجب أن يدرك كل فرد في المجتمع أن الطلاق إذا خرج عن المفهوم والغرض الذي أباحه الله –سبحانه وتعالى – له واعتبره أبغض الحلال إليه فإنه سيوصل المجتمع إلى مهاوي الردى لأن الله – سبحانه وتعالى– يريد الحياة السعيدة والمستمرة والمستقرة للأسر الإسلامية، وفي إباحته للطلاق إنما يقصد السعادة للأسرة الإسلامية.

المصادر

• أيمن الشبول، المتغيرات الاجتماعية والثقافية لظاهرة الطلاق/ دراسة انثربولوجية في بلدة الطرة، مجلة 2010، جامعة دمشق، المجلد 26، العدد 3 و4.

• احمد عبيد الكبيسي، الاحوال الشخصية في الفقه والقضاء والقانون، العاتك لصناعة الكتب، القاهرة، 2007.

• عائدة سالم الجنابي، المتغيرات الاجتماعية والثقافية لظاهرة الطلاق/ دراسة ميدانية لظاهرة الطلاق في مدينة بغداد، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983.

• عبد الله حسان محمود، مشاكل الطلاق، ط1 ، دار الهادي، بيروت، 2006.

• علي القائمي، الاسرة وقضايا الزواج، ط 1، دار النبلاء، بيروت، 2004.

• وسيلة عاصم الباشا، الطلاق وأسبابه وآثاره الاجتماعية/ دراسة ميدانية لظاهرة الطلاق في مدينة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة في علم الاجتماع، جامعة بغداد، 1982.

الطلاق عبر وسائل الاتصال الالكترونية

حيان الخياط

محام وإعلامي وناشط مدني. مواليد بعقوبة 1992، بكالوريوس قانون. عمل مقدما ومعدا لبرنامج (المستشار) القانوني في قناة بلادي، وبرنامج (واي ميديا) من اذاعة صوت الطلبة في جامعة بغداد. أصدر عام 2015 كتاب (العلم للجميع) عن دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة – بغداد، وهو مجموعة مقالات علمية لغير المتخصصين (إعداد ومشاركة) بـ 550 صفحة.

مما لا شك فيه أننا نعيش في "عصر التكنولوجيا" الذي يتجلى في أهم جانب له وهو وسائل الاتصال الحديثة التي تعد الأكثر سرعة طوال التاريخ، فبضغطة زر يمكننا ان نشاهد ونتحدث مع من نشاء ولو كان في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. مما يسر لنا الانفتاح على الآخرين والتواصل مع الأقارب والمعارف في كل مكان بل وحتى اجراء التعاملات التجارية بين الأشخاص او الشركات. وفي بحثنا هذا سنسلط الضوء على الطلاق وعلاقته بوسائل الاتصال الحديثة في كل من القانون والفقه والقضاء وعلى اختلاف وسائل الاتصال سواء التي يتم التواصل عن طريقها بالكتابة او السماع او المشاهدة.

الطلاق في القانون

ان قانون الأحوال الشخصية العراقي رقم 188 لسنة 1959 هو المعني بمسألة تنظيم كيفية إنهاء العلاقة الزوجية، وقد وردت فيه ثلاث طرق وهي كل من:

1 ـ الطلاق: رفع قيد الزواج بإيقاع من الزوج او من الزوجة ان وكلت او فوضت به أو من القاضي. ولا يقع الطلاق إلا بالصيغة المخصوصة له شرعاً (1).

2 ـ التفريق القضائي: وهو طلب احد الزوجين التفريق من القاضي بسبب وجود ضرر من الطرف الآخر او خلاف بينهما.

3 ـ التفريق الاختياري (الخلع): إزالة قيد الزواج بلفظ الخلع او ما في معناه وينعقد بإيجاب وقبول أمام القاضي (2).

الطلاق في الفقه

عند التعمق في مواد القانون سالف الذكر، فإننا نلاحظ عدم خوضه بأية تفاصيل تعيننا على بحث مسألة الطلاق عبر وسائل التواصل الالكترونية، والسبب في ذلك هو ان اغلب القوانين تميل إلى ذكر العموميات دون الغوص في التفاصيل. لكن الأمر لم يترك دون إشارة ولو بسيطة إلى الطريقة الأنسب لحل مشكلة عدم وجود نص قانوني يعالج المسألة. فقد أشارت المادة الأولى/ الفقرة 2 من قانون الأحوال الشخصية إلى

الآتي: "إذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه فيحكم بمقتضى مبادئ الشريعة الإسلامية الأكثر ملاءمة لنصوص هذا القانون". مما يعني ضرورة عودتنا إلى ما سطره فقهاء الشريعة الإسلامية في هذا المجال سواء الشيعة منهم او السنّة وكما يأتي:

1 ـ الطلاق عن طريق الكتابة:

أ ـ تناول الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه (الفقه على المذاهب الخمسة) مسألة الطلاق عن طريق الكتابة ـ وهي الشكل الأكثر انتشاراً للتواصل الحديث عبر مواقع التواصل الاجتماعي وبرامج المحادثات ـ ومما ورد فيه: "قال الإمامية... ولا يقع الطلاق بالكتابة ولا بالإشارة إلا من الأخرس العاجز عن النطق" (3).

وقال ايضاً: "... ولكن المذاهب الأخرى ـ يقصد ما عدا الإمامية ـ قد أجازت الطلاق بكل ما دل عليه لفظاً وكتابة، وصراحة وكناية".

وهذا يعني ان الطلاق عن طريق الكتابة لا يصح لدى الشيعة على عكس السنّة الذين أجازوا مثل هذه الطريقة، هذا ويرجع الشيخ مغنية سبب الاختلاف بين الطائفتين إلى أن الامامية "يضيقون دائرة الطلاق إلى أقصى الحدود، ويفرضون القيود الصارمة على المطلق والمطلقة، وصيغة الطلاق وشهوده".

يضاف إلى ما سبق، عدة استفتاءات وردت إلى المرجع علي السيستاني ترتبط بهذا الموضوع وكان جوابه عليها ما يأتي:

السؤال: ما هي الصيغة التي تكتب في ورقة الطلاق لكي يكون الطلاق صحيحا؟

الجواب: لا يصح الطلاق بالكتابة (6).

السؤال: هل يقع الطلاق على الورق؟ بمعنى لو كتب الزوج على الورق ان زوجتي فلانة طالق فما حكمه؟

الجواب: لا يقع (7).

ب ـ على الجانب الآخر فإن الفقه السنّي اختلف في موضوع الطلاق عن طريق الكتابة مع ترجيح لكفة الرأي الذي ينادي بصحة مثل هذا الطلاق، ومثال ذلك ما نشر على موقع "إسلام ويب" للفتاوى:

"أنا مصري مقيم بدولة قطر وزوجتي بمصر، وقد حدثت مشادة كلامية بيني وبينها وتم على إثرها الطلاق عن طريق النت بالكتابة، علما أنه في المرة الأولى كان لعبا منها لطلبها الطلاق، والمرة الثانية تم الطلاق وكانت النية أني أطلقها؟

ولكم جزيل الشكر.

الإجابـة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فكتابة الطلاق بواسطة الإنترنت مثل الطلاق بالكتابة يعتبر من الكناية بالطلاق، ولا يقع إلا إذا نواه الزوج المطلق.

وعليه، فإذا كنت قد كتبت الطلاق قاصداً إيقاعه فقد وقع، ولك مراجعة زوجتك قبل انقضاء عدتها إذا كان الطلاق الواقع واحدة أو اثنتين ولم يسبقه طلاق، فإن كان هذا الطلاق هو الثالث فقد حرمت عليك، ولا تحل إلا بعد أن تنكح زوجاً غيرك نكاحاً صحيحاً، نكاح رغبة لا نكاح تحليل ثم يطلقها بعد الدخول، والعدة تنتهي بطهر الزوجة من الحيضة الثالثة بعد الطلاق، أو بوضع الحمل إن كانت حاملاً، أو بمضي ثلاثة أشهر إن كانت ممن لا تحيض.

والله أعلم"(8).

ونموذج آخر هو استفتاء على موقع "صيد الفوائد" موجه إلى الشيخ خالد بن سعود البليهد عضو الجمعية العلمية السعودية للسنة:

"السؤال الأول: في شهر رمضان المبارك الماضي أنا وزوجتي حصل شجار كبير بيني وبينها حتى وصلنا إلى الشتم. أنا لم أستحمل فأوصلتها إلى بيت أهلها، ومن ثم عاودت الاتصال عليها وحصل شجار آخر بيني وبينها في الجوّال، ومن ثم أقفلت السماعة في وجهي، أنا هنا لم أستحمل عصبيتي، فأرسلت لها رسالة نصية: يا فلانة أنتِ طالق، ولم تصل الرسالة لها، هنا هل يقع الطلاق؟

السؤال الثاني: إخفاء الطلاق على الزوجة ولم أبلغها برسالة؟

أرجوكم أفيدوني، ضميري مو مرتاح، هل يقع الطلاق عن طريق رسالة الهاتف الجوال؟

الجواب:

الحمد لله، يقع الطلاق إذا تلفظ به الإنسان أو كتبه في ورقة أو كتبه في رسالة الجوال أو رسالة الحاسب ما دام أنه قاصد لإيقاعه مختارا لذلك. وكان الطلاق بلفظ صريح كقوله أنت طالق، أو عليك الطلاق، أو طلقتك، ونحو ذلك من الألفاظ المتصرفة من هذه الكلمة. لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاث جدّهن جدّ وهزلهن جدّ: النكاح والطلاق والرجعة). رواه أبو داود والترمذي وقال حسن غريب. وقد اتفق الفقهاء الأئمة الأربعة وغيرهم على وقوع الطلاق الصريح المنجز فورا من غير نظر إلى النية أو قرائن الأحوال كما حكاه ابن قدامة. وقال ابن المنذر: (أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أن جدّ الطلاق وهزله سواء).

ولا شك أن كتابة الطلاق في معنى التلفظ به هي عمل يترتب عليه الحكم لقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل). رواه الترمذي والنسائي. والفقهاء قديما جعلوا كتابة الطلاق في معنى التلفظ به واشترط جمهورهم نية الطلاق في وقوعه كتابة، فإذا كان الزوج ناويا الطلاق في كتابته وقع، وإن لم ينوه لم يقع كأن ينوي التهديد والتخويف وغيره؛ فالجمهور يجعلون الكتابة في حكم الكناية بالطلاق لا بد من نيّة فيه. وذهب بعض الفقهاء إلى عدم اشتراط النية فيه فجعلوه كالطلاق الصريح الذي لا يفتقر إلى نيّة في وقوعه. ولا شكّ أن كتابة الطلاق في الرسالة الإلكترونية أو رسالة الهاتف الجوّال في معنى الكتابة على الورق وعملية الإرسال أمر زائد فيها مما يدل على تحقق القصد من الزوج.

وهذا الحكم باعتبار تصرف الزوج وسؤاله أما في حالة إنكار الزوجة وعدم تسليمها فالمرجع في ذلك إلى القضاء في إثبات الطلاق أو نفيه. ولذلك يستحب للزوج أن يشهد إذا طلق عن طريق الوسائل العصرية ليستوثق الأمر وتكون الحقوق واضحة بين الزوجين.

والحاصل أن الطلاق عبر الجوّال وغيره من وسائل التقنية طلاق تام متحقق فيه قصد الزوج ومتيقن منه مع وجود النية كالعمل بسائر العقود والفسوخ المالية والحقوق المعنوية التي اصطلح الناس اليوم على التعامل بها والثقة بمصداقيتها عبر هذه الوسائل العصرية.

أما إذا نوى الطلاق بقلبه ولم يتلفظ به أو يكتبه فلا يقع لأنه لم يصدر منه طلاق شرعي وهو قول عامة الفقهاء.

ولا يشترط في وقوعه وصول الرسالة للزوجة أو علمها بها لأنه لا يشترط في وقوع الطلاق ونفاذه علم المرأة ولا إذنها فيه فهو من صلاحيات الزوج وحقوقه التي خوّله الشرع بها ولا مدخل للمرأة البتة في الطلاق لأنها ما تملكه شرعا ولا يحق

لها النظر فيه بوجه من الوجوه. قال في المدونة: (وسمعت مالكا وسئل عن رجل يكتب إلى امرأة بطلاقها فيبدو له فيحبس الكتاب بعدما كتب، قال مالك: إن كان كتب حين كتب يستشير وينظر ويختار فذلك له والطلاق ساقط عنه ولو كان كتب مجمعاً على الطلاق فقد لزمه الحنث وإن لم يبعث بالكتاب).

فعلى هذا يقع الطلاق منك إن كنت قاصدا له ناويا إيقاعه مختارا ولو لم تصل رسالتك لزوجتك أو لم تعلم بها وينبغي عليك أن تخبرها لتكون على بصيرة.

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم" (9).

2 ـ الطلاق عن طريق المكالمات الهاتفية:

أ ـ ننقل في هذا الشأن استفتاء للشيخ خالد عبد المنعم الرفاعي عن:

"امرأة طَلّقها زوجها طلقة أولى عن طريق الهاتف، وهو مُسافر عنها في دولة أخرى؛ لمشاكل عائليّة، هل يقع هذا الطلاق؟

الجواب:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فالطّلاق عَبْر الهاتف نافذ كَسائر الطُرق التي يَنفذ بها الطّلاق، ومَا دام الزوج قد طلّق امرأتَه عَبْر الهاتف؛ فهذا الطلاق ماضٍ ونافذٌ" (10).

ب ـ وهذا استفتاء مشابه وجه إلى المرجع علي السيستاني:

"السؤال: هل يجوز للرجل ان يطلق زوجته بالتلفون يعني يقول لها بالهاتف أنت طالق طالق طالق؟

الجواب: لا يصح، إذ يعتبر في صحة الطلاق بحضور شاهدين عادلين من الشيعة" (11).

وجواب السيد السيستاني لا يعني عدم صحة الطلاق لأنه تمّ عن طريق الهاتف النقال بل عدم صحته بسبب عدم وجود شاهدين أثناء تلفظ الزوج بصيغة الطلاق، فالفقه الجعفري يشترط وجود شاهدين عند وقوع الطلاق.

3 ـ الطلاق عن طريق مكالمة فيديو:

وهذه الطريقة تعني توفر الصوت والصورة بين طرفي المكالمة، فهل يصح الطلاق وفق هذا الفرض ام لا؟

بالنسبة للفقه السنّي فان جمهور الفقهاء يذهبون إلى صحة الطلاق عن طريق الكتابة والمكالمة الصوتية، فمن باب أولى أنهم يذهبون إلى ان الطلاق عن طريق المكالمات الفيديوية سيؤدي إلى النتيجة نفسها.

اما فقهاء المذهب الجعفري فان هنالك اختلافا في ما بينهم حول هذه المسألة، إلا أننا عثرنا على جواب للمرجع محمد سعيد الحكيم يقول فيه بصحة مثل هكذا طلاق في حال توفر شروط الطلاق الصحيح، وهذا هو نص الاستفتاء وجوابه:

"س2: هل يجوز عقد الزواج عبر الهاتف والنت وهل يتم الطلاق أيضا عبر هذه الطرق؟

ج 2: نعم، يصح ذلك، لكن يشترط في الطلاق الإشهاد، وذلك بأن يشهد الطلاق رجلان عادلان، بحيث يسمعانه إذا كان باللفظ، ويريانه إن كان بالإشارة ونحوها من الأخرس ونحوه" (12).

نماذج قضائية

1 ـ ادعت المدعية بواسطة موكلها أمام هذه المحكمة بان المدعى عليه هو زوج موكلته الداخل بها شرعا وقانونا وتم إيقاع الطلاق الخلعي خارج المحكمة

بتاريخ... وطلبت دعوى المدعى عليه للمرافعة والحكم بتصديق الطلاق الخلعي، وللمرافعة الحضورية العلنية وللإطلاع على عقد الزواج الصادر من محكمة الاحوال الشخصية في الزهور... المتضمن زواج الواقع بين الطرفين ولإقرار المدعى عليه بالزوجية والدخول وصحة الطلاق الخلعي عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي الفيس بوك، الماسنجر. وتصادق الطرفان أنهم من مقلدي المذهب الجعفري وحيث يشترط في أحكام المذهب الجعفري ان يكون مجلس الطلاق منعقدا حقيقة وفي مكان وزمان واحد، عليه يكون الطلاق غير واقع شرعا وتكون دعوى المدعية لا سند لها من الشرع والقانون وواجبة الرد عليه، ولكل ما تقدم تقرر الحكم بردّ دعوى المدعية. قرار الحكم الصادر عن محكمة الأحوال الشخصية في بغداد الجديدة بالعدد 8012/ش/2016.

2 ـ لدعوى المدعية ان المدعى عليه زوجها الداخل بها شرعاً وقد طلقها طلاقاً رجعياً خارج المحكمة بتاريخ... وعلى مرآى ومسمع عدد من الشهود، طلبت دعوته للمرافعة والحكم بتصديق الطلاق وللمرافعة الغيابية العلنية الجارية بحق المدعى عليه واطلاع المحكمة على عقد زواج الطرفين الصادر من محكمة الأحوال الشخصية... ولاستماع المحكمة للبينة الشخصية التي أيدت وقوع طلاق المدعى عليه للمدعية من خلال الاتصال الهاتفي بالصوت والصورة عبر وسيلة الاتصال الالكتروني في الفيس بوك ... وان طرفي هذه الدعوى من مقلدي المذهب الحنفي الذي لم يشترط لصحة الطلاق الواقع "الشهادة" وان سماع المحكمة للبينة الشخصية كان لإثبات صدور فعل الطلاق من الزوج المدعى عليه وهذا ما ثبت للمحكمة على سبيل القطع... عليه ولكل ما تقدم ولثبوت وقوع الطلاق بلا موانع شرعية او قانونية، قرر الحكم بتصديق الطلاق الرجعي الذي أوقعه المدعى عليه بحق المدعية خارج المحكمة... وعبر وسيلة الاتصال الالكتروني الفيس بوك واعتباره طلاقاً رجعياً واقعاً للمرة الأولى.

الخاتمة

ذكرنا في بداية هذا البحث ان قانون الأحوال الشخصية رقم 188 تم تشريعه سنة 1959، أي انه قانون قديم ولا يواكب ما استجد من ظروف الحياة في بعض نصوصه، وعلى الرغم من تعديله عدة مرات قبل سنين عديدة إلا انه لا يزال بحاجة إلى إضافة وتعديل ليتناسب مع روح العصر الذي نحيا فيه من جهة، والمشاكل الجديدة التي أخذت بالظهور نتيجة لتطور التكنولوجيا من جهة أخرى.

والتعديل الذي نشير إليه لا يتضمن تجاوزا لفحوى القانون نفسه او مخالفة لنصوص الشريعة التي يستند عليها، بل على العكس من ذلك حيث تذهب فتاوى الكثير من المراجع والمشايخ كما نقلنا عنهم سابقاً إلى القبول باستخدام وسائل التواصل الالكترونية في هذا المجال.

مهما يكن من أمر، فان هذا الموضوع الشائك بحاجة إلى المزيد من البحث والدراسة سواء على مستوى الرسائل والأطاريح او الكتب والبحوث الاكاديمية حيث لاحظنا عدم وجود مصادر كثيرة تشرحه بشكل واف من مختلف جوانبه، ومن جانبنا نتمنى أننا قد أضفنا ولو شيئاً يسيراً لسدّ هذا النقص.

المراجع والمصادر
(1) قانون الأحوال الشخصية العراقي رقم 188 لسنة 1959، المادة الرابعة والثلاثون، الفقرة أولا.
(2) المصدر السابق، المادة السادسة والأربعون الفقرة 1.
(3) الفقه على المذاهب الخمسة ـ محمد جواد مغنية ص 413.
(4) المصدر السابق، ص 414.
(5) المصدر السابق، ص 414.
(6) موقع السيستاني/ الاستفتاءات/ الطلاق/ صفحة 4/ سؤال 40.
(7) موقع السيستاني/ الاستفتاءات/ الطلاق/ صفحة 1/ سؤال 4.
(8) http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=122195
(9) https://saaid.net/Doat/binbulihed/f/295.htm
(10) موقع طريق الإسلام http://ar.islamway.net/fatwa/37763/
(11) موقع السيستاني/ الاستفتاءات/ الطلاق/ صفحة 5/ سؤال 45.
(12) موقع محمد سعيد الحكيم/ الاستفتاءات/ الطلاق/ شروط الطلاق.

ملاحظة لا بد منها: تتوجه هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) بالشكر الجزيل الى الأعزاء د.سوران قحطان، عادل عبد الزهرة شبيب، رضاب عباس علاوي، لما بذلوه من جهود لعقد هذه الطاولة الحوارية في ظروف جيدة. كما نتوجه بالشكر الجزيل الى جمعية الامل العراقية لاستضافتها الطاولة هذه في مقرها.

نصوص مترجمة

من أرشيف الكومنترن (6)
رسائل في أرشيف الحزب الشيوعي العراقي في الكومنترن *

ترجمها عن الروسية د .عبد الله حبه

رسالة رقم (7)
سري 25 /12 /1936
الانقلاب على السلطة في العراق
ومهام الحزب الشيوعي العراقي

في مطلع عام 1935 انتفضت عدة قبائل شيعية في منطقة الهندية جنوبي بغداد، وكانت الانتفاضة موجهة مباشرة ضد حكومة جميل المدفعي، وقادها عبد الواحد آل سكر (الشيخ عبد الواحد آل سكر الشيخ العام لعشيرة ال فتلة والمولود في مدينة المشخاب عام 1880 وتوفي في عام 1956 وهو احد ابرز قادة ثورة العشرين التحررية – المحرر) الذي أعلن لرجال الصحافة في حينه.. اننا انتفضنا ضد الانكليز في عام 1920 وناضلنا من أجل استقلالنا، وتحسين وضعنا الاقتصادي، ولكن بعد انتظار طويل، اقتنعنا بأن الوعود التي قدمت لنا لا تنفذ – وقد ثرنا ضد الحكومة، وطردنا جباة الضرائب. ونزعنا خط السكة الحديدية احتجاجاً على سياسة الحكومة. وطالبنا بإلغاء الديون المتراكمة لنا الى الحكومة وبخفض الضرائب، وبإعادة النظر في اتفاقية النفط وزيادة الضرائب على الشركات الاجنبية وباستقالة حكومة جميل المدفعي وهلمجرا.

وقبالة هذه الاحداث وقبالة الاضطرابات العامة التي اجتاحت البلاد لم تجد حكومة المدفعي من مخرج آخر سوى الاستقالة.

وكلف غازي ملك العراق ياسين باشا الهاشمي بتشكيل الحكومة الجديدة. وبهذا كلف بتشكيل الحكومة لأول مرة في العراق رجل أعلن مراراً عن معارضته للمعاهدة العراقية – البريطانية والنظام السائد في البلاد. ولهذا قابل الشعب بارتياح تكليف الهاشمي بتشكيل الحكومة.

وشرعت حكومة الهاشمي باجراء مفاوضات مع قادة الانتفاضة من زعماء القبائل بهدف تهدئتها، كما ارسلت الجيش في الوقت نفسه لقمع هذه الحركة.

وبعد ذلك بدأ الهاشمي بغتة بالقول:

"ان المعاهدة العراقية – البريطانية هي خطوة الى الامام". وقد أثارت هذه الاقوال خيبة الأمل بالحكومة في أوساط القوميين المعارضين والجماهير.

ولم يكتف الهاشمي باطلاق هذه التصريحات التي تركت انطباعاً سيئاً في أوساط الجماهير بل أضاف قائلاً: "نحن نطالب بالاستقرار، بغية أن تمضي البلاد قدماً نحو هدفها بخطوات واثقة". وزاد هذا كله من السخط والادانة في أوساط الجماهير، وأصبحت الاضطرابات ظاهرة عامة في البلاد.

وبعد ذلك بدأ الهاشمي حملته الشهيرة ضد القوميين المعارضين والشيوعيين. فأغلق كافة الصحف والنوادي ومنظمات المعارضة. وزج بالكثير من القوميين والشيوعيين في السجن ووضعوا تحت رقابة الشرطة. ثم جرى حل البرلمان واستحدث مجلس نواب جديد من أنصار الهاشمي وحكومته. وتمت تصفية كافة الحريات الديمقراطية في البلاد. ثم عمد الهاشمي الى الاتفاق مع الانكليز على شراء السكك الحديدية، التي شيدوها في اثناء الحرب الامبريالية. وقد دفع ثمناً غالياً مقابل ذلك بينما بقيت الطرق نفسها تحت ادارة المدراء والخبراء الانكليز لمدة عشرين عاماً. واعتبر العراقيون هذه الاتفاقية اتفاقية جائرة. ووافق الهاشمي على تأجيل بناء مصافي النفط لمدة 15 سنة أخرى. وبموجب الاتفاقية الموجودة بين الحكومة العراقية وشركة نفط العراق، أن يتم انشاء هذه المصافي في عام 1936. كما قام الهاشمي بتوزيع الاراضي الأميرية على أقاربه وأذنابه وانصاره. كما جرى الشيء نفسه لدى توزيع المناصب في جهاز الدولة. ان هذه الافعال وغيرها قد أثارت غضب واستنكار الوطنيين والجماهير الشعبية.

وعمل الهاشمي كل ما في وسعه من أجل توجيه غضب الشعب ضد الاقليات القومية في العراق من آشوريين ويهود وغيرهم، وفاقم العلاقات بين مختلف الفئات والطوائف العربية على أساس ديني.

ومن الطبيعي أن يقود نشاط الحكومة هذا الى وقوع اضطرابات وانتفاضات. وفي غضون 16 شهرا أي خلال فترة وجود حكومة الهاشمي، قامت خمس انتفاضات للبدو والفلاحين في مختلف مناطق العراق أريقت خلالها دماء كثيرة وسقط العديد من الضحايا.

لقد تم اخماد جميع هذه الانتفاضات بقسوة شديدة. ورافق قمعها فرض الاحكام العرفية وفرض غرامات كبيرة على مناطق بأكملها وقتل العديد من الابرياء.

وزاد هذا سخط الناس، وحتى في الجيش نفسه، وأثار الادانة الشاملة لافعال الحكومة. وقاد هذا بدوره الى حدوث تقارب وتفاهم متبادل بين العناصر التقدمية في العراق والقوميين العراقيين والضباط. وعلى أساس هذا التقارب خلص الجانبان الى اسقاط حكومة الهاشمي بواسطة الجيش العراقي.

وتشكلت حكومة جديدة من المعارضة والعناصر التقدمية الوطنية على الاسس الآتية:

أولا- تعزيز الجيش الوطني؛
ثانيا- توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين؛
ثالثا- حرية الصحافة والاجتماعات والمنظمات والمظاهرات؛
رابعاً- حرية النقابات والاضرابات؛
خامساً- المساواة في الحقوق لجميع القوميات القاطنة في العراق؛
سادساً- الافراج عن جميع المعتقلين السياسيين وعودة المنفيين؛
سابعاً- السعي الى وحدة الاقطار العربية ودعم حركة التحرير الوطني في الاقطار العربية؛
ثامناً- الحفاظ على علاقات الصداقة مع الحكومة البريطانية، وتعزيز العلاقات الودية مع الجارتين تركيا وايران.

تلكم كانت المطالب الرئيسية الواردة في منهاج حكومة حكمت سليمان.

لقد حدث انقلاب 29 اكتوبر 1936 في العراق على أساس هذه المطالب. فكيف جرى ذلك؟ صباح 29 اكتوبر ألقى سرب من الطائرات مناشير فوق بغداد بتوقيع قائد "قوات الاصلاح" اشير فيها الى نفاد صبر الشعب من حكومة الهاشمي، وتطالب قوات الاصلاح الوطني باستقالة حكومة الهاشمي وترشيح حكمت سليمان لتولي منصب رئيس الوزراء. ونظراً لتباطؤ الحكومة في الاستقالة القيت 4 قنابل على مبنى الحكومة، علماً ان الملك غازي لم يكن متعاطفاً مع الهاشمي، ولم يكن راضياً عن عمله. وعندما وجه الهاشمي السؤال الى السفير البريطاني حول القوات الجوية البريطانية المرابطة في بغداد قاطعه غازي وقال: "ان العراق دولة مستقلة، ولا يحق للإنكليز التدخل في شئوننا الداخلية". ولم يبق أمام حكومة الهاشمي من خيار سوى الاستقالة أو الاختباء في السفارة البريطانية، خشية زحف قوات الجيش على بغداد. وحاول جعفر العسكري وزير الدفاع السابق المعروف بولائه للنظام السابق وللحكومة البريطانية ايقاف زحف الجيش لكن الثوار قتلوه.

تشكلت حكومة حكمت سليمان من زعماء المعارضين القوميين وممثلي حزب الشعب وبعض العناصر التقدمية غير المنظمة الى الاحزاب المعارضة الموجودة. ووزير المالية جعفر ابو التمن زعيم الوطنيين المعارضين ورئيس "الحزب الوطني" المنحل سابقاً وهو تاجر معروف له نفوذ كبير ومكانة مرموقة في أوساط الجماهير العراقية وبالاخص الشيعية. أما وزير المواصلات كامل الجادرجي فهو من زعماء الشعبيين/ وهم جماعة من المثقفين العراقيين الذين يتمتعون بنفوذ في أوساط الطلاب والمثقفين والبرجوازية الصغيرة وقسم من العمال. ويتضمن تفكيرهم الكثير من الافكار الاشتراكية، العلمية والطوباوية. ونشأت في أوساط الشعبيين الحركة الشيوعية في بغداد. وفي عام 1934 انفصل الحزب نهائياً عن الشعبيين.

أما حكمت سليمان رئيس الوزراء فقد درس في الكلية العسكرية في اسطنبول، وكذلك في المانيا على حساب الحكومة العثمانية. وحاز رتبة ضابط في الجيش التركي. وشارك في الثورة العامة في العراق ضد الامبريالية البريطانية

في عام 1920. وشغل منصب وزير الداخلية في حكومة الكيلاني في 1933 – 1934. ويعتبر لبرالياً وقومياً تقدمياً. وبهذا فان الحكومة الجديدة ترتكز من جانب على قوة الجيش، ومن جانب آخر على الحركة الوطنية وجماهير الشعب. وجرت مظاهرات حاشدة بعد الانقلاب في كافة مدن ومناطق العراق للترحيب بالحكومة الجديدة ودعمها، وتعتبر خير دليل على ذلك. وشرعت الحكومة الجديدة بتنفيذ برامجها، فأعُيد صدور الصحف المحظورة سابقاً، وأفرج عن السجناء السياسيين، وسمح بتكوين النقابات، وبدأ بتوزيع الاراضي الأميرية على الفلاحين وعلى القبائل من أجل اسكان البدو. وايدت الحكومة حركة توحيد جميع القوميين والشعبيين والعمال وغيرهم في حزب سياسي واحد. وعلى هذا الاساس تشكلت "رابطة الاصلاح الشعبي". وكان بين منظمي هذا الحزب واعضاء اللجنة المركزية اثنان من الوزراء وبعض قادة الشعبيين وزعيم عمال بغداد – صالح القزاز وغيرهم. ولدى هذا الحزب برنامج وطني تقدمي واسع يتضمن الكثير من المطالب الرئيسية للعمال والفلاحين.

في الوقت نفسه بدأت الحكومة بتطهير البلاد من آثار الحكومة السابقة والرجعيين. وجرى قمع الصحافة الرجعية والنوادي الرجعية وغيرها. وأعلن احد زعماء الوطنيين "ان الاحداث في اسبانيا هي درس كبير لنا، وكل حكومة ديمقراطية لا تتخذ تدابير حازمة من اجل قمع الرجعيين والحركة الفاشية في البلاد، انما تساعد هذه الحركة في الواقع".

ان الإنقلاب على السلطة في العراق قد أدى في الواقع الى تكريس الاتجاهات الديمقراطية في الاقطار العربية، وبالاخص في اوساط البرجوازية الوطنية والمثقفين. واكد بجلاء كل أهمية الحركة الجماهيرية بصفتها ركيزة لحركة التحرير الوطني وكل حكومة ديمقراطية ووطنية.

ان مهام الشيوعيين وجميع العناصر الديمقراطية في المرحلة الراهنة في العراق هي ما يأتي:

أولا– دعم الحكومة الحالية في العراق، لأنها تضمن للشعب العراقي الحريات الديمقراطية، وتسهل نضاله من أجل تحسين وضعه المعيشي ورفع المستوى الثقافي والعمل بكل اخلاص من اجل تنفيذ برنامجها.

ثانيا– العمل في سبيل توحيد جميع قوى الشعب العراقي على أساس شعار اقامة الجبهة الوطنية الموحدة. ويجب على الشيوعيين لهذا الغرض الانضمام الى رابطة الاصلاح الوطني. وهذا ضروري من أجل دعم الحكومة في تنفيذ الاصلاحات التقدمية وضمان الحريات الديمقراطية وحمايتها من الهجمات الرجعية. ويجب ان تكون الجبهة الوطنية الموحدة قوة جبارة لمكافحة الاتجاهات الفاشية والاخطار في الحركة الوطنية، ومن اجل فضح عملاء هتلر وموسوليني بصفتهم من أعداء التحرير الوطني.

ثالثا– العمل من أجل اقامة علاقات قوية

وودية والتعاون المتبادل بين الشعبين العراقي والبريطاني على أساس تعزيز الحركات الديمقراطية في كلا البلدين وتوحيدهما في النضال ضد خطر الفاشية ومن أجل السلم العالمي.

رابعاً– العمل على تعزيز روابط الاخوة والعلاقات بين العراق والشعوب العربية الأخرى من اجل توحيد نضالها والمساعدة المتبادلة بينها، بغية تنفيذ مطالبها الديمقراطية، وكذلك ضد دسائس هتلر وموسوليني، باعتبارها من أكبر الاخطار التي تهدد الشعوب العربية، ونضالها من أجل الحريات الديمقراطية، وتعرضها للمزيد من العبودية.

خامساً- العمل من أجل تحقيق المساواة التامة بين جميع القوميات في العراق وضمان الوحدة العاملة للشعب العراقي.

ويجب لهذا الغرض وبغية ان يكون القوميون التقدميون والشيوعيون قادرين على تنفيذ مهامهم وتحشيد الجماهير حول هذه المطاليب، العمل على تكوين منظمات وحركات وطنية وشعبية في كافة مدن وقرى العراق. كما ينبغي أيضاً العمل على توسيع وتوطيد الحركة النقابية بين العمال على أساس النضال في سبيل مطالبهم اليومية.

وتجب اعارة اهتمام كبير الى الحركة الفلاحية والعناية بمطالبهم الآنية مهما كانت صغيرة. ويجب العمل على نشر الثقافة والتعليم في أوساط جماهير الشعب العراقي.

*****

رسالة رقم (7)
الوضع في العراق:
مهام الحزب الشيوعي العراقي
بعد انقلاب 29 تشرين الأول 1936

بعد ان تخلت بريطانيا عن انتداب العراق في العام 1930 أقدمت على عقد ما يسمى معاهدة "التحالف والصداقة" مع العراق. وبموجب هذه المعاهدة ضمنت بريطانيا الحفاظ على مصالحها الرئيسية في العراق (الحق في الابقاء على قاعدتين جويتين في أراضي العراق، وحق حماية العراق من العدوان الخارجي، وحق استخدام أراضيه وموانئه وطرق مواصلاته وهلمجرا في حالة دخول بريطانيا في الحرب، والتزام العراق بتقديم الدعم الى الجيش البريطاني وتنسيق سياسته الخارجية مع بريطانيا باعتبارها حليفة له وهلمجرا)، ومنح العراق شكلياً وضع الاستقلال في شؤونه الداخلية وحق امتلاكه الجيش الوطني. وفي أعقاب ذلك وفي عام 1932 قدمت توصية لقبول العراق في عصبة الأمم.

لقد كان سبب استبدال الانتداب بالمعاهدة قبل كل شيء رفض الشعب العراقي الحازم لسيطرة بريطانيا على العراق، وتصاعد نضاله في سبيل الاستقلال. وقدم الامبرياليون البريطانيون التنازلات لأنه تولى قيادة العراق أشخاص كان الامبرياليون البريطانيون يثقون بهم ثقة كبيرة ويعتمدون عليهم (وهم الملك فيصل الأول ونوري السعيد وجعفر العسكري، وعموماً كافة الملتفين حول الطغمة الاقطاعية السنية ممثلة بحزب "العهد"). وتظاهر الامبرياليون البريطانيون

لدى الغاء الانتداب انهم ينفذون لحد ما وعودهم الى العرب في اثناء الحرب باقامة الدولة العربية المستقلة.
لكن المعاهدة لم تلق الارتياح من جانب الشرائح الرئيسية من البرجوازية الوطنية العربية ولا الجماهير الشعبية الواسعة. وتحول الى المعارضة كل من البرجوازية الوطنية الفتية والاقطاعيين الشيعة. وظهر في العراق الى جانب حزب "العهد" الذي اعتبر بصفته حزب الملك، والذي دعا جهاراً الى الوفاق والمصالحة مع الامبريالية البريطانية، أحزاب اخرى هي: حزب الاخاء الوطني وحزب الوحدة العراقية وحزب التقدم والحزب الوطني.
والاحزاب الثلاثة الاولى تمثل في الواقع الزمر البرجوازية الاقطاعية بدون وجود عضوية جماهيرية فيها، وبدون فروع محلية (باستثناء حزب الاخاء الوطني الذي وجدت له تنظيمات في البصرة والموصل) وبدون برامج محددة.
وكانت غالبية هذه الاحزاب عبارة عن زمر تصبو لنيل المناصب الوزارية والمناصب في دوائر الدولة وكان زعماء هذه الاحزاب ومنها حزب "العهد" المؤلف من حوالي 40 شخصاً، يتولون المناصب بالتوالي كوزراء في جميع الحكومات الست عشرة خلال 16 عاماً من وجود المملكة العراقية. وكانت جميع هذه الاحزاب باستثناء حزب "العهد" تقف في صف المعارضة للمعاهدة وتوجد في مراحل مختلفة حولها جماعات كبيرة من العناصر الساخطة من البرجوازية الوطنية والاقطاعيين.
بيد ان الفساد والانحلال وجدا لهما اعشاشاً وطيدة في أوساط زعماء هذه الاحزاب لدرجة أنهم لدى تولي رئاسة الحكومة يتحولون من المعارضة حتماً ويفقدون انصارهم الشرفاء جميعاً من المعارضين، ولذلك يهتمون فقط بالاثراء الشخصي عن طريق نهب املاك الدولة وتلقي الرشاوى. وقد شجع الامبرياليون البريطانيون بكل السبل سرقات الوزراء والموظفين ويجعلونهم في وضع التبعية لهم أكثر فأكثر. فمثلاً ان ياسين الهاشمي الذي تم اسقاطه كان لدى عمله كرئيس وزراء أصبح من أكبر ملاك الاراضي في البلاد، علاوة على ذلك منح الأراضي الأميرية الى اقاربه واتباعه جميعاً.
وبخلاف هذه الزمر الفاسدة كان الحزب الوطني برئاسة الديمقراطي الثوري النزيه جعفر ابو التمن كمنظمة يوحد الجماهير الواسعة للبرجوازية الصغيرة والانتليجنسيا الوطنية والعناصر التقدمية من البرجوازية الوطنية. وكانت لهذا الحزب منظمات محلية ويضم في صفوفه حتى 3000 عضو.
ووجدت الى جانب هذا الحزب جماعة ملتفة حول الجريدة اليسارية "الاهالي"، وحلقات الشعبيين. وانبثق الحزب الشيوعي العراقي من أوساط الشعبيين بالذات في العام 1934.
وشغل الحزب الوطني والشعبيون والحزب الشيوعي المواقع اليسارية وبفضل نضالها ضد الامبريالية وكذلك بفضل شخصياتها القيادية، حظيت هذه الاحزاب بمكانة مرموقة في أوساط فئات كبيرة من الشعب.

وفي آذار عام 1935 اندلعت انتفاضة فلاحية كبيرة في جنوب العراق، وجاء الى السلطة حزب الاخاء الوطني الذي عارض المعاهدة والحكومة السابقة وعمل زعماء هذا الحزب في خضم الصراع على السلطة على انهاض الفلاحين بانفسهم للقيام بالانتفاضة، لكنهم عندما تولوا السلطة قمعوا الانتفاضة بقسوة. وهكذا تشكلت حكومة ياسين الهاشمي التي تم اسقاطها الان. وبالرغم من قمع انتفاضة الفلاحين فقد تنامى السخط في البلاد. واجتاح الغضب كردستان، اذ لم تفكر أية واحدة من الحكومات بحقوق وأماني الاكراد وتنامى سخط الفلاحين لقيام حكومة تمثل حزب الاخاء الوطني باصدار قوانين جائرة في أواخر عام 1933 جعلت الفلاحين تابعين للأرض في الواقع. وعبثاً كان العمال ينتظرون صدور القوانين العمالية الموعودة. فقد كانت مشاريع القوانين تتعثر في أروقة الدوائر في مختلف الوزارات. واحتدم الوضع أكثر فأكثر لقيام حكومة الهاشمي أيضاً، كالحكومة السالفة لها، بتجاهل قضية تحسين الوضع في البلاد كلياً. وكانت عوائد النفط تشكل أقل من نصف مليون جنيه استرليني سنوياً. علماً ان النفط الخام في الغالب يصدر الى حيفا وطرابلس. وبهذا يحرم العراقيون من كسب الرزق لدى وجود مصافي النفط في العراق. وكانت الحكومة تنفذ مطيعة ارادة الانكليز وتعقد الصفقات والاستثمارات غير المربحة أبداً.

عمدت حكومة الهاشمي الى المضي في طريق الارهاب الجائر من أجل قمع السخط المتنامي والاستنكار لدى الناس. وأغلقت جميع صحف المعارضة. وزج الناس بالسجون لدى ابداء أية معارضة وبقيت مناطق فلاحية كبيرة تحت الحكم العرفي. وتم خلال 18 شهراً قمع 6 انتفاضات فلاحية باستخدام قوات الجيش ومنعت الصحف الرجعية المحلية من كتابة اي شيء عن الوضع في البلاد. وتم شراء ذمم أصحاب الصحف العربية في مصر وفلسطين وسورية جزئياً فأخذت تروج الدعاية لحكومة الهاشمي.

وأغلقت النقابات حيث أكدت وزارة الداخلية، ان "وجود هذه المنظمات يخلق مصاعب كبيرة للمسؤولين في الحكومة الذين يواجهون صعوبات، ويترددون بين مطالب الشعب، وتأثيره، وصعوبات السياسة الخارجية".

في ظروف الارهاب هذه عمد الحزب الوطني الى حل نفسه. أما الحزب الشيوعي والشعبيون فقد تمت مطاردتهم وزجهم بالسجون.

وفي الواقع تم حل الحزبين الحكوميين وهما حزب العهد وحزب الاخاء الوطني من قبل الهاشمي بذريعة ان "الوطن في خطر" ويجب ان يعمل الجميع في كتلة واحدة.

لكن الارهاب ساعد على تقارب جميع قوى المعارضة. وترأس المعارضة حكمت سليمان الذي خرج من حزب الاخاء الوطني وجعفر أبو التمن زعيم الحزب الوطني وجماعة الشعبيين المرتبطين بالحزب الشيوعي ارتباطاً وثيقاً.

بقي الجيش بصفته الساحة الرئيسية

للنشاط العلني بالنسبة الى الوطنيين، فقد ضم العناصر الفلاحية الذين تم تجنيدهم في الجيش بموجب قانون الخدمة الاجبارية، والضباط وأكثرهم من البرجوازية المتوسطة والصغيرة من المعارضين للامبريالية البريطانية. وكان قادة الجيش العراقي من ذوي النزعة الوطنية والديمقراطية غير راضين عن النظام الموجود في البلاد وعن سياسة حكومة الهاشمي.

ونظراً لتواصل العمليات ضد الفلاحين والعشائر فقد ضعف الانضباط في الجيش وازدادت حوادث انضمام الجنود الى الثوار. أما حكومة الهاشمي فقد كانت تنفذ ارادة الانكليز وتعرقل بكل السبل تنامي وتعزيز الجيش الوطني العراقي. كان لا بد ان يقف قادة الجيش ضد هذه السياسة لكونهم من ذوي روح التحرر الوطني. واحتدم الجو أكثر بسبب الاحداث في فلسطين.

كما وتأثر بحركة التحرير الوطني العربية ملك العراق الشاب الملك غازي الذي لم يكن الانكليز يثقون به وأرادوا السيطرة عليه بمعونة الهاشمي.

وفي النتيجة اتصل قادة المعارضة العاملين سراً مع العناصر الوطنية في قيادة الجيش وحدث الانقلاب في 29 تشرين الأول، وأدى الى تشكيل الحكومة برئاسة حكمت سليمان.

واقامت هذه الحكومة النظام الديمقراطي في البلاد وطرحت برنامجاً واسعاً من الاصلاحات التقدمية، يتجاوب مع مصالح الجماهير الشعبية الواسعة. وكانت في الوقت نفسه حكومة وطنية عربية تقف ضد الامبريالية البريطانية. وتدل على ذلك بيانات وتصريحات وأفعال هذه الحكومة. ومما يدل على ان الانقلاب العراقي تم بنتيجة حركة شعبية وليس بدسائس الفاشست الالمان والايطاليين، وقائع مثل مكافحة الصحف الرجعية الممولة من قبل الفاشست في العراق، وتعاطف الحكومة مع الشعب الاسباني ووقوفها ضد العدوان الفاشستي عليه.

لقد تأسس حزب سياسي جديد باسم "اتحاد الاصلاح الشعبي". وبادر الى تأسيسه الشعبيون (وبينهم إثنان من الوزراء في الحكومة الحالية) وبعض الشخصيات اليسارية (منهم صالح قزاز رئيس النقابات العراقية – محمد صالح القزاز – المحرر).

بما ان جعفر ابو التمن زعيم الحزب الوطني لم يكن بين مؤسسي "اتحاد الاصلاح الشعبي" فيبدو انه سيجري اعادة تأسيس الحزب. وهذا شيء مفهوم تماماً لأن برنامج اتحاد الاصلاح الشعبي يتضمن الكثير من المطالب الراديكالية واليسارية، لذا لا يمكن أن ينضم إليه حتى العناصر الديمقراطية من البرجوازية الوطنية.

ان المهمة الرئيسية للشيوعيين في العراق هي الانضمام الى اتحاد الاصلاح الشعبي والعمل هناك في اعداد برنامجه وإظهار انفسهم بصفتهم خير المناضلين في سبيل مصالح الشعب. وعندما ينضم الشيوعيون الى الاتحاد سيجدون، أولا، انفسهم في خضم الجماهير، وثانياً، إنهم لن يخافوا أي قمع، أية حالة اضطهاد

الشيوعيين تحت ضغط الامبريالية.
في الوقت نفسه يجب على الشيوعيين العمل على تنظيم وتعزيز النقابات بمساعدة العمال في نضالهم الاضرابي الاقتصادي.
ويرتكب الشيوعيون خطأ كبيرا بطرحهم مطلب "ثورة التحرير الاجتماعي" كشرط لدعمهم حكومة حكمت سليمان.
يجب على الشيوعيين أن يتولوا مبادرة تنظيم وتأسيس جبهة موحدة لجميع المنظمات الديمقراطية (اتحاد الاصلاح الشعبي، الحزب الوطني، النقابات، المنظمات الاجتماعية والسياسية للأكراد واليهود وغيرهم)، وذلك من أجل دعم الحكومة الديمقراطية الحالية وإجراءاتها. كما يجب على الشيوعيين أن يكونوا خيرة المناضلين من أجل الوحدة، والمساعدة في ابعاد البرجوازية الصغيرة من الشعبيين الثوريين عن الانحرافات اليسارية الضارة.
اذن يجب أن يقتصر نشاط الشيوعيين في الفترة القريبة القادمة على العمل ضمن "اتحاد الاصلاح الشعبي" وفي النقابات، والعمل على أساس برنامج الاتحاد وأن يكونوا خيرة منظمي وحدة جميع العناصر الديمقراطية من أجل دعم حكومة حكمت سليمان.
وينبغي تجنب الانحرافات اليسارية. ويجب ابداء أقصى اليقظة حيال العناصر الرجعية والفاشية، حيث ان جميع مساعي الامبريالية البريطانية في البلاد ستكون موجهة نحو تنظيم القوى الرجعية من أجل اسقاط حكومة حكمت سليمان. من جانب آخر يجب ابداء اليقظة حيال دسائس الفاشيين الالمان والايطاليين في البلاد.

---

* من وثائق الكومنترن

حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور الفنان التشكيلي ضياء العزاوي

ما ميّز التجربة الفنية العراقية عن غيرها من التجارب العربية هو في طرحها للهوية الوطنية كجزء أساسي من البحث الفني

أجرى الحوار الفنان التشكيلي العراقي فيصل لعيبي صاحي، والذي كتب المقدمة الآتية:

الفنان ضياء العزّاوي، طراز خاص

منذ ظهوره على الساحة الفنية، اختط الفنان ضياء العزاوي درباً مختلفاً ومميزاً عن مجايليه وكذلك عمن جاء من بعده. كانت تجربته مرتبطة بأفكار جماعة بغداد، رغم انه من أعضاء جماعة الإنطباعيين، التي أسهمت في بلورة وعيه اللوني وحسه البصري. وبسبب دراسته الآثارية فقد كان مطلعاً على تراث وادي الرافدين بشكل يفوق إطلاع العديد من الفنانين العراقيين الذين كانت لأعمالهم صلة بالتراث الحضاري لوادي الرافدين.

بدأ بالفولكلور والتراث الشعبي، فقدم لنا لوحات مختلفة تتحدث عن المطر الحلبي وبنات الجلبي، كما قدم لنا أعمالاً تتحدث عن تراجيديا كربلاء ومأساة الحسين بن علي في صراعه مع دولة الأمويين. كانت الأعمال التي قدمها في هذين المجالين – الشعبي والتراجيدي – تعتمد بعض موتيفات جواد سليم مثل الهلال والكف والعيون السومرية، وغيرها، وخاصةً في بغدادياته الشهيرة، لكن ضياء قدمها بطريقة يمكن اعتبارها استكمالا وتتطوراً للشكل الجوادي. فاللون المستخدم والتكوين المقدم والعلاقات بين الخط واللون كلها توحي بميلاد فنان من طراز خاص، سيشغل بعدها الساحة الفنية بتجاربه المختلفة وفي عدة اجناس إبداعية، من الحفر الى النحت والتصميم – وهو مصمم من الدرجة الأولى – الى البوستر والسيراميك والخشب وإصدار كتب معمولة ومرسومة باليد للشعر والشعراء. إضافة الى اهتمامه بالقضايا العربية وخاصة فلسطين في كافة مراحل تحولاته اللاحقة، والتي قدم فيها أعمالاً معبرة، كان متحف التيت الحديث قد أقتنى أهمها وهي مجزرة صبرا وشاتيلا. وهذا شيء يجب التنويه عنه، لأنه ولأول مرة يقتني متحف غربي عملا لفنان عربي وبموضوع حساس بالنسبة للوعي الغربي وهيمنة التأثير الصهيوني عليه عموماً في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية. ولا نبالغ لو قلنا انها جيرنيكا الفلسطينيين فعلاً.

تميل لوحة ضياء الى التجريد عموماً، وهو متمكن جداً من خاماته التي يستعملها ولهذا نجد هذه الأعمال تملك حضوراً مميزاً بالنسبة للوحة العراقية والعربية خصوصاً. وألوان ضياء عموماً مستمدة من البسط الشعبية العراقية، خاصة منسوجات الفرات الأوسط التي كان للفنان شاكر حسن آل سعيد الفضل في لفت انتباه العين العراقية الفنية لجمالياتها المذهلة. ومن النافع أيضاً ان نؤكد الطريقة الناجحة التي اتبعها ضياء للإستفادة من تجارب الفنانين الاوربيين وغيرهم، حيث نستطيع ملاحظة تلك الاستفادة وبأسلوبه الخاص من العديد منهم وهو متابع حريص للتجارب الغربية الحديثة ومتابعة تحولات اللوحة في الوقت الحاضر. كما نلاحظ لديه ميلاً اخذ يزداد حالياً للابتعاد عن الجذور الأولى لتجربته، ومحاولته ان يقدم عملاً أقرب الى المفاهيم الجديدة للوحة التي تكرّست هنا في اوربا. مما يدلل على روحه التجريبية التي لا تهدأ ولا تريد التوقف عند محطة واحدة.

إن هذه الكلمات المحدودة لا توفي

حق هذا المبدع ولن تستطيع، بسبب المساحة الكبيرة التي يتحرك عليها نتاجه الفني وبالتالي لا أظنني قد أوفي حق فناننا الكبير ضياء العزاوي، لكنها فرصة لتحيته والتذكير بدور الفن التشكيلي العراقي المعاصر على الساحة العربية والدولية. حيث يعتبر العزاوي من انشط الفنانين العراقيين والعرب في هذا المجال، وتحوي العديد من المتاحف العربية والدولية الكثير من أعماله، وهذا اعتراف وتقدير لما حققه خلال مسيرته التي تمتد قرابة نصف قرن وأكثر. تحية للعزيز الفنان المبدع ضياء العزاوي، وتمنياتي له بطول العمر والصحة والنشاط الدائم.
في هذا الحوار نحاول ان نسلط الضوء على بعض جوانب نشاط هذا الفنان القدير:

*** في بداية ظهورك على الساحة الفنية العراقية، قدمت لنا لوحة تعتمد الى حدٍ ما على ملامح قريبة من بغداديات الفنان جواد سليم، لكنها تميزت باللون والتصميم الجديدين على اللوحة العراقية. كيف تنظر الآن الى تلك التجربة؟**

– كنت حال العديد من فناني جيلي تحت تأثير اساتذتنا وبشكل خاص جواد سليم وفائق حسن، قضيت مع فائق خمس سنوات على مقعد الدراسة، بينما التقيت بجواد بشكل عابر قبل مغادرته الى ايطاليا لانجاز جدرايته الهائلة. كان لكل واحد منهما تميزه الخاص به موضوعا وأسلوبا، لجواد تأكيد على مرجعية ذات علاقة بالموروث المحلي تاريخيا او شعبيا، وهذا ما تطابق مع دراستي الجامعية للآثار، ولفائق انحياز لقيمة اللوحة فنيا من حيث التكوين واللون ولم يكن الموضوع المحلي إلا تمرينا لقدرته المتميزة في بناء اللوحة، وجدت في المزاوجة بين كلاهما قد يفتح الباب لي لبناء عمل له ميزته حتى وان ظلت تأثيراتهما هنا او هناك. وبفعل هذا التأثر واصلت مشواري الخاص دون ان اعبّأ بما يشير اليه النقاد حينذاك.

*** يمكن اعتبارك أقرب الفنانين العراقيين آنذاك لجماعة جواد سليم، ولكنك كنت تنتمي الى جماعة الانطباعيين، التي أسسها الفنان حافظ الدروبي، ما الذي دفعك الى هذه المفارقة؟**

– تأسست الجماعات الفنية الاولى على الصداقة والعلاقات الاجتماعية، ولم تكن جماعة الانطباعيين بعيدة عن ذلك، خلال دراستي الجامعية التحقت بالمرسم الحر الذي كان يديره حافظ الدروبي في كلية الاداب وبفعل هذه العلاقة اقترح عليّ الانضمام للجماعة والمشاركة بمعارضها، حالي حال مظفر النواب الذي سبقني في الدراسة. بهذا المقترح وفر حافظ الفرصة لكي اكون اكثر قربا من الوسط الفني ومنحني الثقة بجدوى ما أعمله. ما هو المهم هو في انفتاح حافظ وتسامحه في توفير فرصة العرض رغم التأثيرات الواضحة لأسلوب جواد، ورغم معرفته ايضا بكوني احد طلاب فائق حسن في الدراسة المسائية. ان التنافر بين دراستي الصباحية التي اعتمدت على التاريخ الحضاري للعراق وبين دراستي المسائية التي كانت ذات علاقة

بالفن الاوربي في كل مفاصلها من حيث التاريخ والممارسة، هو نفس التنافر بين تواجدي في جماعة الانطباعيين كحضور فني وبين الممارسة ذات العلاقة بمفاهيم جماعة بغداد. هذه التناقضات هي التي خلقت عندي الرغبة المستمرة في تحدي نفسي من اجل تطوير ادواتي وتعميق فهمي لبناء اللوحة.

*** استخدم بعض فنانينا في أعمالهم السيرة الشعبية والملاحم القديمة في تراثنا أمثال: جواد سليم، كاظم حيدر، ماهود احمد وغيرهم. هل كان استعمالك لها في أعمالك ينطلق من نفس الفهم، أي التأكيد على ما يشبه الهوية ام أنك تختلف عنهم في تناولك لها؟**

– ما ميّز التجربة الفنية العراقية عن غيرها من التجارب العربية هو في طرحها للهوية الوطنية كجزء أساسي من البحث الفني، وان كانت الدعوة محدودة بتأسيس فن عراقي كما دعت إليه جماعة بغداد، لم يكن هذا الطرح فرديا، كما حدث مع التجربة المصرية بشكل ما مثلا او التجربة المغربية التي مالت للفن الشعبي والمحلي. لم اكن بعيدا عن الفنانين المذكورين في هذا المجال، لكنني وبفعل دراستي الآثارية التي ضمت سوريا، فلسطين ومصر اصبحت اكثر ميلا للعمل ضمن مفهوم الفن العربي؛ اذ لا اجد في كنوز توت عنخامون او كتاب الاموات الفرعوني فرقا عن اللقى السومرية ولا مجموعة الاساطير الأكدية. وما عزز عندي هذا التوجه بفعل اقامة المعارض الشخصية خارج العراق كبيروت والكويت ثم تنوعت بين المغرب والخليج العربي. عبر هذه المعارض كان النقد الصحفي؛ اذ يركز على عراقيتي، كان ايضا ينظر اليها مقارنة مع ما هو موجود في الساحة الفنية. وكان لبيروت فعل السبق في ذلك؛ اذ استقبل معرض اسماعيل فتاح منتصف الستينات بترحيب واسع لما قدمه من اعمال ظلمت النحت والرسم بفعل حداثتها قياسا للتجربة اللبنانية حينذاك. بينما واجه كاظم حيدر في معرضه الذي اقامه بعد اسماعيل بهجوم قاس لأنه قدم اعمالا واقعية رسمها في بيروت، مع بضع لوحات من معرضه الاول تحت عنوان (الشهيد) والذي اقامه في بغداد، بعد عودته من لندن. لقد عكس مهرجان الواسطي عام 1972 الذي اقيم في بغداد مدى اتساع العلاقة مع التجارب العربية وحداثة التجربة العراقية وتنوع ابحاثها بالقياس مع ما هو موجود في حينها على الصعيد العربي. إلا ان هذا الفعالية التاريخية بما تمخضت عنه ما اصطلح عليه في ما بعد (معرض السنتين للفن العربي) لم يتطاول وجوده وخضع كما يحدث دائما الى مفهوم المؤسسة الرسمية ومحدوديتها لتكون نهايته الحتمية بعد الدورة الثالثة.

*** تميز نشاطك الفني في مجالات عدة: الطباعة والحفر والنحت وإنتاج الدفاتر الفنية إضافة للرسم. أيهما اقرب الى ضياء العزاوي؟**

– بعد كل هذه السنوات، لا اجد القناعة الكاملة بجدوى الانصراف لتقنية واحدة، لأنني وجدت في كل من هذه

الوسائط خبرة ذات علاقة بالمادة، وهذا أمر يحتم على الفنان ان يعي استحالة امكانية تحقيق افكاره ما لم يعط للمادة خصوصيتها؛ فالألوان الزيتية ليس كالاكريلك والنحت بالحجر لا يتلاءم مع العمل بالطين او الخشب، هذه التفاوتات هي ما تغني معرفة الفنان وتجعله اكثر جرأة في تحقيق ما يراه مناسبا لمخيلته.

*** تعتبر اكثر الفنانين العراقيين انتشارا في العالم العربي والأجنبي، ولك علاقات جيدة مع العديد من المؤسسات الفنية، وكانت مساهمتك في تأسيس بعضها واضحاً. كيف يمكننا ان نجعل مثل هذه الحالة عاملاً من عوامل التقارب والتفاعل مع الآخر في ما يتعلق بالفنان العراقي تحديداً وما هو دور المؤسسات العراقية الرسمية هنا؟**

– في المنطقة العربية تشكل وزارة الثقافة ببعدها السياسي الحاجز الاساسي في عملية التطوير، حيث أوليات عمل الوزارة تتمثل في تبيض وجه الدولة عبر فعاليات في الغالب ذات نفس قصير، بينما نعرف ان التطوير هو عمل تراكمي في الخبرة وفي العلاقات العامة البعيدة عن الانتهازية السياسية، لذا لا تتلاءم الأوليات الحكومية مع أوليات التطوير الذي لا يقبل بالحيادية في تبني مشروع فني او ثقافي ما.
ولعل العراق في زمن النظام السابق صرف الملايين من الدنانير في دعم الفن، إلا اننا لم نجد بعد الاحتلال إلا بقايا مؤسسات خاوية، تخلو من المقومات الصحيحة التي تتطاول مع المتغيرات، فمتحف الفن الحديث مزبلة يرأسه مسؤول لا يمتلك ـ كما في السابق ـ معرفة بفن ادارة المتحف، وبالتالي يميل المتحف لان يكون مستودعا لا غير. بينما نعرف ان المتحف هو مختبر ثقافي وفني لا يتطور في علاقته بالجمهور إلا عبر فعاليات ابداعية، تجعل من المتحف حاجة شخصية لأفراد المجتمع. اما ما تشير اليه عن المؤسسات العراقية فهو مجرد أمنيات؛ اذ ليست هناك مؤسسة ذات فعالية ثقافية تمكنت من اقامة العلاقة مع الآخر، بل اغلبهم ظلوا في نطاق الخدمات للجالية، وهذا ما ادى الى انعكاس الجانب الخدمي على الساحة الثقافية والفنية بفعاليات منغلقة. قد يشير البعض الى كَالري الكوفة الذي تحرك عند بدايته ضمن تصور مهني صحيح، لكن سرعان ما تحول الى مقهى ثقافي منغلق على الثقافة العراقية مع بعض الاستثناءات. لا يمكن لأي مؤسسة ان يكون لها وجود فعال بدون الدعم المالي والذي يسمح للمؤسسة ان تكون بعيدة على الاهواء الشخصية، وفي نفس الوقت تؤسس لفعاليات تترابط اهدافها بمعزل عن منطق المهاجر وحاجته المتواضعة. وإذا انتقلنا الى المؤسسات العربية، فأنا أقول ان جميعها تعمل ضمن منطق قطري، وإذا حدث لها ان اشتغلت على فعالية عربية فان ذلك يضيف لها تميّزا يدغدغ العقلية المحلية التي تدعي الانفتاح.

*** ظهرت في العراق جهوداً نظرية في فلسفة الفن، لا علم لي إن كان هناك تنظير في بلد عربي آخر يوازي هذه الجهود، كيف ترى الى ما قدمه كل من المعمار رفعة الجادرجي والفنان محمود صبري والفنان**

شاكر حسن آل سعيد. اين نجد تطبيقات افكارهم الجمالية في المنجز التشكيلي العراقي أو العربي؟

– بالنسبة لي، كل ما كتب هو وجهة نظر في العمل الفني وليس فلسفة، لان بضعة مقالات غير مترابطة لا تنشئ موقفا فلسفيا يحتمل الاختبار ليس محليا فقط بل بانتقاله الى اللغة الاخرى. اذكر لكَ مثالا حيا عن ذلك، عندما كنت في تحرير مجلة "اور" الناطقة باللغة الانكليزية، والتي كانت تصدر عن المركز الثقافي العراقي في لندن، قدمت كراس شاكر حسن عن المظاهر المعمارية في رسوم الواسطي للترجمة من قبل سيدة ضالعة باللغة العربية والإنكليزية، جاءت الترجمة بحدود عشر صفحات عن الاصل الذي كان ست عشرة صفحة، افترضت اننا في الغالب نكرر الاشياء ضمن تنوع لغوي وبعد مراجعة المحرر الانكليزي انتهينا الى سبع صفحات، عندها سألت المحرر عن هذا التبدل في عدد الصفحات طلبت منه ان يجيبني صراحة ماذا تقدم هذه الدراسة له، اجاب بكل هدوء، لا شيء، وعندما سألته لماذا، اجابني بأنه لا يمكن لباحث ان يكتب بحثا دون الانتباه لما نشر في مجال بحثه، لكي يفند بعض الافكار التي فيها او يعمل على تطوير ما يجد فيها من توصلات مهمة. بحث هذا الكاتب فيه استعراض لغوي وتكرار لبعض الافكار غير المترابطة.
مع ذلك تبقى بعض طروحاته قابلة للمناقشة رغم فردية مفاهيمه في تمثيل تجربته وتعميمها على تجارب الآخرين.

اما كتابات محمود صبري فهي موقف فني واضح مكثف في طرحه لعلاقة الفنان والمجتمع ولربما لو استمر في تجربته دون الانتقال الى واقعية الكم، لكان من الممكن ان يشكل مفهوما فلسفيا متسعا لعلاقته بالآخر، اما عن واقعية الكم وضمن حوار معه في نهاية السبعينيات سألته كيف لأسلوب واقعية الكم ان يعبر عن احداث اجتماعية هامة مثلا كمذبحة تل الزعتر (كان قد مرّ على الحدث بضعة اشهر) لم يجبني في حينها، لكنني ما زلت افترض ان اي اسلوب او فلسفة ينبغي ان تكون قادرة على مواجهة كل الاسئلة وإلا ستكون تجربة منغلقة على مفهوم واحد. لعل ما نشره رفعت الجادرجي هو الابرز في هذا المجال، إلا انه اعطى العمارة وتبدلاتها حيزا اساسيا في بحثه.

*** أنت واحد من الفنانين الذين تناولوا الهم الوطني الفلسطيني في أعمالهم الفنية. وهناك كم هائل من الأعمال العراقية التي انشغلت بالهموم العراقية والعربية الوطنية، ولكنها لم تُدْرَس جيداً أو أُهْمِلَت من قبل كتّاب النقد الفني عندنا. هل تعتقد ان اللوحة التي تعنى بالهم الإجتماعي، قد فقدت دورها، وإذا كان الجواب بنعم، فكيف نفسر وصول عملك الكبير عن صبرا وشاتيلا الى متحف التيت الحديث في لندن؟ أما إذا كان الجواب بلا، فما هو سر هذا التجاهل والإهمال اللذين رافقا الحديث عن الفن الملتزم في بلادنا الواسعة والمليئة بالمشاكل العويصة؟**

– لا اعتقد ان اللوحة ذات الهم الاجتماعي او الوطني قد فقدت دورها،

معلقة إمرؤ القيس

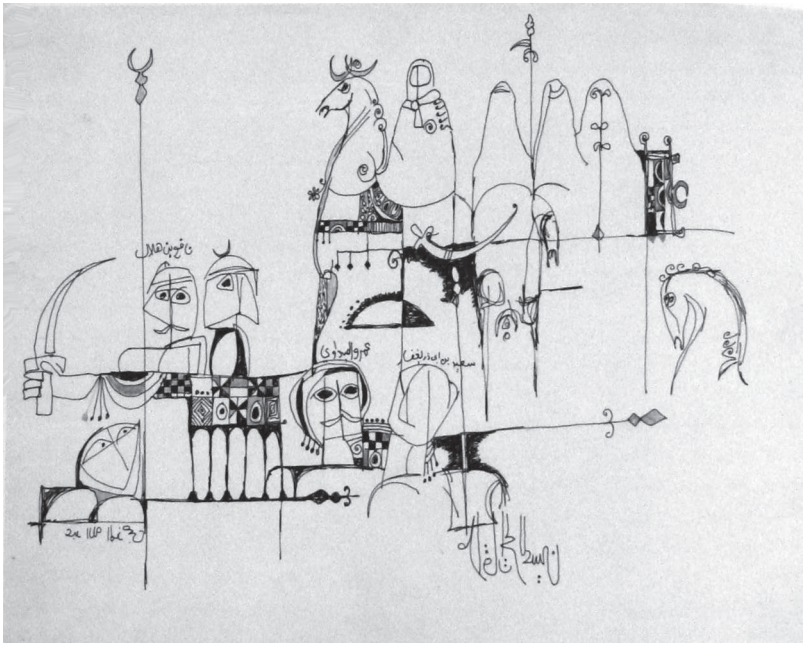

مأساة كربلاء

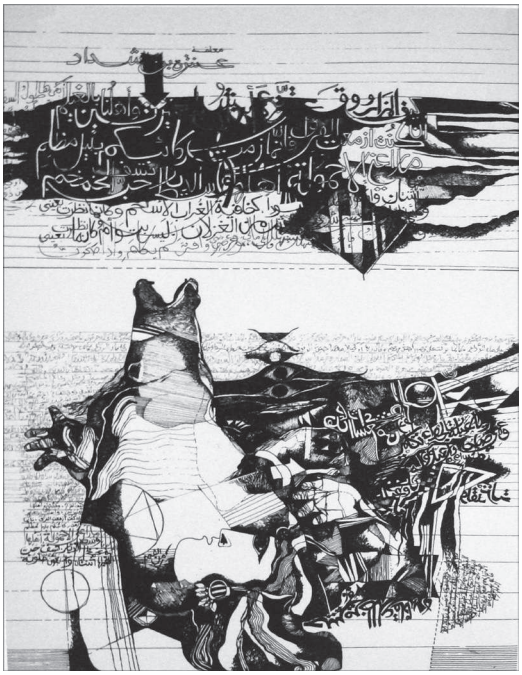

معلقة عنترة إبن شداد

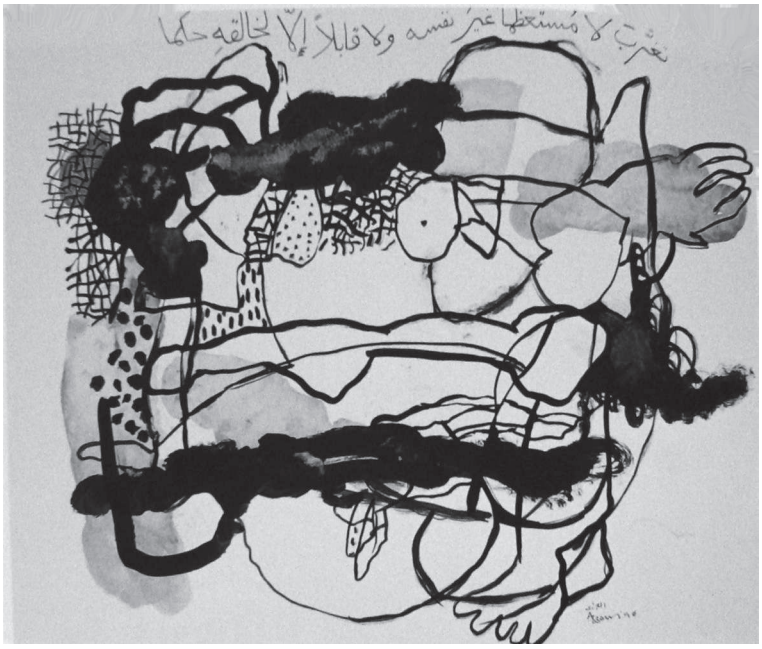

من شعر المتنبي

الاشكالية هي في تحقق العمل بعيدا عن المباشرة والتأكيد على عنصر الحكاية، بدلا من الضوابط الفنية وقدرة التكوين الفني على اقامة الحوار مع المشاهد، عبر طرح الاسئلة عن العناصر المستخدمة وعلاقتها بالشكل الرمزي. اما موضوع التجاهل فهو يرتبط بشكل ما اما بمباشرة العمل وعدم وجود ما يشد المشاهد او الناقد لخلق نوع من الفضول في تفكيك عناصر العمل، وبالتالي مناقشته فنيا، او مكان العرض او طريقة تقديمه. لوحة صبرا وشاتيلا عرضت مرة في الكويت عام ١٩٨٣ وظلت مخزونة في مرسمي حتى تم نشر صورة لها لأول مرة في كتاب عن الفن العربي والإيراني باللغة الإنكليزية، في حينها اثارت فضول لجنة الاختيار، من هنا يبدو لي ان العمل الفني ذا العلاقة بالهم الوطني والاجتماعي، لا يفقد قيمته بمرور السنوات ما دام يمتلك مقومات مطاولته فنيا، بعيدا عن تاريخ الحدث وأهميته.

*** بعد خروجك من العراق عام ١٩٧٦، بدأت لوحتك تأخذ منحاً آخر، وتقترب من التجربة الأوربية أكثر، كما نلاحظ اختفاء الملامح العراقية منها، هل هو تحول عن المفاهيم السابقة للوحة ضياء أم انها تطوير لها؟**

– السنوات الطويلة في لندن وتجوالي في اوربا فرضت علي العديد من الاسئلة التي تتعلق بعلاقة العمل الفني بمرجعية تاريخية او شعبية. هناك مثال لا لبس فيه هو ما سمي بالحروفية العربية. لقد ساهمت فيها لسنوات طويلة محاولا البحث في هذه العلاقة من منظور الرسام كجزء من البحث عن الهوية، لحين اصبح هذا البحث مرتبطا بمفاهيم سهلة اصبح علي التوقف عندها ومغادرتها. لفترة طويلة كان البعض من النقاد او جامعي الاعمال يعتبرون ان اي عمل وضع فيه حرف عربي هنا أو هناك، هو نموذج للوحة عربية، ثم تعرفنا على الفن الإيراني، ولم يتحفنا هؤلاء النقاد ان كانت اللوحة عربية ام ايرانية؟ وعندما استخدم فزرلي الحرف الكوفي المربع في بعض اعماله تراكض البعض من الفنانين لتقليده، ولا ادري ان كانت لوحة فزرلي عربية ام مقلدة؟ وما زلت اتذكر عندما اقيم معرض لمجموعة من الفنانين العرب المعنيين باستخدام الحرف العربي في اللوحة، كيف تم التعريف به عبر مقالات تحمل عنوان (خطاطون عرب معاصرون) لان النتاجات المعروضة كانت معالجة بمفهوم الخطاط لا الرسام، وبين الاثنين فرق شاسع لا يتعرض له النقاد العرب لأنهم مهمومون بالأحكام السهلة في انتساب اللوحة. كان علي دائما النظر للعمل الفني من داخله، عمل لا يحتاج للتزيين او الاضافات المفتعلة المستلبة من عناصر موجودة بالحياة اليومية. انا لا اخفي انتسابي الثقافي لكنني ايضا لا اريد ان يكون الانتساب عائقا في تحقيق عمل فني فيه مقومات الابداع. لسنوات في التسعينيات لم اتردد من استخدام الاقمشة الشائعة عند نساء البدو كجزء اساسي من عملي، ولم اتردد في تحقيق اعمال ذات علاقة بالتاريخ المصري كعناصر فنية من خارج تاريخها. من هنا لعل المتابع لأعمالي عليه ان يعود لتاريخ طويل وكيف تم تشذيب العمل

وتطويره ليكون قادرا على التواجد مع الثقافات الاخرى.
مثلا اجد في الفن الهندي الحديث، فن إثني منغلق. البعض يسميه بحثا ذا علاقة بالمكون الثقافي والمعرفي الهندي. لكنني ومنذ سنوات اتابع مثلا الفن الصيني المعاصر، حيث تبنى المفهوم الاوربي بالكامل، لم يذهب للحرف الصيني، ولم يقحم تاريخه الغني في سبيل خلق اللوحة التي تعبر عن احتياجاته وتثير الحوار الاجتماعي ضمن الاحداث المختلفة لتاريخه. ذهب الفنان الصيني الى فعل تحد لمكونات ابداعه ولم يذهب الى الطريق السهل بالانتساب من اجل قبوله محليا، بل حرص ومنذ البدء على المواجهة العالمية بتحقيق اعمال لها مرجعية محلية (الجانب الحرفي) وربطها بموضوعات محلية ذات هم انساني، منها مثلا السخرية غير المباشرة من الثورة الثقافية، وبعض الظواهر الاجتماعية ببعدها السياسي، كما في اعمال (يوي منجن) أو معالجة الموضوع الصيني الشائع بمنع العائلة من انجاب طفل واحد كما في اعمال (تشانغ شياو قانغ)، من هنا تبرز ضرورة اعادة النظر بمفهوم الانتساب بمعناه السهل الذي يوّلد التكرار، ويقلل من فعل التغيير الضروري، لكي يظل داخل الفنان محرضا لما هو جديد وغني في آن واحد.

*** أصبحت المزادات الفنية أكثر تأثيراً وحسماً في تحديد مستوى هذا الفنان او ذاك، وأهملت المراجع ذات السمعة الأكاديمية والفنية السابقة لها، مثل المتاحف وقاعات العرض التقليدية وحتى أحياناً كتابات النقّاد عنه. كيف تنظر الى هذه الحالة الجديدة في عالم الفن العربي والعراقي وأين سيتجه سوق الفن العربي والعراقي لاحقاً؟**

– جميع المزادات مؤسسات أوربية، فيها بعض العاملين العرب ممن يمتلكون ثقافة قطرية، اي ان المصري يعرف عن مصر اكثر مما يعرف عن تاريخ الفن العراقي، كذلك علينا الاعتراف بعدم وجود كتب جدية عن تاريخ الفن العراقي مثلا، ما كتبه جبرا ابراهيم لم يتعد غير بضعة اسماء، ولا اجد في كتاب نزار سليم، غيرَ كتاب عام ينطلق من فهم جماعة بغداد. كذلك فعل شاكر حسن في كتابه المصدري، بالإضافة الى اهتمام النقد الصحفي بالنص لا بالصورة. كل ذلك ساهم مع انكفاء الفنانين العراقيين ضمن المناخ الفني المحلي. اتذكر مرة كيف هاجم ناقد لبناني عملاً لفائق لأنه كان مشابها لعمل فنان عراقي آخر، ولم يعرف هذا الناقد بان المبدع الفعلي هو فائق وليس الآخر. كما علينا ان لا ننسى ان المزاد يحتاج شخصين، لكي يرتفع سعر العمل. اتذكر وللعديد من المرات وضع المتحف العربي في الدوحة قيما مضاعفة لبعض الاعمال العراقية، إلا ان المزايد الآخر لديه تصور محدود مما يجعله يقف عند رقم ما. المرة الوحيدة كبرهان لما اقول عندما طرح عمل نحتي صغير لجواد كان قد عرضه في اول معرض له في بغداد، كان السعر المقترح بين 80 – 100 ألف دولار، انتهت المزايدة لصالح المتحف بحدود 500 ألف، لأن ببساطة المزايد من الجهة الثانية كان

اوربيا، وبالتالي ما حدده مسبقا كسقف لقيمة العمل جاء ضمن مكانة الفنان وفرادة العمل نفسه. ما زالت السوق العربية سوقا غير مستقرة، وفي غياب مفهوم واضح لجامع الاعمال، التي في الغالب ظلت اسماء أصحابها مجهولة لسبب ما، مما حال لأي مهتم ان يتعرف او يتابع قيمة العمل وفرادته ضمن التجربة المحلية أولا ومدى تميزه طليعيا على الصعيد العربي. لقد خلقت دور المزادات الوسائل الاكثر وضوحا لجدوى جمع الاعمال الفنية ليس ضمن اهميتها المحلية فقط وإنما ايضا في طليعيتها عربيا أيضا. من هنا قلت حظوظ العديد من الفنانين ممن كانوا مهمين ضمن محليتهم.

*** هل فقدت اللوحة المعلقة على جدار دورها اليوم، بعد ان تعددت وسائل العرض وقدمت تجارب بعيدة عن مفهوم اللوحة المعلقة بدخول التقنيات الحديثة والمتطورة في عرض السلعة الفنية بعد ان أصبح مفهوم الفن البصري يشمل مجالات اكثر سعةً وشمولاً؟**

– لا اعتقد بهذه الفرضية، كما لا اعتقد بأفضلية الفن المعاصر عن الفن الحديث. مفاهيم يتم الترويج لها من قبل تجار الفن وبعض المنسقين للمعارض الفنية، وإلا كيف يمكن للفنان (لوسيان فرويد) الذي لم يمر على وفاته زمن كبير والمعروف بتجربته الاكاديمية الحديثة واهتمامه بكل ضوابطها ان يبقى اسمه علما وان ترتفع اسعار لوحاته لملايين عدة. من دون شك خضعت اللوحة التقليدية الى تبدلات تقنية عدة بفعل الاضافات لمواد مختلفة كما تمثلت في اعمال الالماني (كيفر) مما فتح المجال لديمومتها المستقبلية كوسيلة تعبير اساسية. وعلى الرغم من اتساع مفهوم الفن التشكيلي عبر تمثله بالفيديو والفوتغراف إلا ان ذلك لم يلغ الميزة الاساسية، وهي فرادة العمل الابداعي عندما يستوفي شروط تحققه.

أدب
و
فن

الكتابة المختلفة

نضال القاضي

لا تبدو جملة مكتوبة، من كلمات وحسب، فثمة تخصيب في أرحام، وسَبْرٌ لإرجاءات طويلة تمسُّ الذاكرة قبل أنْ تتلمّسَ النُظُم التي أنتجت اختلافها وشكّلت منذ أكثر من نصف قرن العتبة الأولى للتمرّد على رواسخ قارّة فرضتْ أنساقها اللغوية وعكست على المستوى التاريخي أشكالا بطرياركيّة انتظم فيها العالم كوحدة من وحداتها سياسيا واجتماعيا وروحيا.

فهل شكّل هدمُها نسقاً بديلا في ضوء موجّهات الخطاب الجديد؟ وريثما تتشبّع الأشياء بذواتها فيتحرّك النصّ في منطقة خارج حدود الذات المتعالية وتمثيلها المعرفي!،.. فيميت ويحيي ويعيد الى النشأة الأولى منفتحا على سواها!.. وبعمق يأخذ مداهُ تحت النظر أو غير منظور وطفولتهُ مغطاةٌ بسقوف مركّبة تتعذّرُ معها استقامة الإضاءة فلا يُكشَفُ عن دواخلها وهي تتموضع زمنيّا وفي فضاءات متباينة بحسب ديفيد لوج – الفنّ الروائي.

فهل للعمق شكل؟!.. بعدُ، إذ لم يعد الشكل طلاءً على سطوح ملس، بل هو لا شكل له! وبإزاء امتدادات للغوص في المضامين وقصديّة في التلقّي مع قارىء نخبوي، قاريء متناصّ "متفاعل يستحضر حصيلة مقروءاتهِ ومسموعاتهِ فيقارن ويحلّل ويستنتج ويتناصّ مع ما يقرأ" بحسب ماأوردهُ د.سعيد يقطين في مقاله الموسوم (القراءة المتفاعلة)، ما يوفّرُ حتما الفرصة لاستثمار الإلتقاء على مساحة من زمان ومكانه، راهن وماضيه، ما عادَ أيّ منَها مؤسِّسا بقدر ما هو عتبة لتأويل مُعارض أو متقاطع مع بنىً متضخّمة غير مبرّرة، غير مُجْدية، وقد نفدتْ صلاحيّتها في ظلّ تلاحُق أحداث ومُجريات بسُرَع فائقة حققتها ثورة المعلومات ووسائل الإنتشار الواسعة والمتقدّمة، والتي في المقابل وكتحصيل حاصل سلْبا وإيجابا، أنضجت حركةَ الدلالات داخل النصّ مقرونةً بقراءة إطاحة وتقويض ومتشكّلةٌ ذاكرتُها جنبا الى جنب مع تدفّق الدلالات ذاتها، وبحسب القوانين الطبيعية للاستمرار، فلا هما يبتدئان معا ولا هما منتهيان بانتهاء النصّ.

هذه الآليّة تصفها المنهجيّات الحديثة بأنها (التناقضات الداخلية وتحذر من تبسيطها واختزالها) كما ورد وصفها درفي الكتاب القيّم "دريدا.. ما الآن؟ ماذا عن غد؟" للدكتور محمد شوقي الزين، ليكون الصراع وتحوّلاتُهُ الخيارَ الذي يُقرِنُ الحياة بالتواتر والتغاير دامغا المفاهيم والعلاقات بخصائصهِ فجاءت الأسطورة

في وقتها كوعي مقابل بالضرورة، ليس إلى نوع القربان المنذور، بل إلى جدليّة الرفض والقبول التي غذّتْ الصراع وخلُصَتْ إلى أثر حقّق له زمانُهُ آنذاك كينونتَهُ وهويّتهُ، حينَ انتزعهُ كعلامة من حقلٍ بِكْرٍ شديد الحرْث.. وحوّلها.

الكتابة المختلفة إذن قراءتُها رأساً على عقب! وبقدر ما ينطوي عليه عنصر الإختلاف، كأحد أبرز توظيفات المناهج الحديثة، من إزاحة، واختراق للعلامة، وتوليد للأثر، وتأجيل للمعنى ليكون الهدف في ستراتيجية التحرّر والإنفلات من الخوانق الهرميّة التي تميّز التراثَ الفلسفي عموما منذ افلاطون وحتى دي سوسير، شغبا يخلخلُ القارّات ويتعاطى التاريخ في جرعات بصلاحيات مؤقتة تمنح اللامركزية امتياز تواصل، ولا قصديّة تشتقُّ قصدها حتى يتشبّع الموقف باتساع شاسع من الدلالات ينفي وقوعَ الشيء على صورته بل على صورة النصّ وقوع خالق بلا أبعاد.. آهل بغبار هَدْم بعيد.. آلافٌ الآلاف من سنوات إنسانٍ ومِحنته.

(أبو يعگوب) ينزل من قطار الشوگ

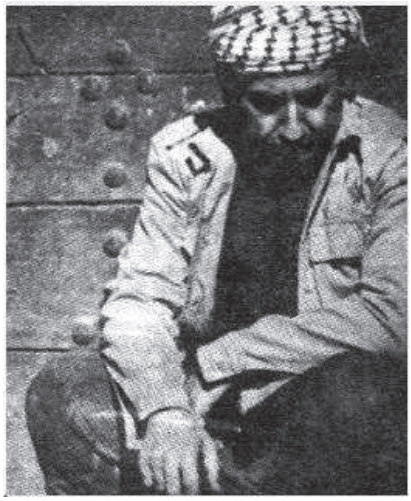

شيّعت بغداد صباح الجمعة 14 تشرين الأول 2016، الكاتب والفنان الكبير يوسف العاني، وقد قال الناقد فاضل ثامر إنّ هذا التشييع يذكره بشكله وضخامته وفخامته ونوعيته بتشييع الفنان جواد سليم بينما ذكر الفنان مقداد عبد الرضا أن التشييع الكبير المهيب هو الثالث من نوعه بعد تشييع الفنان جواد سليم والفنان ناظم الغزالي.

أما الصحفية سلوى زكو فقد أحالت حجم التشييع إلى التظاهرات المدنية والاحتجاجات الشعبية، اذ قالت: .. ولأن هناك من يصر على أننا شعب من المكونات أقول له ولغيره ان (المكون) المدني أخذ يفرض حضوره في المشهد. لولا ذلك ما الذي دفع بدولة غارقة حتى رأسها او رؤوسها في المناسبات الدينية ان تحتفي برحيل فنان حتى وان كان بحجم يوسف العاني؟ لولا ذلك لرحل يوسف العاني كما رحل غيره من رموز الثقافة العراقية ببضع عشرات من المشيعين من أهله وأصدقائه ومحبيه.

هكذا رحل خليل شوقي ومحمد غني حكمت وقاسم محمد وجعفر السعدي وبهنام أبو الصوف ومحمد جواد أموري وعوني كرومي وطالب القرغولي وغيرهم. ويسألونك ما جدوى التظاهر.

فيما نعاه الحزب الشيوعي العراقي بما يأتي: (كان الفقيد رائدا مؤسسا للمسرح والسينما العراقيين، ومبدعا بارزا في ميادينهما وفي التلفزيون من بعد: ممثلا وكاتبا وناقدا، ومنظما ومديرا. وكان في عموم نشاطه الإبداعي، إنسانا حقيقيا منحازا أبدا إلى العراقيين البسطاء الطيبين، حريصا على التعبير بأمانة عن واقع الكادحين والمسحوقين في المجتمع، وعن

همومهم وأمانيهم، وعلى تجسيد الاهتمامات والتوجهات النبيلة للحركة الوطنية العراقية، ونضالها المتفاني، لا سيما في المرحلة التي سبقت ثورة 14 تموز 1958.

وانغمر فناننا الراحل عبر عمله الإبداعي ومجمل نشاطه الثقافي، في جهد تنويري وتثقيفي للجماهير الواسعة، أسهم بنصيب كبير في الارتقاء بوعيها وإنماء وإذكاء روحها الوطنية وتعزيز نزعتها التقدمية.

وبفضل انجازه الفريد وعطائه الغزير في ميادين الإبداع والثقافة والعمل الوطني، على امتداد ستة عقود من السنين ونيف، حقق يوسف العاني حضوره الفني المتميز عراقيا وعربيا، وغدا عن حق شخصية ثقافية وطنية، واستحق اللقب الذي أطلقه عليه الناس : "فنان الشعب".

لقد فقدنا برحيله، أسوة بأوساط فنانينا ومثقفينا وجماهير شعبنا الواسعة، رمزا منيرا من رموز ثقافتنا الوطنية(.

وفضلا عن ريادته في تأسيس فرقة مسرح الفن الحديث وكذلك مشاركته في تأسيس اتحاد أدباء العراق عام 1959 مع الجواهري الكبير ورهطه المجيد، فإنه من مؤسسي مجلتنا "الثقافة الجديدة" عام 1953 مع الرائدين د.صلاح خالص ود.صفاء الحافظ والعروة الأولى.

لقد رحل عبود، ولكن غناءه لم يزل ويبقى..

"الثقافة الجديدة"

مسرحيات يوسف العاني بين الرمز والموروث الشعبي

صباح هرمز

مواليد عام 1948 في كركوك . خريج دار المعلمين الابتدائية – أربيل . عمل في السبعينات مراسلا صحفيا لجريدتي "الفكر الجديد" و"طريق الشعب" . عمل محررا في جرائد "طريق كردستان" و"الاتحاد" و"بهرا" ومجلة "بانيبال" .
صدر له : التقليدي واللا تقليدي في المسرح الكردي عام 1993 ، في السويد ، مدخل الى المسرح السرياني في العراق . 2001 ، ثلاثة عقود في المسرح الكردي 1970 - 2000 في 2003 ، قراءة أخرى في المسرح السرياني في العراق ـ 2003 ، قراءات في المسرح المعاصر . سبعة مؤلفين أنموذجا . 2014 (الجزء الأول) .
له تحت الطبع : الجزء الثاني ـ قراءات في المسرح المعاصر . مقارنة بين أبسن وسترندبرغ .
عضو نقابة الصحفيين في كردستان . عضو نقابة الفنانين في كردستان . عضو اتحاد الأدباء والكتاب في العراق .
رئيس مركز حدياب الثقافي (عنكاوا) في دورته الأنتخابية الأولى بعد أنتفاضة آذار 1991 الشعبية .

1 - المفتاح:

كتب يوسف العاني مسرحية (المفتاح) أواخر عام 1967 وانتهى من كتابتها بداية 1968، وهو بهذا يكون قد أنجزها في غضون ثلاثة أشهر، وهي فترة قصيرة قياسا بانجاز أي عمل أو نص إبداعي آخر، وتتوزع على فصلين، جاء الفصل الأول منها تحت عنوان (السفر) والفصل الثاني تحت عنوان (الرجوع)، ويضم الفصل الأول ما عدا المقدمة ثمانية مناظر، والفصل الثاني خمسة مناظر ماعدا المقدمة، وهي بهذا التوزيع تضم مقدمتين وثلاثة عشر منظرا، والمقدمتان مكرستان لترديد أغاني الحكاية الشعبية الموظفة في النص. وتتكون من عشرين شخصية، وتعتمد ثيمتها على قصة المفتاح الرامز إلى الوهم أو الحلم عبر ترديد الحدوتة الشعبية لهذه الحكاية غير المألوفة على امتداد المسرحية من بدايتها إلى نهايتها التي مؤداها، أن "حيرة" زوجة "حيران" ترغب أن تنجب طفلا، بينما زوجها لا يرغب ذلك، بدعوى أنه يريد ضمانات ليعيش برغد وبالمقابل، فان نوار وهو شقيق حيران الأصغر والذي غالبا ما يوصف من قبل حيرة وحيران بالمتفلسف، يرى أن الضمانات لا تتوفر إلا حين يصبح العالم، عالم خير ومحبة، وما أن تقع هذه الكلمات في أسماع حيرة حتى يدب اليأس في نفسها، وتبدأ بالعويل والبكاء، ولكن هذا اليأس سرعان ما يتحول إلى أمل وتفاؤل، عندما تنظر إلى المهد الصغير الرابض وسط المسرح لتقترب منه وتشرع بتحريكه، وهي تردد مع نفسها بصوت خافت أول الأمر، ثم يعلو شيئا فشيئا:

يا خشيبة نودي نودي
ودیني على جدودي

وما أن تلفظ الجملة الأخيرة، تحديدا مفردة (جدودي) حتى تنادي زوجها، كما لو كانت قد وجدت الحل لمعضلتها التي تعاني منها وهي عدم الإنجاب، لتتفق مع زوجها وشقيقه نوار الذهاب إلى أجدادهم لطلب المساعدة منهم بهذا الشأن.

ابتداء من المنظر الأول للجزء الأول للمسرحية المرسوم على طريق طويل بيضوي الشكل، يوحي المؤلف إلى أن الطريق الذي تسلكه الشخصيات الثلاث لا نهاية له، وبالتالي لا جدوى منه ولا نفع فيه، معبرا عنه بهذه الصيغة: (يبدأ من وسط المسرح وينتهي كذلك إلى الوسط وكأنه لا يؤدي الى نهاية)، إلا أن أضافته الثانية بخصوص هذا المعنى تتعزز أكثر وهو يفرغ المهد الصغير من الطفل، هكذا: حيرة وحيران يجلسان قرب المهد الصغير الخالي من الطفل.

إن أحداث حكاية المفتاح يغنيها الأطفال في (المقدمة) من بدايتها الى نهايتها، وبينما الأجزاء الأخرى، شروعا من المنظر الأول للفصل الأول الى المنظر الثامن للفصل نفسه، تأتي أحداث الحكاية مغناة على لسان الشخصيات بقدر ما يتطلبه الحدث، أي إذا كانت الأغنية في المقدمة تبدأ من: (يا خشيبة نودي..نودي .. وديني على جدودي) وتستمر الى نهاية الحكاية حيث: والثور يريد حشيش والحشيش بالبستان والبستان يريد مطر والمطر عند الله ... فان المنظر الأول يأتي الى نهايته في جملة: وديني على جدودي وجدودي بطارف عكا، والمنظر الثاني في جملة: يعطوني ثوب وكعكة، والمنظر الثالث في: صندوكي يريد المفتاح والمفتاح عند الحداد، والرابع: الحداد يريد فلوس والفلوس عند العروس، والخامس: العروس بالحمام والحمام يريد القنديل، والسادس: البير يريد الحبل والحبل بقرون الثور، والسابع :الثور يريد الحشيش والحشيش بالبستان.

ومثلما ارتأى المؤلف أن يبدأ الجزء الأول كمقدمة بأغنية للحكاية الشعبية المعروفة في قصة المفتاح، كذلك فقد اتبع نفس المنحى في بداية الفصل الثاني بمجموعة من الأغاني الشعبية التي تعبر عن الحب والخير والأمل، وهو بهذا ينتهج اسلوب التقابل بين مناظر فصليه الأول والثاني، ليصبح المنظر السابع للفصل الأول مقابلا المنظر الأول للفصل الثاني، وهو منظر الراعي والحشيش، والمنظر السادس للفصل الأول مقابلا المنظر الثاني للفصل الثاني وهو منظر البئر، والمنظر الخامس للفصل الأول مقابلا المنظر الثالث للفصل الثاني وهو منظر العروسة، والمنظر الرابع للفصل الاول مقابلا المنظر الرابع للفصل الثاني وهو منظر الحداد، ومنظر الفصل الثالث للفصل الأول مقابلا المنظر الخامس للفصل الثاني وهو منظر العودة الى البيت، والمنظر الثاني والأول والثامن من الفصل الأول بدون مقابل لمناظر الفصل الثاني.

وإذا كانت الأغنية المكرسة في مقدمة الجزء الأول (السفر) قد استمدت من قصة المفتاح الدائرة حول مشكلة حيرة بعدم إنجابها او عدم قناعة زوجها حيران بالتعويل على الحكاية الشعبية التي لا نهاية لها وتنتقل من شخص وحدث الى شخص وحدث آخر والمعروفة بالمفتاح، فان أغنية مقدمة الجزء الثاني (الرجوع) هي إجابة على أغنية الجزء الأول، بجني ما تم زرعه في المحطات التي توقفت عندها الشخصيات الثلاث.

شأنه شأن توفيق الحكيم، يثور يوسف

العاني في هذه المسرحية على الأساليب التقليدية التي اتبعها في مسرحياته السابقة، وذلك من خلال اختراقه للجدار الرابع، عبر مخاطبة الراوي للمشاهدين والتزاوج بين الموروث الشعبي الخاوي وغير الملآن وبين الفكر المعاصر الذي ينحى نفس المنحى، الأول بالتعويل على ما تقوله الحكاية (الوهم) وهو الشكل، والثاني سعيا في انجاز ما هو غير ممكن انجازه (إنجاب الطفل بدون ضمانات = تحقيق مصير الشعوب) وهو المضمون، وبهذا التزاوج بين الشكل والمضمون، يسير العاني على خطى الحكيم في مسرحية (يا طالع الشجرة) في توظيف أساليب مسرح اللامعقول.

يزخر هذا النص بالرموز، ويشتغل المؤلف بهذا المعنى على صعيد كل المستويات، ابتداء من الأغنية الشعبية .. يا خشيبة نودي .. مرورا بالشخصيات، وانتهاء بالحدث. فإذا كانت الأغنية ترمز الى الوهم شأنها شأن الأغنية الموظفة في (يا طالع الشجرة)، إلا أنها تختلف معها في عدم بنائها على أنانية الفرد، وإنما على مصلحة الجميع، أي أنها لا تفضي الى العبثية كما في (يا طالع الشجرة)، وإنما الى نتيجة مثمرة، تتسم بقدر بصيص من أمل، وهي بذلك تكاد في معالجتها هذه أن تكون أقرب الى معالجات أساليب المسرح الواقعي منه الى أسلوب مسرح اللامعقول، وحيرة تباغت حيران الى أنها قد أحست بأن الطفل يتحرك في بطنها، عندما كانت في البستان، ويحث نوار حيران وحيرة على الركض، ويتركا الحكاية ليحصلا على المفتاح الحقيقي.

والمفتاح الحقيقي هو ما تم سلبه واستعادته عن طريق العمل، والعمل هنا المقصود منه النضال بشكل جماعي وليس فرديا، ذلك أن المجرمين استغلوا الزوبعة كما يقول الراعي في إشارة واضحة الى استغلال العدو للخلافات القائمة بين الدول العربية وعدم مشاركتها ما عدا دولتين او ثلاث منها في حرب حزيران عام 1967، مما أدى الى تحطيم حائط البستان وسياجه، ونهب كل ما فيه في إيماءة جلية أخرى الى دخول العدو الأراضي الفلسطينية واحتلال قسم منها.

ووسط هذا العدوان وإصرار الراعي على عدم ترك أرضه، تحس حيرة بتحرك الطفل في بطنها..

حيرة: وماذا ستفعل بعد كل هذا؟

الراعي: أعيد كل ما أخذ مني.

حيران: تعيدها؟

الراعي: طبعا، لا بد أن أعيد حقي مادام الدم يجري في عروقي، وما دمت أتنفس الهواء والحياة... سأعيد حقي...

مانحا الراعي لحيرة عبر جملتيه (مادام الدم يجري في عروقي) و(سأعيد حقي) بصيصا من الأمل لإنجاب الطفل، مقرونة الجملة الأولى بالعامل الفسيولوجي والجملة الثانية بعامل إرادة وقوة وإيمان الإنسان .

ترمز الأجداد السبعة الى التاريخ، ونوار الى الجيل الواعي الجديد، وحيران وحيرة الى القلق وعدم الاستقرار، والحداد الى الطبقة العاملة، والراعي الى الفلاحين، والبئر الى الشعب، والبستان والغيمة الى الخير، ووصيفة العروسة الى السلطة، أما الحدث أو حبكة النص فيرمز الى الثورة والتجديد وحق الشعوب في تقرير مصيرها.

على الرغم من أن العاني يعول على أغان شعبية أخرى الى جانب أغنية (يا خشيبة نودي.. نودي.. وديني على جدودي) كأغنية (يا ربي مطرها على عناد العلوجي...) وأغنية (مطر مطر عاصي) إلا

أن منحه رقعة أوسع لـ (ياخشيبة نودي ... نودي) التي تتكرر أكثر من عشر مرات، جعلها أن تطفو على سطح الأحداث وبالتالي أن تغدو إيقاعا للنص.

وهذا التكرار لم يأت بشكل اعتباطي، وأقترن بثيمة النص الذي مؤداه عدم الالتفات الى الخلف، والسير الى الأمام بسرعة، وثمة أكثر من جملة وعبارة توحي الى هذا المعنى، أو الى قطع الصلة بين الماضي والحاضر، أو عدم اهتمام الجيل الجديد بالماضي وبالعكس، خاصة وأن الأجداد هم الذين يوجهون حيرة وحيران ونوار الى الطريق غير الصحيح، أو غير المثمر، وذلك من خلال تقديمهم مساعدة لا تلائم مع التطور الحاصل أواخر القرن العشرين، وهو اعطاؤهم ثوبا وكعكة، لأن الحكاية تقول ذلك، على أن يحتفظوا بهما بعد أن يغلقون الصندوق وأن لا يفتحوه إلا إذا رزقوا بطفل.

وتتضح هذه القطيعة في أول لقاء بين الجيلين، وحيران يقول: لا أعرف غير جدي، والد أبي أعرفه من الصورة المعلقة في بيتنا، موحية هذه الجملة بعدم قراءة هذا الجيل للتأريخ، كما وأن إصابة حيرة وحيران بالذعر لسماع أصوات أجدادهم، تومىء الى عدم انجذاب حيرة وحيران الى أجدادهم وبالتالي تعلقهم بهم، كما ان عدم رد الأجداد على ترحيب الأحفاد، لكون آذانهم ثقيلة، تشير الى عدم ايلاء الأجداد بالأحفاد العناية والاهتمام اللازمين.. أما ارتجاف حيران من البرد فهو نتيجة خوفه منهم، أي من أجداده، وتسمية الأجداد حيرة بالحرمة، وجرأتها بالكلام أمام زوجها، حيال تسميتها من قبل حيران بـ الزوجة، واستغرابه على عدم كلامها في حضوره، تدل على وجود حاجز كبير بين جيل الأجداد وجيل الأحفاد، وهذا الحاجز يزداد كلما تقدمت حواراتهما بخطوة الى الأمام، وصولا الى توضيح الثلاثة انجازات وإخفاقات هذا العصر، متمثلا الأول في تطور المرأة من خلال دخولها المدارس لتصبح معلمة ومدرسة ونائبة في البرلمان ورائدة في الفضاء، والثاني بالظلم الذي لحق بالشعب العربي من خلال طرده من أراضيه وظهور هولاكو جديد يريد سحق البشرية وتدمير العالم، وإرعاب جيفارا لأنظمة قارتين كاملتين، ليصير رمزا للشمس، ونساء فيتنام يحرثن الأرض ويحصدن الزرع ويحملن البندقية باليد الأخرى: وبهذا الخصوص، خصوص الحيلة الفنية التي يشتغل عليها المؤلف في توظيف الرموز للقطيعة القائمة بين الجيلين، يتبع نفس المنحى في تصديه لمعاناة الشعوب، فهو في الوقت الذي يأتي فيه على ذكر كل الشعوب كالشعب العربي والشعب الفيتنامي يذيل حاشيات صفحات النص بملاحظات تخص الشعب العربي، وهذا يعني أنه يقصد هذا الشعب، مع اعطاء حرية التصرف في تفسير النص للمتلقي بشكل أعم وأوسع خارج الإطار المحلي الى العالمي.

وأشار في مكانين ولربما اكثر الى هذه الهوامش، وهذان المكانان جاءا في الصفحة (321).. هكذا..

في النص أشارات ولفتات ينبغي ان تفهم على ضوء تاريخ تأليف المسرحية وهو 3 /10 /1967 - 19 /1 /1968 والصفحة (335)... هكذا.. حين تقدم المسرحية في الوقت الحاضر لابد من إضافة نماذج من بطولات شعبنا العربي والشعوب الأخرى. لطالما لم يتجاوز النص المسرحي حدود القراءة، سيبقى مرهونا ضمن إطاره الأدبي، ولا يأخذ موقعه الفني إلا اذا

عرض على خشبة المسرح، فإذا عرفنا هذه الحقيقة، والحال هذا فلا تبقى قيمة تذكر لتذييلات المؤلف في هوامش النص، لقطع صلتها بمتلقي العرض، ما يعني أن المؤلف بالرغم من أنه يأتي على ذكر الشعوب المضطهدة، فانه لا يشتغل عليها بشكل مباشر وإنما عن طريق الرمز، ولكنه في معالجته لها يطرق باب المباشرة، وتأتي هذه الازدواجية بفعل ما تمخض عن تزاوج المضمون والشكل اللا واقعيين الى معالجة تقليدية تنتمي الى المسرح الواقعي، وليس الى مسرح اللامعقول .

صحيح أن المؤلف يذهب بالحكاية الى طريق مسدود لخلو الصندوق من الكعكة والثوب طبقا للتزاوج بين الموروث الشعبي للحكاية المتسمة بالعبثية وبين الفكر المعاصر الذي يسير بنفس الاتجاه، ولكن تعزيز هذه المعالجة بمعالجة اخرى تتسم بقدر من الأمل، وهي حركة الطفل في أحشاء حيرة، أضعفت توازن تقنية النص على حساب المضمون، على الرغم من ان هذه المعالجة جاءت من داخل بنية الحدث (الحكاية الشعبية) وليس من خارجه، وذلك بعد أن يصيب الهلاك والدمار البستان ويهطل المطر.

حيرة: أردت أن أقول لك، لكن المطر هطل، فأخذتني الفرحة، وقلت لن أكشف السر إلا حينما نقفل الصندوق...

أقول أضعفت توازن تقنية النص على حساب المضمون، لأن المعالجة الأولى أكثر اتساقا وانسجاما مع شكل ومضمون النص، وبالتالي مسوغاتها أكثر أقناعا، بينما المعالجة الثانية تبدو أقرب الى تحقيق الأمنيات، بإنجاب الطفل، منها الى عبثية إنجابه.

وان لم يخل الجزء الأول من النص من الرموز، إلا أن الجزء الثاني منه يفيض بشكل متميز، ولو تابعنا حوار هذا الجزء، ابتداء من جملة (أستغليتم الزوبعة) الموحية الى استغلال العدو للخلافات القائمة بين الدول العربية، لوجدنا العديد من الحوار الدائر في هذا الإطار كالجملة التي يطلقها الراعي وهو يقول: الثيران راحت لكنها لم تهرب، مستخدما المؤلف كلمة الثيران القريبة من كلمة الثوار، وهي المعنى المقصود منه، ذلك أن الثيران لم تهرب بل كانت تدور وتدور لتوصل الماء للزرع وللناس. أي أنها كانت تحارب الأعداء، دون أن تدري أن الناعور كان يدور ولا قطرة ماء كانت في الساقية. وكانت تحارب بسلاح قديم بدون دعم وبخيانة من الدول العربية مع مؤامرات القادة العسكريين وتوحي جملة: (ألم يسقط المطر عندكم؟) الى ما معناه: (ألم يصلكم الدعم؟)، ويرد الراعي على نوار: سقط بعد فوات الأوان ... بلل السطح وجرف التراب ورماه في البحر.. أي أن الدعم وصل متأخرا ولم يجد نفعا.

وإذا كانت كلمة (الثيران) في الجملة الأولى التي يطلقها نوار تومىء الى الثوار، فإنها في الجملة الثانية التي يطلقها نوار أيضا، والثيران التي كانت عندك بأماكن آمنة لم يبق منها أثر، توحي الى الأرض التي استلبها العدو، والراعي يرد عليه: نعم نهبوها، عصابة سوداء جاءت بالعشرات، وبالمئات جاءوا مع الزوبعة واتخذوا منها شرا لهم..

وجملة: كان هذا حبل آخر ثور أخذوه مني.. مسكت به، لكن الحبل انقطع، تشير الى بصيص أمل، الى جانب العديد من الجمل الأخرى التي تعبر عن هذا المعنى وبطريق الرمز.. فضلا عن اشتغال العاني على تقنية التزاوج بين الفكر المعاصر والموروث

الشعبي، فقد حذا حذو بريشت في طريقة استخدام الحكاية الشعبية وتحفيز طاقة الشعر الشعبي واختراق الجدار الرابع .
فإذا كان في الأول يبحث عن الخلاص في التأريخ الشعبي من خلال يأس حيرة وحيران في ديمومة حياتهما بدون طفل الرامز الى التجديد والعطاء ، فأنه في الثاني يشتغل على العقل الجمعي، أي على الشعر الشعبي المعروف معناه لدى المتلقي كالأغنية الشعبية: يا خشيبة نودي نودي .. ودِيني على جدودي، وأغنية: ما جينا ... ياما جينا ... حلي الفلوس وانطينا.... والثالث في كسر الوهم المسرحي لمشاركة المتلقي في الحدث وجعله مراقبا له.
وإذا ما راجعنا مسرحيات بريشت ابتداء من (بونتيلا وتابعه ماتي) ومرورا بـ (دائرة الطباشير القوقازية) وانتهاء بـ (امرأة سوزان الطيبة) لوجدنا أن موضوعات هذه المسرحيات يستمدها عن الموروث الشعبي، الأولى عن مغامرات الملاحم الشعبية القديمة وملاعيبها، والثانية أسطورة النبي سليمان والثالثة عن الأساطير الصينية.
وكذا الحال بالنسبة لطاقة الشعر الشعبي فقد استخدمها في بداية ونهاية مسرحية (أوبرا القروش الثلاثة) وفي (بونتيلا) تبدأ بالحكاية وتنتهي بالأغنية، والأم الشجاعة وأولادها الثلاثة تنتهي بالأغنية. بينما مسرحيتنا هذه تبدأ بحكاية وأغنية بعكس (الخرابة) التي تبدأ بالحكاية وتنتهي بالأغنية.

2 - الخرابة:

كتب العاني مسرحية (الخرابة) بعد مسرحية المفتاح بثلاث سنوات عام 1970، وتتكون من ثلاثين شخصية تقريبا، ويقوم أكثر من ممثل بأداء شخصياتها بالانتقال من دور الى آخر كالأول الذي يقوم فضلا عن أداء دوره أداء شخصية نجم البقال وشخصية الممثل، كما أن الثاني يقوم بأداء دور لعيبي ويقدم شخصيات الشعراء، أما الثالث فيقوم بأداء دور حساني، وتقوم غنية بدور الشخص الرابع، وسكينة بدور الفدائية الأولى.
ويعلن المؤلف ابتداء من الصفحة الأولى المكرسة لأداء دور الشخصيات ، انتماء مسرحيته هذه الى المسرح الوثائقي لاعتمادها على الوثائق والصور والنشرات وكل ما يشير الى جرائم الاستعمار والامبريالية في إيصال فحواها الى المتلقي، ولا يكتفي بهذا القدر وإنما يذهب أكثر من ذلك عندما يقوم بتوضيح ملامح شخصيات المسرحية طبقا للرموز التي تمثلها، لترمز شخصيتي الواحد والواحدة إلى الجانب المظلم والمسيْء في عالمنا، والأول والثاني والثالث الى جانب الخير منه، والفلاح وزوجته سكينة وغنية الخادمة والحاج نجم البقال والممثل ولعيبي وحساني الى الطبقة الكادحة والمظلومة، وعودة والسركال والمحامية والدمى الثلاث الى الانتهازية، وكلكامش وانكيدو وعشتروت وايشلينو الى التأريخ.
يبدأ العرض من لحظة دخول المتلقي عتبة باب بناية المسرح لمواجهته معرضا للصور الفوتوغرافية وملصقات جدارية تعكس مأساة شعب فلسطين، وتشير الى جرائم الامبريالية، ويفضل المؤلف أن تمتد هذه المعروضات الى داخل الصالة وتقديم معروضات أخرى على شكل سلايدات أو أفلام تعكس مستوى المعرض ذاته وتعبر عما سيدور في المسرح من أحداث أو عما سيجسده العمل المسرحي.
إذن نحن هنا أزاء مسرح سياسي، يعمل

على تفعيل فكر المشاهد، ومراقبة الأشياء التي يشاهدها على خشبة المسرح، وتحريضه على تغييرها، وذلك بإضافة عناصر بصرية أخرى الى النص المسرحي، كالصور والنشرات وسلايدات العرض، جاعلا من المسرح الشامل أو ما يسمى المسرح التسجيلي المقترن باسم بيتر فايس نهجا لمسرحيته هذه.

تبدأ المسرحية على لسان الواحد الرامز الى الشر، وهو جالس بين المشاهدين وينهض ويقف في مقدمة المسرح، ويبدو في حديثه صادقا في أول الأمر، كاشفا عن ضياع القيم وانقلاب الموازين واختلال المقاييس في الخرابة.

الواحد: الكلام الذي أزعجك وأنا آسف كلام ليس من عندي..

الواحدة: من من؟

الواحد: من المسرحية مسرحية الخرابة..

ان المؤلف لإشاعة عنصر التغريب البريشتي من خلال إزاحة الجدار الرابع وجعل الممثل بين المشاهدين، يعمد الى إظهار الأزدواجية في موقف الشخصيات، كشخصية الواحد الذي يمنح في البداية انطباعا ايجابيا ثم يتحول الى شخصية سلبية، موحيا بذلك الى التناقض القائم في مواقف الدول العربية تجاه فلسطين بين المعلن منها والمخفي، الإعلامي والتطبيقي، ممتدا إشاعة هذا العنصر استخدام قصائد لشعراء عالميين وعرب وعراقيين وكورد أمثال بابلو نيرودا وبوشكين ومحمود درويش ومظفر النواب وعبد الله كوران، فضلا عن استخدام الكوميديا والجوقة باعتبارهما الى جانب القصائد عناصر أساسية في المسرح الملحمي.

تجري أحداث الجزء الأول والثاني من المسرحية في نفس المكان وهو شبه مقهى، حيث يقف الأول قرب الموقد يسكب الشاي، ينظر إليه فيراه ماء بلا لون ليخرج بنتيجة من عدم تغير لون الماء مؤداها وجود أمر غير طبيعي، وهو مشاهدة الثاني لمجموعة من الناس يقفون قرب شاب يتهامسون ويسألونه: متى تفرجنا وتضحكنا على الخرابة ومن فيها. وشاهدهم يشترون التذاكر وبيدهم دفاتر صغيرة مكتوب عليها: الخرابة.

لهذا حين سمع أن البعض منهم يريد أن يتفرج عليهم بسوء نية أحس أن قدميه قد ثقلتا وأن الأرض التي يقف عليها تمسك به ولا تدعه يتحرك، ولكن بالرغم من ذلك يعتقد أن هذا البعض لا يقترب من الخرابة ويبتعد عنها، ذلك لأنها تدعك ملابسه وتوسخ أحذيته وتعكر مظهره.

وهي مثل المفتاح تفيض بالرموز القابلة للتأويل، فالجملة الأخيرة التي يطلقها الثاني لا ينحصر معناها في إطار الطبقة الرأسمالية التي تأبى أن تحتك بالناس الفقراء القاطنين في الخرابة فحسب، بل تتعداها في قابلية تأويلها الى رفض الدول العربية باتخاذ موقف ما أزاء العدو الإسرائيلي خوفا من ضرب مصالحها أو بدخولها في حرب طاحنة لا تحمد عقباها، وقول الأول وتكراره ثلاث مرات لجملة لا أحد يستطيع الوصول الينا. ليس هناك ثقب في الجدار، فتحة في السقف، شقوق في الأرض والباب مغلق، لا توجد سماية. فهي في الوقت الذي توحي فيه الى اتحاد كلمة الثلاثة: الأول والثاني والثالث الذين يمثلون جانب الخير في المسرحية، لعدم وجود جواسيس بينهم يقومون بإفشاء سرهم الى العدو، توحي الى طردهم من ديارهم وإيوائهم في أماكن أخرى أقرب الى المعتقلات والسجون وحظائر الحيوانات

منها الى دور سكن البشر، لأفتقارها الى دخول الشمس وإحكام أبوابها عليهم وعدم رؤيتهم للسماء، أما رفع الجدار الرابع فيرمز الى اغتصاب الأرض وطرد السكان الأصليين منها، راسما المؤلف هذه اللوحة عبر ملاحقة الأطفال لحساني وهم يرددون: صفقوا له يرقص الحائط الرابع ينقص، صائحا الثالث: الحائط الرابع مرفوع لقد أزالوه، الأصوات اللعينة سوف تلاحق حساني من هنا من هذا المنفذ، أي ان العدو سيستمر في عدوانه بعزم وإصرار لا يلينان.

وفي هذه الأثناء يتقدم الثاني كما تقدم الثالث الى الحائط الرابع وحين تخرج يده من حدود وجوده يتعالى صوت أغنية وهي مقطع من منولوج هذا نصه:

بالفتنة والغش والدس

كثيرا سمعنا كلمة يس

ثخنتوها كافي عاد

نو نو لهنا وبس

ففي هذه الأغنية الكوميدية يكمن فهم العاني لمسرح بريشت، ذلك أن مسرحه الديالكتيكي مبني على صراع الأضداد، هذا الصراع القائم بين نقيضين يولدان نقيضا جديدا، متمثلا هذا النقيض بتبريد الحدث بدلا من تثويره، إنشاء لعملية التغريب عبر المفارقة والشيء غير المتوقع، لأنه في مسرحه هذا يدعو الجمهور الى التفكير والمراقبة، أو بمعنى أوضح، ان المشهد الانفعالي والعاطفي لا يكسبان ويأتيان بمثلهما، بنفس الانفعالات والعواطف بل بما يناقضها بعكس المسرح التقليدي تماما، فالمشهد الحزين مثلا لا يعبر عنه بموسيقى حزينة وإنما بموسيقى مفرحة، والعكس صحيح أيضا، وهذا ما فعله العاني في معالجته لإزالة الجدار الرابع، فبدلا من اتخاذ الثلاثة موقفا أزاء إزاحة الجدار الرابع كتحريض الناس على التظاهر أو الإضراب تلجأ الى ترديد أغنية كوميدية.

والحوار الجاري بين الثالث والواحد حول سعي اتهام الثالث بالاعتداء على غنيمة، يمنح نفس المعالجة بصراخه في البداية بوجه الواحد قائلا: لا، لتتعالى أصوات الصبية والناس يرددون: صفقوا له ليرقص، وبعد فترة قصيرة يعود الواحد إلى استجوابه، فإذا بالثالث يتراجع عن موقفه الأول ناقضا إياه..

الواحد: أجبني نعم ام لا

الثالث: بكل هدوء لا

الواحد: استراحة

ويمكن ملاحظة مثل هذه المواقف في أماكن عديدة من المسرحية. ولكن هذا لا يعني أن كل هذه المواقف تفضي الى التغريب، اذ غالبا ما تؤدي الى الكوميديا السوداء التي تكاد أن تقترب من خاصية التغريب المختلفة عنها بترك غصة في حلق المشاهد والناجمة عن معالجة الموقف أو الحالة بدون ايجاد حل أو بديل له يسعى الى تحريره من ميلودراميته، ذلك أن عملية التغريب تقترن بالعقل بينما الكوميديا السوداء بالعاطفة.

ولعل كون الجنون عملا يمتهنه الإنسان، يعد بحد ذاته أمرا غريبا، واختار حساني هذه المهنة لنفسه لأن جماعة الواحد لم يفسحوا له مجال العمل، والعمل هنا المقصود النضال، مع أنه أعقل منهم بدليل أنهم لا يفهمون كلامه بينما هو يفهم ما يقولون، ويذكر للواحد خمسة نماذج من الكلام الذي لا هو ولا جماعته يفهمها متمثلة بالبطيخ والنحل وناظم باشا والسمنت والمكاري، مختصرا هذه النماذج بجملة: كل شيء ملتوي ومقلوب.

وغالبا ما تأتي هذه المفارقات على لسان

الثالث، كقوله في الحوار الجاري مع غنية وهو يحلم بامتلاك عربة وحمام وقصر، لكي يتجول في العربة وينام في الحمام ويستحم في القصر، وعندما تنبهه غنية بأنه سوف يتركها لوحدها لو نام في الحمام، يتدارك خطأه ليقول: لا لا لقد أخطأت.. ويضحك..

وحادثة سعي السركال الزواج من امرأة متزوجة وهي سكينة، عنوة تدخل هي الأخرى ضمن هذا الإطار وترمز الى اغتصاب فلسطين، ذلك أن سكينة هي رمز للأرض، وكذا الحال بالنسبة لحادثة غنية فهي في الوقت الذي تدخل فيه ضمن المفارقات الموظفة للاعتداء عليها من قبل الواحد ومن ثم طردها من البيت ترمز الى الحقيقة.

يبدو لي أن العاني في هذه المسرحية أكثر نضجا قياسا بمسرحياته السابقة، ذلك إدراكا منه أن هذا النمط (البريشتي) من المسرحيات بدون استخدام الرمز سوف تنزلق في متاهات التقريرية والمباشرة، أو أنها ستؤثر سلبا على ذهنية المتلقي بالانحياز الى فكر المؤلف وعدم ترك المجال له في اتخاذ قراره، لذلك فقد التجأ الى استخدام الرمز ليس بصيغة واحدة وإنما بعدة صيغ متنقلا بين البريشتية والكوميديا السوداء والتلويح باللمز والغمز، والصيغة الأخيرة أكثر استخداما من الصيغتين الأخيرتين، وتبدأ من كلمة "الخرابة" التي هي عنوان المسرحية مرورا بكلمة الكراج وخبالو وانتهاء ببعض الحوارات التي سنتوقف عندها قليلا.

في الحوار الجاري حول الأرض والقمر يحلم الثلاثة بالكوكب الأخير لخلوه من الصغار الذين يصفقون للمجانين ولأن الكل يتكلمون فيه بصدق ولكن الواحد وأتباعه يريدون أن يؤسسوا بورصة ومعملا للأسلحة، أي مثلما شنوا الحرب على الأرض وخربوها كذلك هم الآن بصدد نفس التوجه على كوكب القمر، في إشارة واضحة الى الامبريالية العالمية، وجملة: وجوه لا تظهر منها غير فقط رؤوس ملفوفة بيشماغ، بالإيحاء الى الوشاح الذي يلفه الفدائي برأسه وهذا ما يوضحه المؤلف في النص، وخلو الثلاثة من اسم معين إيماءة الى تمثيلهم للشعب، وجملة: فيتحدث معهم لكن كلامه لا يسمع، تدل على أن الشعب ليس معه اي ضده، وقول الواحد: أنا تفرجت على الصو، معناه أنه بدون موقف، وهكذا في قائمة طويلة من الجمل والحوارات.

3 - الصرير:

أما مسرحية (الصرير) فقد كتبها يوسف العاني عام 1987، أي بعد سبعة عشر عاما من مسرحية (الخرابة)، وهي مسرحية قصيرة لا تتعدى عدد صفحاتها الـ خمس وعشرين، وتتكون من منظر واحد فقط وشخصيتين هما (هو) و(هي)، وكلاهما متقاعدان وتجاوزا الستين من عمرهما.

ويتمحور حدثها حول شخصية (هو) الذي يعيش وحيدا في عزلة تامة عن العالم الخارجي، أو كما يقول المؤلف: (في طرف بعيد بعض الشيء عن المدينة) حيث يسود الصمت البيت الذي يعيش فيه، وبفعل هذا الصمت، اعتاد أن يقضي أوقاته في مخاطبة ضلفتي الباب ليصدر عنهما صريرا يدخل البهجة في نفسه لأنه الصوت الوحيد الذي يستطيع أن يسمعه ويجري حوارا معه، وذلك من خلال الضغط على ضلفتيه وتركهما يتأرجحان لينبعث عنهما هذا الصرير. وإذا كانت هذه الوسيلة الأولى

الذي ينشغل فيها لقضاء أوقاته، فانه وجد في كتابة وقائع يومياته الوسيلة الثانية، وفي ممارسة الألعاب الرياضية الوسيلة الثالثة، ويأخذ مخاطبة الصرير القسط الأوفر من أوقاته فهو يحاوره أول ما ينهض من نومه طالبا من الله أن يديمه وهو موجود بوجوده وأن يستمر بموسيقاه لأنه علامة حياته، وينصب اهتمامه بصوت الصرير أكثر من النشاطات الأخرى التي يمارسها يوميا، ذلك أنه حتى أثناء ممارسته لهذه النشاطات ينصرف ذهنه لهذا الصوت، كما في إيعازه للباب الذي تتحرك ضلفتاه ما أن يناديه، حين تتعب وينقطع صوتها كي تحيا معه من جديد، ومخاطبته للباب أثناء ممارسته للألعاب الرياضية ليذكره صريره بها حين ينساها، واقترابه من الباب لمعرفة المصدر الصادر عنه الصوت وقد نسي تناول الفطور الذي تسبب بقرقرة معدته.

وجاءت الرقعة الممنوحة لصوت صرير الباب على الرغم ما فيه من مبعث إزعاج للإنسان الاعتيادي، نتيجة الفراغ الكبير الذي يملأ حياته وهو يعيش وحيدا بعد أن ماتت زوجته ولم تنجب أطفالا وأحيل على التقاعد، فوجد في هذا الصوت متنفسه الوحيد للتعبير عن همومه ومعاناته الغارقتين في كومة من الكوابيس التي تترآى له في الليل وهي كما يقول هو: (تلفني وتطوقني حتى أحسست أنني قد ذبت فيها وللحظات فقدت ذاتي وكأنني أنا الحلم وأنا النوم وأنا الغائب).

لتجربة العاني الطويلة في التأليف المسرحي وتصديه في هذا النص لحدث مستمد عن صلب واقع المجتمع، وتجنبا لإغراقه في متاهات المباشرة والتقريرية، فقد عمد إلى استخدام الرمز والحلم في بنائه الدرامي، الحلم بطريقة لقاء الذين فقدهم (هو)، والرمز بالإيحاء إلى قابلية تأويل أبعاد الشخصيتين والحدث، فضلا عن العناصر والمفردات الواردة فيه بمختلف الاتجاهات، ابتداء من صوت صرير الباب مرورا بالدفاتر وانتهاء بأثاث المطبخ القديمة.

أقول تجنبا لذلك فقد استخدم العاني الحلم في بنائه الدرامي بطريقة لقاء الذين فقدهم هو، أو الذين غابوا عن حياته لفترة طويلة من خلال زيارتهم له على هيأة طائر وليس في صورة إنسان، ذلك أن بناء الفعل في الأول أكثر وقعا، لما يتحلى به من تكوينات جمالية أقرب الى الخيال منه الى الواقع من جهة، ومن جهة أخرى لتمتعه بمساحة أوسع للانتقال من فعل الى آخر، قياسا ببنائه في صورة إنسان، ومن دون أن يعلن عن هويته، هوية الطائر، مع أن المتلقي يفقه أن في حياة هو امرأتان فقط هما زوجته الميتة وزميلته في الوظيفة هي، تاركا الاختيار لمخيلة المتلقي من حيث زيارة الطائر لـ هو ان كان في المرة الأولى من قبل زوجته الميتة والثانية لصديقته في الدائرة، أو لأفراد آخرين مقربين إليه.

الصورة الأولى: انبعث شعاع من الضوء من خلال الشباك، سمعت تغريد طائر لم أره أول مرة، بعد قليل كان الطائر يحلق أمام الشباك، كان طائرا جميلا يحرك جناحيه بقوة كأنه طائر نورس، كان أصغر وأجمل منه، كان مزدانا بألوان خلابة كأنه من طيور الحب.

الصورة الثانية: أوشكت أن أنسى الطائر الجميل وفجأة شاهدت جناحيه يرفرفان بلا صوت كأنما ينثران علي نسمات حلوة.. شيئا فشيئا راح يقترب.

يتعرض هذا النص للمدة التي دوّن فيها وهي عام 1987 حيث كانت الحرب الدائرة بين العراق وإيران ما تزال قائمة، ونظام

صدام يبسط نفوذه على رقاب الشعب كامّا فاه وزاجا شبابه في معركة لا رجعة منها.
ففي هذا الظرف العصيب والقاسي ولد هذا النص وأنجب شخصية هو كواحد من أبناء الشعب العراقي المغلوب على أمره ليرمز الى كل الأفواه المكمومة في هذا البلد. فهو لم يختر بإرادته العزلة بدليل أنه يحاور أزعج الأصوات وهو صرير ضلفتي الباب، وإنما أرغم عليها ويرى كوابيس بالذين فقدهم، ويطلب من صديقته في الوظيفة في أول لقاء بها أن تتزوجه. إذا ثمة ما هو مخفي وغير معلن في النص لأن ليس في وسع المؤلف في ظرف تفسر فيه كل كلمة بمختلف الاتجاهات، أن يكشف عن كل الأدوات التي يمتلكها، وإلا ما الذي يدفع بـ هو أن يعيش في عزلة وجو موحش وكئيب وحجب نور الشمس عنه (وقد أشرقت الشمس على كل ما في الدار عدا صاحبها؟).
يبدو لي أن هو أحد ضحايا الحرب العراقية الإيرانية التي دمرت أسرته بالكامل ولم ينج منها إلا عداه ذلك أن المتلقي يعرف فقط أن زوجته ميتة، أما كيف ماتت فهذا ما لا يعرفه كما يعرف أنها لم تنجب، وكلا المعرفتين وفاة زوجته وعدم إنجابها يرد عليهما في جملة (طار الطائر ولم نطر معه) أي (مات الطائر ولم نمت معه) وهذا الطائر لا ينحصر في زوجته وصديقته وإنما ربما يشمل أيضا أولاده بالترميز الى عدم إنجاب المرأة العراقية في إشارة الى فقدان أبنائها أو أبناء العراق في هذه الحرب .
(لم يكن الطائر نفسه، كان يحمل وجوها كثيرة، عرفتها أحببتها، فارقت بعضها، وجوها أخرى لا أعرفها، فجأة غابت كل الوجوه وظل وجهي).
والجميل في هذا النص اذ بالرغم من أن (هو) هو نتاج الحرب إلا أن المؤلف لا يأتي على ذكر هذه الكلمة حتى بحرف واحد وهنا يكمن سر جماليته ودقة رسم حبكته الفنية واختزال حدثه باكتشاف المعنى المستور ما وراء الكلمات التي تأتي على لسان هو.
ويعبر منظر المسرحية المتكون من بيت قديم ومثله كل محتوياته من أدوات المطبخ وطاولة كتابة وكرسي وأريكة أكثر من أي شيء آخر في المسرحية عن معاناة هو، مختزلا إياها في جملة (لا حياة فيه)، ويرمز هذا البيت القديم الى البيت العراقي الذي كان حديثا وصار كذلك، بالإشارة الى عودة العراق جراء هذه الحرب عقودا الى الوراء.
وشخصية (هي)، هي الأخرى تعيش لوحدها ولكن بملء إرادتها بالرغم من أن لها أبناء وبنات يسكن كل واحد منهم في مدينة تبعد عنها ساعات، وجاءت لزيارة هو بعد أن تعطل الباص الذي يقلها الى وظيفتها في دائرة التقاعد حيث كان هو زميلا لها في نفس الدائرة.
وعطل الباص يقترن برجفة أيدي هي حين تتعب وشعورها بالوحشة، أذ مثلما أصاب العطل بالباص كذلك فهي تحس بتقدم السن وبحاجة الى من يرعاها ويغدق العطف عليها، فلم تجد أفضل من (هو) تتوفر فيه هذه الصفات، سيما وأنها كانت تحبه قبل اقترانه بزوجته الميتة وترك الباص ل (هي) بعد إصلاح عطبه، إيماءة الى انتهاز الفرص قبل فواتها، ما معناه كما هو بحاجة الى التغيير والتجدد، كذلك فهي بحاجة الى نفس الشيء.
ينزع العاني الى استخدام أسلوب التقابل بين الشخصيتين وما هما بحاجة إليه وينقصهما بالاشتراك مع بعضهما الآخر وينفران منه في الوقت نفسه، في بناء معمارية هذه المسرحية، وذلك بهدف إيجاد

مسوغات مقنعة للتقارب بينهما، وبالتالي رسم بصيص من أمل لخروج هو من عزلته، وتتمثل هذه الحاجة وهذا النقص في نسيان (هو) لتناول فطور الصباح، أو كما يسميه (البنزين) مقابل نسيانها (هي) الالتحاق بالسيارة التي أصلح عطبها هو، بسبب حالته غير الطبيعية، وهي بسبب إفراطها الحديث مع هو: لا أنا اليوم في حالة غير طبيعية كيف نسيت تناول البنزين عفوا الفطور.

هي: لابد أن أذهب ربما تم تصليح الباص.

والحاجة الثانية باشتراكهما في ارتشاف القهوة وممارسة طقوسها الرامزة الى التقارب وزيادة العلاقات الاجتماعية.

هو: لم أشرب قهوتي، لنشربها سوية أتذكرين كنت تقرئين حظي؟

هي: اقرأها بالمقلوب لكي أثيرك.

والثالثة في علاج صوت صرير الباب مقابل تغيير عاداته القديمة .

هي: (تخرج قطعة صغيرة من القماش تنقعها بالزيت وتبدأ بمسح أماكن الاحتكاك محركة ضلفتي الباب عدة مرات حتى يذوب الصوت نهائيا).

هو: ما هذا، أين صوت الباب؟ لم أستمع إليه حين حركته..

والرابعة في تصوير (هو) و(هي) بالطائر وتصويرها له بالعصفور.

هو: سمعت تغريد طائر لم أره أول الأمر.

هي: (تضحك) بشرفك أنت عصفور؟

والخامسة في أنجاب الأطفال مقابل عدم إنجابها.

هي: لم تنجبي الطفلة ولا الطفل.

والسادسة إقلاع كليهما عن التدخين فضلا عن رغبتهما بالعودة إلى الوظيفة.

هي: تركت التدخين منذ ثلاث سنوات.

هو: أنا تركته أيضا قبل عام فقط.

هو: إذا عدت أنت الى العمل وعدت أنا الى العمل نذهب سوية ونعود سوية.

الخرافة في الأدب
بين الماضي والحاضر

ترجمة: باسم العودة

كاتب ومترجم. من مواليد ذي قار / سوق الشيوخ. بكالوريوس لغة انكليزية - كلية التربية. عضو جمعية المترجمين العراقيين، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب ، عضو اتحاد الصحفيين العراقيين، عضو التجمع الثقافي في سوق الشيوخ.
ترجم الكثير من القصائد الى اللغة العربية لشعراء انكليز مشهورين امثال ثوماس هاردي والشاعرة اميلي ديكنسن كما ترجم الكثير من الدراسات النقدية عن روايات همنغواي وعن رواية الحرف القرمزي للروائي ناثانيال هاوثورن.
ترجم للانكليزية ديوان (غزالة الصبا) لكاظم الحجاج وديوان (القارة الثامنة) لأمنة عبد العزيز وديوان (من يكتب) للمغترب هاشم معتوق، فضلا عن ترجمة الفلم الوثائقي (حوار الأديان) لقناة الفيحاء.

بقلم: مارك جي تايلور

الخرافة هي نوع أدبي، عبارة عن قصة خيالية مقتضبة في النثر أو الشعر وتمثل الحيوانات، المخلوقات الأسطورية، النبات، الجماد أو قوى الطبيعة الموصوفة أو المقصورة بشكل بشري كالاتصال اللفظي الذي يوضح أو يقود إلى تفسير درس أخلاقي وهذا بدوره يضيف في النهاية حكمة بليغة، والذي يروي الخرافة يسمى (المخرف).

الخرافة تختلف عن الحكاية الرمزية، وفي النهاية تستثنى النباتات والحيوانات وقوى الطبيعة بوصفها من العناصر الفاعلة التي تعترض الكلام وغيرها من القوى البشرية وهذا الاستعمال لم يكن مميزا بوضوح على الدوام في نسخة الملك جيمس المعدلة من العهد الجديد (الأسطورة Mythos) بل وصفت من قبل المترجمين بأنها خرافة . الخرافة هي واحدة من أكثر الأشكال الدائمة في الأدب الشعبي والتي أخذت مجالا واسعا في الانتشار ويمكن العثور عليها في أدبيات كل بلد تقريبا.

والمجاميع الكاملة ترمز إلى (ايسوبيكا (Aesopica أو خرافات أيسوب الأسطوري ومن المعتقد أنه كان عبدا في اليونان القديمة حوالي سنة 550 قبل الميلاد . كانت لدى الثقافة الشفوية الإفريقية تقليدا هو رواية القصص الغنية وهي موجودة عندهم منذ ألاف السنين ولا يزال الناس من جميع الأعمار يتفاعلون مع الطبيعة بما في ذلك النباتات المثيرة والحيوانات المروعة والتراكيب الدنيوية مثل الأنهار والجبال، وكان الأجداد ينعمون باحترام كبير من قبل المجتمع الأفريقي ويملون الأدوار الجديدة لرواية القصص خلال سنوات اعتزالهم وخلوتهم . الأولاد

والكبار على حد سواء مفتونين برواة القصص الجيدين عندما أصبحوا يبحثون ليحكوا أجود الخرافات . أما الهند فلديها تقليد عريق في هذا النوع من الروايات، واغلب الأحيان يمكن تفسيرها من الحقيقة لان الثقافة تستمد تقاليدها وخواصها من العناصر الطبيعية، لذا نلاحظ إن معظم الآلهة هي أشكال لحيوانات لها خاصية مثالية وهناك مئات من الخرافات ظهرت في الهند القديمة خلال الألف الأول قبل الميلاد وغالبا ما كانت قصصا داخل إطار قصصي مثل (فيشنو) في كليلة ودمنة، هيتوباديشا، فيكرام، فامباير، والحكماء السبعة)، وكانت مجموعة من الخرافات امتد تأثيرها في المجتمع إلى وقت لاحق في جميع أنحاء العالم القديم. (بن أي بيري) مصنف (فهرس بيري) لخرافات ايسوب حاول أن يبرهن على نحو مثير للجدل بأن بعض حكايات (جاتاكا) البوذية وبعض خرافات كليلة ودمنة قد أثرت في الثقافة المتشابهة اليونانية وثقافة الشرق الأدنى، الملاحم الهندية القديمة مثل (فاياسان، رامايانا) أيضا تحتوي على خرافات ضمن القصة الرئيسية، أما أشهر خرافات الشرق الأوسط فهي (ألف ليلة وليلة Arabian Nights).

أما الخرافة الأوربية فكان لها تقليد أمتد إلى مسافة أبعد خلال العصور الوسطى وأصبحت واحدة من الآداب الأوربية رفيعة المستوى . خلال القرن السابع عشر، الخرافي الفرنسي (جين دي لافونتين) 1621 – 1695 رأى بأن روح الخرافة في الأخلاقية – قاعدة من قواعد السلوك ابتدءا من نمط (ايسوبان) . شرع (لافونتين) بهجاء الكنيسة، المحكمة وأفراد الطبقة البرجوازية العالية والمشهد البشري بأكمله في وقته . إن نموذج (لا فونتين) أثر فيما بعد بكتاب آخرين منهم الكاتب الانكليزي (جون غاي) 1685 – 1732، البولندي (اجانسي كراسيكي) 1735 – 1801، الايطالي (لورانزو بيكنوتي) 1739 – 1812، (جيوفاني كاراردو) 1754 – 1827 الصربي (دوستيبج أوبرا دوفيش) 1742 – 1811 الاسباني (فيلكس ماريا دي سامنغيو) 1745 – 1801 الفرنسي (جين بيير) 1755 – 1794 والروسي (ايفان كريلوف) 1796 – 1844 . خرافات ايسوب وتعرف أيضا (ايسوبيكا) مجموعة خرافات تنسب إلى ايسوب، وكان قناَ راو للحكايات ويعتقد انه عاش في اليونان القديمة بين عام 620 – 650 ق.م من أصل مختلف، هذه القصص ربطت ذهنيا مع اسم ايسوب وتحدرت إلى العصر الحديث خلال عدة مصادر كما وإنها تخضع لإرجاعها إلى مصادرها الفعلية المختلفة والى وسائلها الشعبية والفنية أيضا. قال (ابولونيوس) "ايسوب، مثل أولئك الذين يتناولون الطعام بشكل جيد من ابسط الأطباق، استعمل حوادث متواضعة ليعلم حقيقة كبرى، وبعد أن يخترع قصة يضيف إليها النصيحة لتعمل شيئا أو لا تعمل، وأيضا هو أكثر التصاقا بالحقيقة من الشعراء" .

ومن بين المراجع لكتاب آخرين الكاتب (ارستوفانير) في روايته الكوميدية (الزنابير) حيث صور بطل روايته (فيلوكلين) قد امتلك تعلما من ايسوب وهو المحادثة في المآدب. كتب (أرسطو) في (فايرو) بان سقراط قد تغيب بعيدا في السجن حيث حول بعضا من خرافات أيسوب التي يعرفها إلى الشعر لسببين رئيسيين، أولهما إن العديد من الأخلاق

ضمن خرافات أيسوب تتعارض فيما بينها، وثانيهما لان القيم القديمة لحياة أيسوب تتعارض أيضا مع بعضها البعض. إن وجهة النظر الحديثة تقول بان أيسوب لم يكتب كل هذه الخرافات المنسوبة إليه وقد تنسب بعض الخرافات إليه إذا لم يوجد لها مصدر، كان بعض المنظرين في العصر الكلاسيكي حاولوا تفريق هذا الكم الهائل من الخرافات عن أنواع السرد الأخرى واتبعوا أسسا منها يجب أن تكون قصيرة وغير متكلفة بالإضافة إلى ذلك أن تكون خيالية ومفيدة للحياة وواقعية بالنسبة للطبيعة، في هذا النوع نجد مخلوقات تتحدث مع إن المخلوقات البشرية هي التي تتحدث مع أشكال بشرية قليلة، غالبا ما تبدأ الخرافة بمقدمة على السياق تتبع بالقصة وفي النهاية هنالك حقيقة أخلاقية مؤكدة . إن تحديد السياق غالبا ما يكون ضروريا كدليل لتفسير القصة.. كحالة تفسير معنى سياسي كما في (الضفادع) و(الضفادع والشمس)، في بعض الأحيان قد تصبح بعض عناوين الخرافات مشهورة ومميزة للمثل فيما بعد كما في قتل الإوزة التي تبيض بيضا من ذهب و(فأرة المدينة وفأرة الريف). في الحقيقة إن بعض الخرافات مثل (الشاب والسنونو) ظهرت لتخترع صورة إيضاحية يضرب بها المثل دائما. ذهب أحد الباحثين بعيدا ليعرف ويحدد الخرافة كأمثلة قيمة موسعة وفي هذا لديها وظيفة سببية، توضيح في الأصول والمصادر ، وكمثال في سياق أخر لماذا النملة تعني سارقة للمخلوق).

خرافات أخرى لها أفق أيضا في هذه الوظيفة لكنها تحمل النكات الصريحة كما في (العجوز والطبيب) والتي توضح ممارسي الجشع في الطب. إن التناقضات المشار إليها آنفا بين الخرافات والنسخ المعدلة البديلة لنفس الخرافة مثل (الحطاب والأشجار) كان أفضل تفسير لها هو إرجاعها إلى أيسوب لجميع الأمثلة من هذا النوع . أما البعض الأخر فيمكن إثباته بإرجاعه إلى غرب آسيا وقسم منها تمتد أصولها الى الشرق . إن الدراسات الحديثة للخرافات والحالات التي يضرب بها المثل لأشكال ايسوب كانت موجودة في كلا الحضارتين السومرية والاكدية في وقت مبكر من الألفية الثالثة قبل الميلاد . خرافات ايسوب وانتقال العادات الهندية من جيل إلى آخر صورت في حكايات (جاتاكا) البوذية و(كليلة ودمنة) الهندوسية . هناك اثنتا عشرة حكاية عامة أسهمت في كثير من الأحيان على الرغم من أن هناك اختلافات مشتركة على نطاق واسع في التفاصيل ، لذا فهناك بعض الجدل فيما إذا كان اليونانيون قد تعلموا هذه الخرافات من رواة القصص الهندية أو من وسيلة أخرى .

الكاتب (لوب) محرر (بن آي بيري) أخذ موقفا متطرفا في كتابه (Babrius and Phadrus) بقوله لا يوجد في التقليد اليوناني بأكمله حتى ألان حكاية واحدة يمكن أن يقال عنها بأنها جاءت من أصل هندي بصورة مباشرة أو غير مباشرة. لكن الكثير من الخرافات أو الخرافات ذات الموضوع الرئيسي والتي كان ظهورها في اليونان أول مرة أو المقاربة للثقافة الشرقية وجدت مؤخرا في (كليلة ودمنة) وقصص هندية أخرى بما في ذلك (جاتاكا) البوذية. على الرغم من معاصرة ايسوب إلى بوذا فأن القصص لم تدون إلا بعد وفاتهما بقرون، وهناك القليل من المختصين والطلبة مستعدون لدراسة جوهرية حول أصل هذه الخرافات على

ضوء الأدلة المتعارضة. متى وكيف وصلت الخرافة إلى اليونان وكيف انتقلت منها أمر لا زال غير مؤكد ، بعض هذه الخرافات لا يحمل تاريخا أقدم من التي ذكرها (لوب) في كتابه بعدة قرون بعد ايسوب أو حتى في وقت لاحق.

إن أقدم مجموعة ذكرت كانت من قبل (ديميتروس) في (Phalerum) وهو خطيب ورجل دولة أثيني خلال القرن الرابع قبل الميلاد والذي جمع الخرافات في عشرة كتب ، إضافة إلى ذلك فأن أحد أتباع أرسطو فهرس ببساطة كل الخرافات القديمة للكتاب اليونان الموضوعة على شكل أمثلة ووضعها بطريقة نثرية وعلى أقل ما يكون فقد كانت دليل على ما نسب إلى ايسوب من قبل الآخرين ولكن هذا قد يشمل نسبة تعود إليه من التقاليد الشفوية المتوارثة من جيل إلى آخر عن طريق الخرافات الحيوانية ، الحكايات الخيالية والخرافات الساخرة ولربما حتى الحكايات التي يضرب بها المثل أو النكتة وهو أكبر دليل على قوة اسم ايسوب لجذب مثل هذه القصص . إن المجوعات الخرافية المتداولة في عصرنا هذا قد تطورت من النسخة اليونانية المعدلة التي تعود إلى (بابريوس) والتي لدينا منها مخطوطة ناقصة متكونة من مائة وستين خرافة.

في القرن الحادي عشر ظهرت خرافات (Syntipas) وهذا العمل يعتقد بعودته إلى الباحث اليوناني (ميخائيل أندريسبولوس) هذه التراجم هي من الروايات السريانية التي ترجمت من الأعمال اليونانية المبكرة وتحتوي على بعض الخرافات التي لم تدون من قبل . هنالك نسخ معدلة لخمس وخمسين خرافة والتي نظمت على البحر الرباعي التفاعيل في القرن التاسع عشر لـ (اغناطيوس) شماس الكنيسة كانت جديرة بالذكر أيضا ويمكن إرجاعها إلى مصادر شرقية. بعض الأضواء سلطت على تدوين القصص والتي يرجع مصدرها إلى الشرق قد أضيفت إلى شريعة ايسوب وذلك بسبب ورودها في التفسيرات اليهودية للتلمود وأدب ((Midrashie في القرن الأول. أيضا ظهرت ثلاثون خرافة من بينها اثنتا عشرة خرافة كانت مشابهة إلى تلك الخرافات المألوفة عند اليونان والهنود وست خرافات متماثلة فقط مع الخرافات الهندية أما البقية فكانت متماثلة مع اليونانية فقط. إضافة إلى ذلك فهناك خرافات متشابهة احتفظت ببقائها في اليونان والهند والتلمود، والشكل ألتلمودي يقترب أكثر إلى الشكل الهندي، لذا فأن خرافة (طائر الكركي والذهب) رويت في الهند بعنوان (الأسد والطائر الأخر). عندما قال (يشوع بن حنينا) بان هذه الخرافة تعود إلى اليهود للحيلولة من التمرد ضد روما ومرة أخرى وضع رؤوسهم بين فكي الأسد حيث اظهر التآلف مع بعض الأشكال المشتقة من الهند .

إن أول ترجمة شاملة لأعمال ايسوب في اللغة اللاتينية كانت من قبل (فيدروس) وكان عبدا محررا من قبل الإمبراطور (أوغسطوس) في القرن الأول . كتب (أفثونيوس) أطروحة على شكل نثر باللغة اللاتينية على أربعين خرافة ، هذه الترجمة جديرة بالذكر كتوضيح معاصر لاستعمال هذا النوع من الخرافة في وقتها والزمن اللاحق . الفلاسفة والكتاب كانوا معتادين لإعطاء خرافة ايسوب كمثال إلى الدارسين ليس فقط لدراسة ومناقشة أخلاقيات الحكاية ولكن أيضا لممارسة الأسلوب بأنفسهم بصورة مباشرة كذلك ممارسة

الأسلوب النحوي وذلك بعمل روايات خاصة بهم . بعد فترة قليلة وضع الشاعر (أوسونيوس) مجموعة من هذه الخرافات شعرا . إن المجموعة الأقدم والأكثر معرفة وتأثيرا لنسخ النثر هي لـ(فيدروس) والتي ولدت بطريقة أخرى اسما لمخرف غير معروف يدعى (رومولوس) هذه المجموعة ضمت ثلاث وثمانون خرافة وهي قديمة قدم القرن العشرين وتبدو مبنية على الحكايات النثرية المعدلة والمبكرة والتي كانت تحت اسم ايسوب ومعنونة إلى (روفوس) وقد عملت في الفترة (الكارولنجية) أو قبل تلك الفترة.

هذه المجموعة أصبحت مصدرا خلال النصف الثاني للعصور الوسطى وكانت تقريبا من الخرافات اللاتينية على شكل شعر ونثر. هناك ثلاث مجموعات أخرى تعود إلى (رومولوس) وكانت واحدة منها مكتوبة في الشعر الرثائي ولربما عملت خلال القرن الثاني عشر وكانت من أكثر النصوص تأثيرا في القرون الوسطى الأوربية ، كذلك كانت من النصوص التعليمية إلى اللاتينية إضافة إلى ذلك فأنها تمتعت بشعبية واسعة خلال عصر النهضة. كانت الترجمات التفسيرية لرثائيات (رومولوس) شائعة في أوربا في العصور الوسطى ومن الترجمات المبكرة كانت واحدة في القرن الحادي عشر تعود إلى (أديمار) وتحتوي بعض المواد الجديدة وقد تبعت بمجموعة نثرية للأمثال لـ(سيستر سيان) الواعظ ، وكانت الخرافات في وقتها لا تعود إلى ايسوب حيث أعطت مسحة القرون الوسطى والصبغة الكهنوتية . إن نزعة التفسيرات للأعمال وحتى المواد غير المتضمنة أعمال أيسوب هي لنشوء روايات في اللهجات الأوربية المختلفة حيث بدأت بالظهور في القرون اللاحقة.

مع حركة إحياء الآداب خلال عصر النهضة بدأ المؤلفون بتصنيف خرافات أيسوب والمصادر البديلة التي ظهرت جنبا إلى جنب على نحو تقليدي ، إحدى هذه المجاميع كانت من قبل (لورانزو) وقد كتب مائة وسبع وتسعين خرافة مائة منها نشرت تحت عنوان ((Hecat-mythium عام 1495 وعلى الأغلب تم تكييفها مع بض الخرافات التقليدية، وعلى سبيل المثال (الأسد والفأر The Lion and the Mouse) فقد أعطيت نهاية جديدة و(البلوط والقصب The Oke and the Reed) أصبحت (الدردار والصفصاف The Elm and the Willow) و(النملة والجندب The Ant and the Grasshopper) كيفت إلى (البعوضة والنحل The Gant and the Bee) والاختلاف هنا هو إن البعوضة تقترح لتعليم أولاد النحلة الموسيقى. أيضا من حكايات القرون الوسطى حكاية (الفئران في مجلس The Mice in Council) كذلك ظهرت الخرافات التي تدعم الأمثال الشعبية مثل (المياه تجري عميقا) و(المرأة الحمقاء وشجرة الجوز) . كذلك هناك ثلاثة مجاميع من الخرافات جديرة بالذكر مكتوبة بالشعر والأكثر تأثيرا مجموعة (جبريل فارنو) بعنوان (Centum Fabulae) عام 1564 وخرافات ظريفة مثل (غرق المرأة وزوجها) و(ابن الطحان والحمار) . في السنة التي نشر (فيرغو) أعماله في ايطاليا جلب (هايرونيموس اوسيوتس) مجلدا يتكون من 249 خرافة عنونت تحت (Fabulae Aesopi carmine e-egiaco radditae) وقد احتوت على

اعمال من مكان آخر مثل (الكلب في المهد The Dog in the Manger) بعدها وفي عام 1604 قام النمساوي (بانتاليون) بجمع هذه الحكايات.

من القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر كان هناك مقدار ضخم من الخرافات الشعرية كتبت في مختلف اللغات الأوربية، وان اللغات الإقليمية واللهجات في مجال الاستخدام الرومانسي كان قد أخذ من (لا فونتين) أو بالتساوي مع الشعبي (جان بيير كلاريس). هناك نسخ معدلة كتبت من قبل (بيري ديساير) عام 1826 و(يفز لويس ميري) ما بين 1831 – 38 ثم تبعتها ترجمتان بلغة الباسك منتصف القرن، بعد ذلك تلتها بعض من مجموعات أخرى بلغة (Nimes) ما بين 1881 – 1891. إصدارات (لا فونتين) ظهرت في الألمانية بعد الحرب الفرنسية – البروسية وهناك الكثير من التعديلات التي أجريت على أعمال (لا فونتاين) في لهجات غرب فرنسا من قبل المحامي واللغوي (جين هنري بوركاد) عام 1849، إضافة إلى ذلك هناك وفي نفس العصر تعديلات أخرى لـ(بيري جاكوز) 1808 و(أدوارد لاكون) 1828 و(مارك ماكادير) 1830. في القرن العشرين كان هناك (مارسيل راولت، اسم القلم غارنيه، يوجين شاريه، مارسيل دولار وبيري برسارد)، وفي الشمال ظهر الصحافي والمؤرخ (جيري هربارت) حيث كيف بعض من هذه الخرافات إلى لغة (كاميراي) والتي تعرف محليا (Chti) . إن أكثر المترجمين الجدد في هذه اللغة كان (جو تانفيه وغيوم دي) . في عصر النهضة الأدبية كان مجموعة من المؤلفين كيفوا شعر الخرافات إلى كلام مفعم بالحيوية من بينهم (تشارلز دو) عام 1812 (جوزيف لاماي) 1845 وجماعة (جيم جوزيف وفرانسوا بايلوكس) . تعديلات في لغات اخرى كانت قد عملت من قبل (جارلس ورت) وبعدها بفترة طويلة نشر (ليون بيرنوز) بعض من مائة خرافة تعود الى (لا فونتاين) في لهجة (شارلروا) عام 1872 وتبعتها خلال عام 1880 مجموعة (جوزيف دوفراين) وكانت بلهجة (يرتاج) تحت اسم القلم (Bosquetia) . وفي القرن العشرين ظهرت مجموعة مختارة متكونة من خمسين خرافة بلهجة (كوندروز) من قبل (جوزيف هاوزيكس) عام 1946.

وللإشارة الى هذه الفترة فإنها لم تكن أغزر في الزيادة المستمرة للتكيف لكن الدافع وراء كل هذا النشاط في كل من فرنسا وبلجيكا لتأكيد الخصوصية الاقليمية لمكافحة تزايد المركزية وزحف لغة العاصمة على الشكل السائد والمسيطر في تلك المساحة .

وفي بريطانيا أيضا هناك ترجمات في اللغات الاقليمية هذه الترجمات شملت الأمثلة لـ(أديسون هيبارد) وكانت في لهجة الزنوج الامريكية عام 1926 وستة وعشرون لخرافات (ايسوب) قدمها (روبرت ستيفان) وكانت في اللهجة الاسكتلندية عام 1987، أما الخرافات التي تبعت هذه المجموعة فهي في لغة (ابرديق شاير) وأحيانا تعرف باللهجة الدورية وهي لهجة يونانية قديمة . جامعة غلاسكو أيضا كان لها التأثير في الترجمة بالطريقة العصرية وظهرت في ترجمات (هنري سن) لخرافات (أيسوب) الأخلاقية عام 1989. أول نشر في اللغة الانكليزية لخرافات (ايسوب) المكتوبة بطريقة شعرية كانت من قبل (وليام كاكسون) آذار من عام 1484 تبعتها خرافات أخرى في النثر والشعر . (بن آي بيري) اشرف على تحرير خرافات

(آيسوب) الى مكتبة لوب الكلاسيكية كذلك أعد فهرسا حسب نوع الخرافة عام 1952. عام 1998 ظهرت الطبعة الأولى لـ(أولفيا ووروبرت تمبلس) وعنونت تحت عنوان (The complete of Fables by Aesop) وفي الحقيقة فقد حذفت الكثير من المصادر القديمة الرئيسية من هذه الطبعة. الترجمة الأكثر حداثة كانت من قبل (لورا جيباس) وكانت بعنوان (خرافات أيسوب Aesops' Fable) وقد طبعت من قبل (عالم كلاسيكيات أكسفورد) عام 2002 وقد احتوى هذا المجلد على ثلاثمائة وتسع وخمسين خرافة وتضمن مختارات من جميع المصادر اليونانية واللاتينية الرئيسية.

شهدت منطقة الكاريبي ازدهارا لمثل هذه التكييفات ابتداءً من منتصف القرن التاسع وما تلاه، مبدئيا كان كجزء من مشروع مؤيد للاستعمارية لكن بعد ذلك وفي وقت لاحق أصبح تأكيدا للاعتزاز باللهجة، كما إن النسخ المعدلة لخرافات (لا فونتاين) في لهجة (مارتن ايكو) عملت من قبل (فرانكوز ماريوت) عام 1817. وفي المناطق المجاورة ظهرت خرافات أصلية بدأها (باول بادوت) ما بين 1950 – 60 لكن هذه المؤلفات لم تجمع إلا بعد وفاة مؤلفها. في منطقة (ترينيدادي) الفرنسية ظهرت بعض الأمثلة من الخرافات الشعرية المقفاة كتبها (جون جاكوب توماس) ونشرت عام 1869.

شهدت بداية القرن الجديد نشر خرافات (جورج سليفيان) وعلى ساحل القارة الأمريكية الجنوبية نشر (الفرد دي ساينت) مجموعة من الخرافات كيفت من أعمال (لا فونتين) عام 1872 وكانت هذه المجموعة من بين أعمال مختارة من القصص والقصائد وقد تضمنت أيضا لمحة تاريخية عن الإقليم ، وفي الجانب الأخر من الكاريبي (يوليوس كوين) كيف أيضا أعمال (لا فونتين) الى العبيد الأمريكان الذين هم من أصل أوربي نهاية القرن التاسع عشر، ثلاثة من هذه الإصدارات ظهرت في المقتطفات قلدت من قبل الأمريكان أنفسهم عن طريق ترجمتها الى اللهجة المحلية وكانت من قبل (نورمان شايبيرو). (جين لويس) وضع ترجمة حديثة لخرافات (بابريوس) في (Reu–ion Creol) عام 2007 وأضاف حوافز جديدة للتكييف حيث أصبحت كتعبير عن ثقافة العبيد وخلفياتهم الزراعية البسيطة وينقلون هذه التجربة مع نقاء اكبر في لغة مهذبة الى ماليكيهم.

الخرافات تنتمي أساسا الى التقاليد الشفوية وتبقى حية عن طريق التذكر ثم إعادتها من قبل أشخاص آخرين حسب الأسلوب الخاص بهم، وعندما تكتب الخرافة وخاصة في لغة التعليم فأنها تفقد الكثير من ماهيتها وجوهرها وبالتالي فأن ستراتيجية إصلاحها هو استغلال الفجوة ما بين اللغة المنطوقة والمكتوبة. (السير آل روجرز) هو الوحيد الذي ترجم الخرافات الى اللغة العامية الانكليزية حيث كانت مفعمة بالحيوية في عصره والى مدى أبعد مؤكدة غرضها، وقد تم تجديد الخرافة في فرنسا في القرن السابع عشر لخرافات (لا فونتين) المتأثرة بأسلوب (ايسوب).

وفي القرون التي تلت كانت هناك ترجمات على مدى أوسع من خلال الوسائل المختلفة الى اللغات العامية التي هي أفضل من التي كانت في اللغات العلمية المكتوبة وفي نهاية المطاف فأن لسان الديمقراطية للمدن نفسها بدأ ليكون موضع تقدير كوسيلة أدبية،

ومن أقرب الأمثلة على هذه الترجمات سلسلة من الخرافات الفردية وردت في ورقة ظهرت تحت عنوان (Les Fables de Gibbs).

وفي العصر الحديث دخلت الخرافة إلى كتب الأطفال وفي المقابل فقد كيفت لأدب حديث للكبار، (جيمس ثورير) استعمل أسلوب الخرافات القديمة في كتابه (خرافات لعصرنا) 1940 و(خرافات الى ابعد مدى لعصرنا) كما وكتب (ولادي سلو) (الثورة) عام 1922 وفيها استعمل الاستعارة المجازية لثورة عام 1917 البلشفية حيث وصف تمرد الحيوانات التي تسيطر على مزارعهم من اجل إدخال المساواة، (جورج أوريل) كتب (حديقة الحيوان) عام 1945 على نحو مشابه هجا فيها قوى الاستبداد بشكل عام تحت شعار خرافة الحيوان. في القرن الحادي والعشرين الكاتب النابولي (ساباتينو سيا) وهو مؤلف لأكثر من مائتي خرافة وصفها بأنها (خرافات احتجاج غريبة) ولم يعتمد الحيوانات فقط في وضع الشخصيات ولكن أدخل فيها أشياءَ وكائنات وعناصر من الطبيعة وكان هدف المؤلف هو نفس الهدف في الخرافات التقليدية التي تمثل دور الكاشف للمجتمع البشري.

نماذج من الخرافات

الثعلب الماكر

حالما يقع بعض الأشخاص في ورطة فانه يحاول إيجاد طريقة للخروج من هذا المأزق ولو على حساب شخص آخر

يحكى أن ثعلبا سقط في أسفل بئر عميقة دون قصد ووجد نفسه محاصرا داخل الجدران العالية للبئر وكلما حاول الخروج من البئر باءت محاولاته بالفشل وفي هذه الإثناء جاءت معزى عطشى الى البئر كي تروي ظمأها فوجدت الثعلب داخل البئر وسألته عن وجود الماء ففكر الثعلب في حيلة يستطيع بها الخلاص من هذه الورطة فقال لها يوجد ماء عذب كثير ولا استطيع الحصول عليه لوحدي وفي الحال نزلت المعزى الى الداخل عندها قفز الثعلب على قرونها الطويلة وخرج تاركا المعزى في ذلك السجن الرطب .

البلوط والقصب

كانت هنالك شجرة بلوط كبيرة تنمو جانب النهر والى جانبها شجرة القصب، كانت شجرة البلوط فخورة بنفسها جدا ومبتهجة بما تمتلك من أوراق كثيفة يانعة في حين كانت شجرة القصب متواضعة جدا عكس شجرة البلوط التي تسخر منها دائما بقولها: كم أنا طويلة ضخمة وأنت نبتة صغيرة ضعيفة عديمة القيمة.

ابتسمت شجرة القصب ولم ترد عليها، وفي يوم شتائي عاصف تلبدت السماء بالغيوم المرعدة وهبت رياح قوية وبدأ المطر ينزل بكثافة، ولمرونة شجرة القصب فهي تستطيع أن تنحني مع الريح وتستطيع مقاومتها اما شجرة البلوط فقد اقتلعتها الرياح وسقطت على الأرض بعد أن تهشمت أغصانها وتطايرت أوراقها وفي النهاية نجت شجرة القصب من الموت عكس الشجرة المتباهية. المغزى من هذه الخرافة يجب عليك أن تتحلى بالمرونة مع الآخرين ولا تكن صلدا.

النملة والجندب

مرة عاشت نملة وجندب في حقل واحد، وكانت النملة تعمل طول اليوم بجد، تجمع الحبوب من حقول القمح وكانت تذهب كل صباح وتبقى تعمل ما دام هناك ضياء

يكفيها لرؤية طريقها بعدها تقفل راجعة الى بيتها وعلى رأسها ما جمعته من الحبوب لتحتفظ به في مكان آمن في جحرها، ثم ترجع مرة ثانية الى حقل آخر دون توقف، أما الجندب فينظر إليها ضاحكا قائلا لها: لماذا تعملين طول اليوم يا عزيزتي؟ تعالي وخذي قسطا من الراحة واستمعي الى أغنيتي، فصل الصيف لم ينته واليوم طويل مشمس.

تجاهلته النملة ولم ترد بشيء بل قالت يجب أن أسرع لأكمل عملي، هذا القول جعل الجندب يضحك وقال: كم ساذجة هذه النملة! وبقي على حالته دون عمل، مر الصيف وجاء الخريف تبعه الشتاء بليله الطويل البارد المتجمد وتلبدت السماء بالغيوم حيث بدأ الجليد بالتساقط وغطى معظم الحقول والجندب لم يهيئ له مكانا يأوي إليه في هذا الشتاء البارد حيث أصابه البرد والجوع فبدأ يسائل نفسه: أين أذهب؟ وفجأة تذكر النملة فذهب إليها طالبا منها المعونة فنظرت إليه قائلة: أنا أعمل طول الصيف وأنت تغني وترقص وتسخر مني ولم تفكر بالشتاء.. جد لك مكانا ترقص فيه وتغني، ليس لك مكان أو طعام هنا، عندها أغلقت الباب في وجهه.

هذه الخرافة تعطي درسا في الحث على العمل والمثابرة والدراسة والاستعداد لها وتنطبق على المثل العربي من جد وجد.

فينوس والقطة

يحكى أن قطة وقعت في حب شاب وسيم، فأخذت تتضرع الى الإلهة فينوس كي تقلبها إلى شابة جميلة وكانت فينوس عطوفة معها جدا لذا فقد غيرتها إلى فتاة عذراء جميلة جدا وعندما رآها الشاب وقع في حبها من أول نظرة وسرعان ما تزوج الاثنان.

وفي يوم من الأيام تذكرت فينوس الفتاة الشابة وأرادت أن تعرف فيما إذا غيرت الفتاة طباعها مثلما تغير شكلها، فأحضرت فأرا صغيرا ووضعته في غرفتها وعندما شاهدته الشابة قفزت عليه بسرعة دون سابق إنذار، عندها عرفت فينوس بان الطباع لم تتغير فأرجعتها إلى وضعها الطبيعي.

أصابع الشهداء في كل مكان

حسب الله يحيى

ولد في الموصل عام 1944 . ناقد مسرحي وكاتب قصصي، قام بتدريس النقد المسرحي في معهد الفنون الجميلة لعدة سنوات، وأسهم في ندوات ومؤتمرات ومهرجانات مسرحية عراقية وعربية عديدة . عمل في هيئة تحرير مجلتي "فنون" و "السينما والمسرح" . اعد وقدم عددا من البرامج الثقافية والمسرحية والاذاعية والتلفزيونية لعدة سنوات من تلفزيون بغداد . يعمل في الصحافة منذ عام 1964 .
نشر دراساته النقدية والقصصية والمسرحية في المجلات الثقافية العربية المتخصصة . بعد 2003 رأس تحرير مجلة "دجلة" التي كانت تصدرها وزارة الثقافة . ومن مجاميعه القصصية: "الغضب" 1967، "ضمير الماء" 1972، "القيد حول غصن الزهرة" 1974، "الحطب" 1974، "النهار يدق الأبواب" 1977، "هي امرأة عراقية" 1982، "الأشواق" 1986، "كتمان" 1989، "أنفاس" 1993، "أجنحة حجرية" 2001، "كوميديا الكاتب في الزمن الكاذب" 1999، كما أصدر مجاميع قصصية للأطفال منها "دفاع عن الفرح" 1977، و"الفراشات" 1977 . وأصدر دراستين هما: " فنارات في القصة والرواية" 1993، و"المسرح العراقي قضايا ومواقف" 2001 .

كنت أراقب سلوكه بشكل حذر.. أبحث عن كل ما يتعلق بالطفولة اليتيمة في شبكة (الانترنيت) واقرأ ما تيسر من موضوعات ودراسات لها صلة بهذا النمط من الأطفال .

ما كانت مراقبتي معلنة.. كنت اتنبه دائماً لئلا يحس بمراقبتي ومن ثم يحذرني ويتصرف بطرق قد تثير غضبي.

وفرت له كل أجهزة التواصل الاجتماعي والاجهزة والبرامج التي تحتوي على ألعاب حتى أسليه وابعث السرور في نفسه.. لكنه ظل منكسراً، وخجلاً، وكئيباً، ومهموماً، والدمعة هي الأقرب الى عينيه حال يرى مني أي عتاب او توجيه.. أحدق في أصابعه حين يضغط زر جهاز ما، او يلعب كرة مع زملائه في الحي..

كان يعاقبني يومياً بالاضراب عن الطعام لأي سبب يسوغ لنفسه اختلاقه او البحث عنه.. وفي علمه جيداً ان ذلك يثير استيائي وحزني.. فاكتم غضبي واستسلم للصمت.. لان عناده يلزمني السكوت دائماً عندما لا أفلح في إبعاده عن إضرابه.. وان الطعام لا علاقة له بنصائحي وتوجيهاتي.. مع انني بقيت حذراً لئلا اغضبه، الا انه كان يدبر أي امر او سبب ليمارس دوره في الاضراب..

كان هذا السلوك يجعلني احرص على قراءة دفاتره المدرسية ومراقبة سلوكه في المدرسة مع زملائه والمعلمين.. ومع

من يناديه ومن هم معه في الحي الذي نسكنه وفي تعامله مع أحب الناس اليه.. جدته التي احتوته واتخذته ابناً وحفيداً لا يعز عليه عز، ولا يحول دون تنفيذ رغباته وطلباته أحد.. في حين كنت اعد نفسي لتربيته تربية حسنة واعداده اعداداً سليماً للمستقبل، وكنت على خلاف مع زوجتي (جدته) بشأنه لا لأن أي واحد منا كان يكرهه، وانما لأننا نحبه حباً لا وسع لمداه.. ويعبر كل واحد منا عن هذا الحب بطريقته الخاصة .

ومع انني اعرف جيداً النتائج التي تحصل من جانب برهان وحذره مني ولا أقول كراهيته.. فذلك تعبير اتجنى فيه على حفيدي، وإنما أرى التمييز والموقع والأهمية التي يضع فيها جدته والموقع المحدد والقلق والحذر هو الأمر الذي يضعني في محنة .

كنت استاء وانا أرى احفادي وحفيداتي في احضان آبائهم وامهاتهم.. فيما أجد برهان ينظر الى الجميع بترقب وانكسار وأسى والدموع في عينيه كالعادة.. يمسك بأصابعه ويجربها بالحركة، او يعد اصابع قدميها ثم يعدو..

تجنبت ان اوثق صلتي بأطفال ابنائي وبناتي.. وشرحت اسبابي.. فيما كنت أبدو شديد الاهتمام ببرهان حتى وجدت احفادي وحفيداتي في حالة ابتعاد عني.. وبرهان في حالة من يدرك انني اطلب وده لا لأغيظهم وإنما لأكسب وده .

صباح اليوم نبهت احفادي وحفيداتي الى ما رأيته من مشهد جميل وذكي أقدم عليه برهان.. حيث لصق كل شهادة نجاح كان يحصل عليها في المدرسة الى جانب صورة والده ..

قلت لهم :

ان برهان يرضي والده وهو شهيد ويزف اليه بشرى نجاحه.. علق أحد احفادي بعد أن رفع اصبعه النحيفة الناعمة وسألني :

- جدي.. لكن والد برهان شهيد.. فهل يعلم الشهداء بنجاح أبنائهم ؟

حاولت اسكاته قبل ان يكمل عبارته لئلا تثير الحزن في قلب برهان.. لكنه مضى في حديثه حتى النهاية.. ولم يكن امامي الا ان اجيب :

- إسمع ياولد.. الاحياء والأموات من الآباء والأمهات على علم بنجاح او رسوب ابنائهم وبناتهم ..

أدخلني حفيد آخر في امتحان.. سألني وهو يرفع اصبعاً ربيعية:

- برهن على ما يأتي: كيف يعلم الشهداء وهم في قبورهم ؟

قلت بحزم وانا انظر الى برهان وهو منكسر الخاطر :

- ابني لا تنقل لي درس الرياضيات.. الشهداء لا يموتون، إنهم خالدون في قلوبنا وارواحنا وذاكرتنا.. ومادمنا لا ننساهم ونعتز بهم.. فانهم باقون.. يستقبلون أفراح النجاح وأحزان الكسالى أيضا .

وانتقلت الى موضوع آخر عمداً حتى لا ألحق بنفسي أسئلة حرجة أخرى.. ولا أثير المزيد من الحزن على وجه برهان.

الا انني فوجئت بسبابة برهان ترتفع طالبة السؤال.. وفوجئت به يسأل..

ما لم يسأله أحد من قبل.. ويبدو ان السؤال كان يعتمل طويلاً في أعماقه :
ـ جدي.. كيف استشهد أبي.. لماذا قتلوه وحده.. ماذا فعل حتى يستحق القتل ؟
وجدت نفسي امام امتحان آخر.. وبات لزاماً عليّ أن أجيب عن سؤال كان لابد من توضيحه لبرهان قبل هذا الوقت..
لم يكن وحده يصغي، كان كل أحفادي وحفيداتي يحيطون بي ويحدقون في وجهي.. وكأن سؤال برهان.. كان سؤالهم جميعاً.. أجبت :
ـ لم يكن والدك وحده.. كان معه عدد كبير من زملائه الذين جندوا انفسهم دفاعاً عن وطننا العزيز.. الذي احتل بعض مدنه المجرمون والقتلة الذين جاءوا من خارج الحدود ..
ارتفع أكثر من اصبع يسأل.. احترت من أجيب.. غير أنني اضطررت لسماع سؤال برهان :
ـ جدي.. كيف قتلوا الكثيرين ومعهم والدي كما تقول.. ولماذا يسمح للمجرمين ان يعيشوا من دون عقاب !
و.. و.. وأين قبر أبي يا جدي ؟
أوقعني برهان في شبكة من الاسئلة ووجدت نفسي في فخ أسئلة لا نجاة لي من تأثيرها إلا بسرد الحقائق كلها له ولأحفادي ... قلت :
ـ اسمع يا برهان.. اسمعوا يا أولاد ويا بنات.. هتفوا جميعاً بصوت واحد :
كلنا آذان صاغية يا جدو؟
مضيت أجيب موضحاً :
ـ الدفاع عن الوطن.. مثل الدفاع عن بيوتنا.. الوطن بيتنا الأوسع.. انه المكان الذي يوحدنا جميعاً ويتكون من وجودنا نحن ابناء هذا الوطن.. ولابد للشباب بما يملكونه من شجاعة ووطنية من التوجيه للدفاع عنه وصدّ كل عدو غاصب.. يريد ان يسلبنا أفكارنا وثرواتنا.. ويفرض علينا اسلوب حياة ظالمة وفاسدة.. فهل يرضيكم هذا ؟
هتفوا :
ـ لا .. لا
ومضيت احدثهم بلغة بسيطة تداوي اعمارهم الغضة وتفكيرهم اليافع :
ـ قبور الشهداء موجودة في كل شبر من هذا الوطن.. أما المجرمون والقتلة.. فانهم لن يفلتوا من العقاب.. إننا نلاحقهم ونرصدهم ونقاتلهم ونتصدى لهم.. وهاهي جثثهم العفنة تسقط يومياً.. وهذا عقابهم على ما جنته أياديهم من شرور .
كنت احدق شزراً الى برهان وانقلها الى بقية الوجوه.. أحسست ان كلماتي لم تكن مقنعة لهم.. فمضيت اوضح لهم :
ـ يا ابنائي وبناتي.. ألا يكفينا فخراً بأن أبا برهان كان يحرص على أن يكون مقاتلاً شجاعاً لم تتخل أصابعه عن حمل السلاح لمقاتلة العدو .. ؟
فأجابني برهان سائلاً :
ـ جدي.. يقولون ان ابي استشهد في كمين نصبه العدو.. تعال نذهب الى هناك لعليّ أجد أبي .. !
كادت الدموع تنهمر.. وجدت قلبي يتوقف عن النبض، وأفكاري تتشتت.. إختنق صوتي.. عالجت الموقف مجيباً:
ـ الكمائن ليس لها مكان محدد يا برهان.. ولا يسمح للمدنيين الدخول الى الأماكن التي تجري فيها الحروب .

عاد برهان يسأل :
ـ كيف نجد أبي اذا لم نذهب الى مكان الكمين .. ؟
أجبت بحزن يخنق كلماتي :
ـ لن نجده ولن نجد سواه.. والدك وكل زملائه سنجدهم يوماً ما أشجار نخيل تثمر رطباً.. ستتحول أصابع كل واحد منهم الى أشجار ترتوي بالمطر.. ثم تنمو وتملأ المكان.. الذي سيتحول الى غابات نخيل..

رحت أصف لهم ولبرهان عالماً جميلاً متخيلاً لأصابع الشهداء وقطرات دمائهم ونقاء أرواحهم وهي تحتضر وتنمو وتزهر ويمتليء الكون بالألوان والفراشات والعصافير..
خاطبت جمال عيونهم جميعاً.. فيما كانت عيوني تحترق بالدموع وانا أنظر الى برهان منكسراً حزيناً .

2015 /4 /9

زهوق في رحاب النغمات
(تلك الباقية أبدا)

عبد الله عبد الكريم

ولد عام 1984 في محافظة البصرة، وانتقل في العام 1991 إلى قضاء الصويرة في محافظة واسط، وأكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية فيه، وما زال ساكنا القضاء ذاته. بكالوريوس علم النفس في كلية الآداب – جامعة بغداد عام 2007. لديه اهتمام في الموسيقى، ويعزف على عدد من الآلات الموسيقية. عمل منذ العام 2009 في الصحافة، محررا ومقوما لغويا، ويعمل منذ العام 2010 محررا صحفيا في جريدة «طريق الشعب»، وما زال.
عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.

«لن يعلو صخبكم ودويكم أنغامَ السلام.. مديات الموسيقى رحبة.. متجاوزة التاريخ وتشوهاته. لن تطفئ نجماتِها دائمة البزوغ، أوشحتُكم السوداء..».

– آخر صرخات الكونسيرت ماستر(1) مراد خيري –

رغم انه لم يتجاوز الستة والعشرين ربيعا، إلا انه كان يتمتع بشعور كهولي. فهو ما فتئ يتأمل أولى اللحظات التي أدرك بها العالم في ذلك الزقاق البغدادي الضيق، ويحسبها بعيدة موغلة في الغموض، لعلها فورات وجوده وتساؤلاته التي لا تقوى على الإفلات من ربقة اليأس، والشؤم من حياة لا خير فيها.

«لا أعتقد أن لفوارق العمر أيَ أهمية.. نحن كشباب، متساوون مع الطاعنين في السن حظا وًاحتمالا، فلا غرابة إن متنا معهم في يوم واحد (...) في هذا العالم الخطير لن تندهش إن بدوت كهلا مؤهلا لخوض تجربة الموت، حتى وإن كنت شابا، ألا تعلم أن رصاصة واحدة بإمكانها أن تختم حياتك وأنت في مقتبل العمر؟ (...) دعنا نقنع أنفسنا بأننا أكثر حكمة من الشباب، فنحن شيوخ كهول، ولكننا بوجوه خالية من الغضون، ورؤوس لم تخضب بالبياض، وما زالت ظهورنا صامدة أمام موجات الانحناء، وقلوبنا ندية عاشقة».

– مقتطف من حديث له مع أحد زملائه في لحظة يأس حامز –

لا تجذبه جلبة الشباب ولا جعجعاته وقهقهاته المتلاطمة بين جنبات المقاهي والأسواق والشوارع والساحات العامة، ولا يلوي على شيء من الثواني البهيجة التي تتبخر بعد وصولها لحظة الصفر. فاعتقاد الكهولة بالنسبة له ضربٌ من الحكمة والوقار، والحياة لا تعني شيئا دون هذيانات نغمية تتفجر في الأحاسيس. وعيناه اللتان أوشكتا أن تدركا ضعف بصرهما، لا تريان في الأفق غير مدرج موسيقي(2)، وعلامات تحويل (3)، وسلالم موسيقية (4) لا نهائية الامتداد.

هكذا كان الكونسيرت ماستر مراد خيري،

الذي لم يكن يرغب، أبدا، في إطلاء كمانه الإيطالي بدهان جديد، رغم الملوحة التي غزت (سطحته) البنية، والتي سببها الدقيق الغباري لمادة الدامر(5)؛ إيمانا منه بأن من تطاله الشيخوخة ستصدر عنه حكم وأقوال أثيرة، وإن الآلة الموسيقية كلما تعتقت بلغت الأصالة.

وكذا هو حال كمانه المصنوع لدى ورثة أسرة ستراديفاري(6) الإيطالية الشهيرة، الذي جلبه إليه أستاذه المايسترو(7) نبيل يعقوب من إيطاليا في آخر رحلاته الموسيقية، قبل أن تدركه تلك الرصاصة اللعينة التي ثقبت جمجمته وهو يسعى مترجلا أحد شوارع منطقة اليرموك في بغداد وقت المساء. وقد سفح على إثرها دمه قانيا متمعجا، وتشظت عظام رأسه رميما، وزهقت أرواح ألحانه القابعة في دماغه بين خيوط الدخان الملوث.

إن كمانه الشائخ الذي أبى أن يزيل عنه مسحات الكبر والرفعة، كان ذا نغم نقي مفرط في السحر، أهّله لأن يصبح أهم آلة لدى «أوركسترا السلام».. نعم أهم آلة أدى بها صاحبها الكونسيرت ماستر مراد كونشيرتوات(8) كمان لموسيقيين عالميين، الذي، وبفضل صوت الآلة أيضا، اختاره أستاذه الراحل بديلا عنه لقيادة الأوركسترا في حال غيابه بفعل عارض ما.

كان المايسترو نبيل رجلا ذا مزاج غريب نوعا ما، فهو بفعل انغماسه في غياهب الأنغام العميقة، وتعبيراته الحركية المكلفة، وتمثيله الإشارات الموسيقية بيدين بارزتين نحيفتين ذات ترددات إيقاعية متراتبة، بل بجسد ممشوق يهتز وينود مع دلالات الميزان الزمني(9).. بفعل ذلك كله حتى تكاد تراه آلة بيانو تتراقص على خشبة المسرح.. تلك الآلة التي استنطقها كثيرا وهو يعزف فيلهارمونيكات(10) سباستيان باخ ذات الطفرات النغمية. وكان تلميذه مراد يعيش طور امتزاج حواسيّ معه، يتجلى كثيرا عند تأديتهما المقطوعات الثنائية الهارمونية(11) بانسجام تام، يخيل للمتلقي عندما يسمعهما، أنه يسمع آلة واحدة تنطق لغتين معا، وفي آن.

«عزيزي مراد، إنك فنان حالم، لا تتوانى عن النزوح إلى جادة الخيال منقبا عن أرواح نغمية ساحرة تمنحك الفرادة والمغايرة. وبين يديك السابحتين في معين الأنغام، والمتصفتين بالقدرة على التكنيك الموسيقي العالي، آلة كمان شجية رطيبة النغم، لها أن تفصح عن ألمها في لحظة تتطلب ذلك، وتعبر عن سرورها في لحظة أخرى تتطلب السرور. لذا، وبسبب هذه المؤهلات، آثرت اختيارك كعازف سولسيت(12) لأي كونشيرتو كمان تقرر الأوركسترا تقديمه في المستقبل، وكمايسترو بديل في حال تغيبي بسبب طارئ ما اختتم به حياتي. فأنت خليق بذلك. لا تنس، كرّس اهتمامك بتلامذتك الموسيقيين».

– طرف من وصية للمايسترو نبيل يعقوب عُثر عليها في أحد أدراج مكتبه بعد موته –

في هذا العالم المحفوف بالمخاطر، الذي ينحسر فيه الضمان لحياة يوم آخر، وفي لحظة قراءته طرف الوصية الذي خصص له، أدرك مراد أن له ورثة من الموسيقيين الذين بإمكانهم الإبقاء على حياة هذا الفن العريق في المستقبل، وإنعاش مسيرته وتعزيز صموده في حال تعرض هو لرصاصة مماثلة لتلك التي اخترقت جمجمة أستاذه، وراودته حينها جذوات نصر ألهبت في قلبه وجيب الفخر والحماس، كونه استطاع أن يعلّم جوقة من التلاميذ الفتية، العزف على الآلات الموسيقية في ورشة دورية نظمها في

منزله، بيد انه ظل يراقب ما يعتلج في رأسه من أفكار مضطربة، وتساؤلات مرة:
ـ هل يتوجب علينا – نحن الموسيقيين – أن نوصي بما يمكن أن يحافظ على رسالتنا الفنية بعد أن يثقب الرصاص رؤوسنا؟ هل هذه رغبة في الخلود، أم محاولة لتأصيل تاريخ هذا الفن الصوتي العريق؟ لماذا الموت بهذه الطريقة البشعة التي تخرق قوانين العمر ومعادلاته؟ هل بات من الصعب الوصول إلى جادة السلام الأهلي بتجاوز وحوش التاريخ؟
– إنها إحدى إيجابيات الجانب السلبي من التاريخ. أجابه زميله عازف الأوبوا يحيى كمال، الذي كان متأثرا بفلسفة فريدريش هيغل.
– ولكن ما معنى ان جانبا سلبيا يكون إيجابيا في الوقت نفسه؟ سأله مراد.
ابتسم يحيى وأجاب صديقه قائلا:
– إن الطفرات النوعية ليس لها معنى في حال أهملت تصفية حسابها مع الواقع، وتجاوزت التاريخ وترسبات الإرث الموغل في القدم.. هذا الإرث الذي أعادت الجماعات الأصولية الراديكالية عجنه من جديد، لتنتج أشكالا وتجسيدات جديدة لا علاقة لها بالعجينة الأولى. دعني أوضح لك، انه من الضروري أن نتعرض للموت والقتل والدمار والذبح والتشظي مع المتفجرات.. من المهم جدا أن نواجه هذه المرحلة، ونفكك إيديولوجياتها المتكلسة معلنين عن تبرعنا بأنفسنا كقرابين مقدسة لمن يأتي بعدنا. فبتجاوزنا الأفكار البالية، وبعدم مواجهتنا إياها وجها لوجه، لن نصل إلى التطور والرقاء الحضاري.. إذ لا يمكن لحضارة أن تبنى من دون تصفية حساب شاملة مع الماضي، وتقديم أضاح وسفح دماء. وبذلك ان المرحلة الوحشيّة التي نمر بها حاليا، هي الجانب السلبي من التاريخ الذي يجب أن ننغمس في أزماته، ونجتازها عبر التفكيك والنقد والمواجهة، وكل هذا تمهيد للوصول إلى بر الحضارة الأمين. وهذا ما شهده الغرب قبل أن يطأ أرض التنوير، وقد ضمّنه هيغل في الجانب التاريخي من فلسفته.
– ولكن، هل ترى أن الجانب السلبي من التاريخ سيشمل الموسيقى أيضا؟ استدرك مراد.
وكعادته أجاب يحيى مبتسما:
– نعم، فالموسيقى شبح غامض استطاع أن يصمد دهورا أمام عتاة التخلف. وهي كلغة عالمية لا يتحدد فيها دال ومدلول، ولا تقبل تأويلا حرفيا وانحطاطيا؛ لم يستطع أرباب الأصوليات تحريفها وتسخيرها لإيديولوجياتهم السمجة. لذلك، وبسبب تعاليها وصمودها، أصبحت الموسيقى أحد أبرز أعدائهم. فهم يتصورونها تشتم مقدساتهم وتهجوها بلغة لا يجيدون الرد عليها بلكنة مماثلة، وإنما بهجمة دموية وحشية. ولهذه الأسباب ستدخل الموسيقى كجبهة لمواجهة الأصوليات الأرثوذكسية(13) ضمن وقائع الجانب السلبي من التاريخ.
لم يقتنع مراد تماما بكلام زميله المأخوذ بـ هيغل وفلسفته، لكنه، ولكي يمارس حياته من دون منغصات، بدأ يتناسى ما يعج به واقعه من شرور وأخطار، وما يتلوه عليه عقله من هذاءات تزيد حدة اضطرابه. ثم شمّر عن نفسه غلالة الهموم عبر تبديل أوتار كمانه التي أصبحت بالية، بأخرى من نوع «توماستك»(14).
بعد أن ربق الأوتار جيدا، سارع إلى ضبطها، أربعتها، على الطريقة الغربية (صول– ره– لا – مي) من الغليظ إلى

الحاد، ليفتتح العزف عليها بالحركة الرابعة من «سيمفونية الربيع» لـ روبرت شومان، التي أداها بضربات قوس متقطعة «ستيكاتو»(15)، والعرق ينضح من جسده فاضحا قلقا دفينا، ورغبة في إدراك أسباب ما يجتاح هذا العالم من شرور.

في المساء وبعد احتجاب الأصيل وخفوت أديم السماء ونزوحه نحو الأفق المدلهم، كان على موعد مع التمرين الموسيقي الجماعي، وقبل وصوله قاعة التمرين، اتصل بزميلته، وعشيقته في الوقت نفسه، عازفة التشيلو أروى عزيز، لكي ينفض في حجرها ما يعتمل في داخله من آلام غامضة ربما تضعف أداءه في العزف.

على الرغم من هاجسه الكهولي، إلا انه لم يستطع الصمود أمام نوازل العشق؛ حاجة لديه لمن يرتق الندبات المستوطنة في تجاويف سطح قلبه، ويزقه أقساط حنان مَرةً، ومَرةً آلاما ممتعة تَجبُل في داخله أحاسيس خلاقة يفرغها من جوف كمانه حينما يعزف عليه. فضلا عن ذلك انه يؤمن بأن الحب جوهر متعالٍ سام، متجاوز حَوائل الزمن، غير ملزم بقانُون آو معيار، ولا تعيقه حدود أو نهايات.

«الحبُ.. ذلك الكائن الغريب الهارب الذي يخلف في مشاعرنا لزوجة تنفخ فينا الحياة مرةً، وتورثنا الزؤام في أخرى. الحبُ يودع في دمائنا حشرات صغيرة، تدغدغ تجاويف أوردتنا لحظة، وتلدغها في أخرى. الحبُ لا يشيخ ولا يتطفل، لا يكون بغيره، بل غيرهُ من يكون به، معلول بلا علة. إنه المطلق النسبي، العذب الأُجاج، المتناقض المتساوق. الحب ينتهي مع امتداد الوصل. لا يستقيم بقران أبدي، يعتاش على حسراتنا وآلامنا. يتضخم كلما اتسعت الهوة بين الحبيبين، وحالت دون لقاءاتهما».

– طرف من رسالة بعثها لعشيقته أروى –

كان قوام أروى هَاذيا، كثير الشرود نحو أقانيم حركية لا نهائية، يتميز بنحوله، وببروز أطرافه الرشيقة. ويدها اليمنى الحانية تمتاز بدفء رؤوم. فيما أناملها تبدو لمن يراقبها، كأنها أرجل عنكبوت تلاعب أربعة أوتار غليظة شدت على آلة تشيلو سمراء.

أكثر ما جذب الكونسيرت ماستر إلى أروى، ابتسامتها المتكلفة بشفتين عجفاوين، وتقلصات عضلات وجهها، وأسنانها المبللة التي تصطك حينما تؤدي قطعة موسيقية على طريقة عازف التشيلو، المأخوذة به، جانوس ستاركر.

على جادة شارع المغرب، وحيث اللقاء تحت الشجرة نفسها التي كانت تسترهما أوقات الهجير الآبي وهما ينتظران حافلة نقل الركاب – تلك الشجرة التي كثيرا ما تفيّأ ظلالها الوارفة – بادَرته أروى التحية المفاجئة التي نبهت مستقبلاته الحسية المشدودة.

– متى وصلت؟ سألها الكونسيرت ماستر.

– قبل قليل، أَما زلت قلقا أيها الكهل الطاعن في السن!؟

– نعم، على أصابعي، وعلى الموسيقى أيضا! أنهم يريدون لهذا الفن انطفاءً، ألم تشاهدي مقاطع الفيديو التي رفعت على مواقع التواصل الاجتماعي الالكترونية، والتي أظهرت وحشيتهم وهم يحطمون الآلات الموسيقية ويضربون العازفين ضربا مبرحا، معلنين عن فتاوى توعدية تجيز الفتك بأي شخص يستمع إلى الموسيقى؟ والأدهى من هذا كله، ذلك الملتحي الذي فجر نفسه وسط فرقة أوركسترالية.

قطعت أنفاسها برهة، وواسته قائلة:

– لا تقلق يا عزيزي، نحن بعيدون عن

صخبهم وضجيجهم، هلم بنا إلى التمرين. فالزملاء ينتظروننا بصبر جميل.
– إنك لا تأبهين بما يحدث من وقائع عابثة. ألا تخشين من مجهول ما يجزئنا أربا. استدرك الكونسيرت ماستر.
– أرجوك حبيبي، لا تثر قلقي، ورغم ذلك أنا على إيمان بأن الفن لا يحارب إلا بالفن، وهؤلاء الهمجيون لا يجيدون العمل على الآلات سوى الجارحة منها، وهي حتما ليست بقادرة على قطع ألسن أوتارنا. اختتمت أروى حديثها ليطرقا السبيل نحو قاعة التمرين.
كانت أنغام سوناتا أليغرو(16) «السلام» سي بيمول مايجر، التي ألفها المايسترو نبيل يعقوب قبل اغتياله ودوّنها، تخلق ما يمكن أن نطلق عليه شبحا في قاعة التمرين، حتى بات الكونسيرت ماستر مراد، يرى أستاذه الراحل منتصب القامة، يلوح للعازفين بعصاه النحيفة، وخصلات شعره الأشيب تتطاير مع اهتزازات جسده، ويده الثانية يرمز بها إلى ميزان اثنين على ثمانية(17).
كان الكونسيرت ماستر مراد، ضمن قسم الكمان الأول الذي يضم 14 عازفا تقع عليهم مهمة تضمين السوناتا أليغرو بتوليفات هارموني. فالحركة الأولى رباعية متتالية: (سي بيمول – دو – ره – مي بيمول)(18) تؤدى بأسلوب ذي إحساس «فيبراتو»(19). أما الحركة المقابلة، تؤديها مجموعة الآلات الهوائية الخشبية وهي: (2 أوبوا سولو – 2 كلارنيت سولو – 1 كونترا فاجوت – 3 فلوت سولو – 1 كلارنيت باص)، ونغماتها كروماتيك(20) خماسي، وهي: (دو – سي – سي بيمول – لا – لا بيمول). بينما موسيقى السوناتا أليغرو الرئيسة، يؤديها قسم الكمان الثاني المؤلف من 12 عازفا، بالاشتراك مع 10 عازفي فيولا، 6 كونترباص، 8 تشيلو، فضلا عن مجموعة الآلات الهوائية النحاسية التي تكرر نغمة سي بيمول جواب مع بداية كل مازورة(21)، ويؤديها 7 من عازفي كورنو، 3 ترومبيت، 3 ترمبون توبا. وتفتتح السوناتا أليغرو الرئيسة بضربتين على آلة التمباني الإيقاعية، ثم تنطلق الأنغام بأسلوب «جليساندو»(22)، وهي: (صول – سي بيمول – سي بيمول – سي بيمول – لا – صول – فا – مي بيمول – ره – دو – سي بيمول غليظة، ألخ..).
كان التمرين شاقا بالنسبة للكونسيرت ماستر مراد. فهو يؤدي مهمتين في آن واحد، وهما العزف وقيادة الأوركسترا، إلى جانب مهمة ثالثة تتطلب انتباها وهدوءا نفسيا، وهي عزف سولوات(23) الكمان التي تتخلل السوناتا أليغرو الرئيسة.
وعلى الرغم من ضيق الفترة الزمنية الفاصلة بين التمرين وموعد الحفل، استطاع الكونسيرت ماستر مراد بحذقه ومثابرته وجديته في العمل، أن يتمم تدريب الأوركسترا على أكمل وجه. إذ إنها أدت (جنرال بروفا) قبل يومين من الحفل، الذي تقررت إقامته في مناسبة مرور أربعين يوما على رحيل المايسترو نبيل، وأمام حشد من النخب الموسيقية.
في يوم الحفل، اجتاح الكونسيرت ماستر مراد قلق مضنٍ تجاه أشياء مجهولة، يختلف تماماً، نبرة وحِدَّة، عن قلقه الوجودي الذي أصبح غريزة سافرة لديه. فقد بات يراجع حساباته، ويسائل نفسه، هل إنني متأكد من أن الاوركسترا ستؤدي السوناتا أليغرو بطريقة تثلج قبر المايسترو نبيل؟ هل أنا مرتبك؟ لا اعتقد ذلك! إذن أنا خائف من حدوث جائحة ما؟ لربما سينقطع أحد أوتار كماني وأنا أؤدي سولو! أو سيعتذر

بعض العازفين الرئيسين عن المشاركة بسبب طارئ ما، ولكن، لا اعتقد ذلك، انهم متحمسون للمشاركة.
قبل العرض ببضع دقائق، أحس برغبة جامحة في نفسه، لأن يقول أشياء لحبيبته عازفة التشيلو أروى، لم يمنحه الماضي فرصة لقولها، ربما هذا الأمر هو ما كان يثقل رأسه ويثير قلقه. فقد أكد لها عهده على الوفاء والإخلاص حبا وعشقا، والضياع في عينيها هياما، وانه حينما يعزف مع الأوركسترا يتجه تركيزه إلى ناحيتين، الأولى أنغام التشيلو وحركات أصابعها الرشيقة، والثانية ما دوّن على النوتة الموسيقية. فيما صدره ينبض شوقا لاحتوائها:
– حبيبتي، إذا فرض علينا فراق قسري لا تندهشي. فنحن الآن نشهد زمنا انحسرت فيه المفاجأة والدهشة والغرابة، وتفاقمت فيه فرص الاحتمال. لا تستغربي إن وجدتني يوما ما مسجى على أحد الأرصفة والدماء تحيطني من جميع الجهات، كأنني جزيرة وسط بحر قان.. ولا تأخذك الريبة بأصابعي التي أخلق بهًا الأنغام، إن وجدتها يوما ما مغروسة في أصيص فخاري، أو غير ذلك.. كل شيء سيفنى في هذا العالم، إلا الموسيقى التي ستبقى حاضرة في ذاتها، وفي غيرها. أما بالنسبة لما أحمله من حب تجاهك، لا تخافي، انه لن يتبخر أبدا، سيبقى عالقا في زوايا الأمكنة التي شهدت يوما لقاءاتنا وقبلاتنا وأحضاننا، وسيتحسسه العاشقون بعدنا، إن حلوا في تلك الأمكنة نفسها.
حاليا، أنا أحمل في داخلي ضميرا راضيا، ودوما ما تعتريني نوبات فخر كوني حققت ما كنت أرومه وأصبو إليه، لحنت، درّبت تلاميذ، عزفت أمام حشود من الذائقات، صنت مسيرة الموسيقى بشرف، نلت ثناءً كبيرا، أحببت، عشقت...
– كفاك جنونا، قاطعته أروى بحزم.. سيرفع الستار بعد دقيقتين..
كانت صالة الحفل تبدو للناظر إليها من على خشبة المسرح، بيضوية الشكل، بأرضية حمراء، مثبتة عليها صفوف من المقاعد الخشبية المتراصفة مع بعضها، وقد امتلأ نصفها الأمامي بالحاضرين الذين تتصاعد أنفاسهم وأصواتهم وقهقهاتهم الهامسة لتلتقي بالأضواء الصغيرة الخافتة المثبتة على السقف ذي التصميم القبيي. فيما الجدران كانت مطلية بلون وردي باهت مائل للبياض.
ورغم ما يربو على أربعمائة عين حاضرة تركز مبحلقة في وجوه العازفين وآلاتهم الموسيقية، لم يأبه الكونسيرت ماستر مراد لما قد تعكسه موسيقاهم من جمالية أو قبح على انطباعات الحضور. فهو قد أحس أن سائلا محقنا يشبه النجيع اندلق في معدته، ربما حسرة اعتادته لتأثره بفقدان المايسترو نبيل، الذي بات هو الآن بديلا عنه.
وبعد صمت مطبق لف المكان، ثم إشارة منه إلى عازف التمباني ليعلن الافتتاح بضربتين متتاليتين هزتا الوجوم الذي احتل الحشد الحاضر، رفع الكونسيرت ماستر يده اليمنى مشيرا إلى ميزان اثنين على ثمانية. فباشرت الأوركسترا بأداء الحركة الأولى من السوناتا ألغيرو، لتمتزج الأنغام بتوليفات هارمونية رباعية، تصدح بين تتالياتها نغمة سي بيمول جواب الصادرة عن مجموعة الآلات الهوائية النحاسية. فعبقت في المكان خيالات تكاد تعود إلى القرن السابع عشر وأوربا ضاجة بأصوات السيمفونيات الشجية. فالقرن الثامن

عشر وسوناتات بيتهوفن وسيمفونيات فاغنر تصدح على مسارح مدينة برلين، ثم التاسع عشر وفيلكس مندلسون وعصر الرومانسية، ثم العشرين، فالقرن الواحد والعشرين وعطن التفجيرات الإرهابية يخنق رئتي بغداد ويصبغ جنباتها بالدماء البريئة.

لوَّح الكونسيتر ماستر مراد بقوس كمانه للعازفين، مشيرا إلى الحركة الأخيرة من سوناتا أليغرو «السلام»، فتداخلت الأنغام في ما بينها بتوليفة هارموني كروماتيك.. تسارعت ضربات التمباني والصنج، والآلات الهوائية تصرخ مرعوبة كأطفال صغار أمام حيوان مفترس. فيما ضجيج الرصاص شكل إيقاعا سريعا، وأنغام الآلات الموسيقية بدأت تتناقص. الصخب يعلو.. الرؤوس تتكوم على خشبة المسرح حمراء قانية.. أروى تسبح بمزيج من دمائها ودماء العازفين، وآلة التشيلو تغفو على ذراعها اليسرى كطفل حالم.. الجانب السلبي من التاريخ يتجسد على جثمان يحيى كمال.. ضربات التمباني تُمسخ دويا عاصفا، حزام ناسف يشظي جسدا ذا وجه ملتح، جمهور يزعق. ملتح آخر يترجل شاقا صفوف الحشود الهاربة، حاملا بندقية، ومتوجها صوب خشبة المسرح.. الكونسيرت ماستر يجد نفسه شبه وحيد. يصر على تأدية آخر مازورات السوناتا أليغرو مودعا زملاءه بعينين مغرورقتين بالدمع، رصاصة تخرق كمانه لتستقر في كتفه اليسرى، يتهاوى الكمان على الأرض، يصرخ هو بحنجرة واثقة:

لن يعلو صخبكم ودويكم أنغام السلام.. مديات الموسيقى رحبة.. متجاوزة التاريخ وتشوهاته. لن تطفئ نجماتَها دائمة البزوغ، أوشحتُك السوداء..، هناك من سيكمل مسيرتنا. كل شيء خلا الفن والحب والشيخوخة باطل!».

الهوامش:

(1) العازف الأول في الأوركسترا الذي يتولى قيادتها نيابة عن قائدها الأساس.

(2) مجموع سطور النوتة الموسيقية التي تدون عليها الألحان.

(3) علامات توضع في بداية المدرج الموسيقي تشير إلى رفع أو خفض النغمة الموسيقية، نصف درجة أو ربع أو ثلاثة أرباع أو درجة كاملة.

(4) السلم الموسيقي: سبع نغمات متتالية صعودا أو هبوطا، تختتم بدرجة ثامنة تكون أما قرارا للأولى في حالة الهبوط، أو جوابا للأولى في حالة الصعود. مثلا: (دو – ره – مي – فا – صول – لا – سي – دو)، و(دو) الأخيرة هي جواب لـ (دو) الأولى.

(5) مادة صلبة بنية اللون قابلة للتفتت، تمرر على شعر قوس آلة الكمان بالتناوب، لتنعميه من أجل استخراج أنغام صافية عند العزف على الأوتار. وتخلف هذه المادة التي تعلق بشعر القوس، غبارا أبيض اللون على وجه الكمان وأوتاره.

(6) وهي أسرة إيطالية تشتهر بصناعة الكمانات الأصيلة والثمينة. وتعود تسميتها إلى الإيطالي انطونيو ستراديفاري الذي عاش بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويعد من أعظم صانعي آلة الكمان في العالم.

(7) وهو قائد الأوركسترا الذي يتميز بمعرفته الأكاديمية الواسعة في نظريات الموسيقى وعلومها، وغالبا ما يكون عازفا محترفا على آلة موسيقية أو أكثر.

(8) كونشيرتو: نوع من التأليفات الموسيقية تؤدي حركاته الرئيسة آلة موسيقية واحدة أو اثنتان، أو ثلاث، ومهمة بقية الفرقة الموسيقية هي مرافقة عازف التأليف.

(9) التقطيعات الزمنية للمقطوعة الموسيقية (الإيقاع)، وتكون متساوية، وتدون على النوتة الموسيقية على شكل كسر، مثل 2/ 4، 4/4.

(10) نوع من التأليفات الموسيقية التي تمتزج فيها مجموعة نغمات متآلفة ومنسجمة، وفق قوانين ثابتة.
(11) هارموني: صوت مبني من تآلفات نغمية متجانسة، تساهم في دعم اللحن، وتنظم وفق قواعد وقوانين.
(12) العزف الانفرادي.
(13) في المسيحية تعني «الالتزام في العقيدة الدينية كما مثلتها المذاهب في الكنيسة القديمة»، ويستخدم هذا المصطلح حاليا بين أوساط المفكرين الغربيين والشرقيين، ويشار به إلى الجماعات الدينية التي ترى أن الصواب في ما أقرته أسلافها في الماضي، وإن الحياد عن هذا (الصواب) يعد خروجا عن الفرقة أو الملة.
(14) شركة نمساوية شهيرة متخصصة في صناعة أوتار الآلات الموسيقية، وغيرها من الملحقات المتعلقة بالآلات الموسيقية.
(15) عزف النغمات الموسيقية بضربات متقطعة. وعلى آلة الكمان تعزف بسحبات قوس قصيرة.
(16) شكل من أشكال المؤلفات الموسيقية المعقدة التي تضم ثلاث حركات أو أربع، وتؤدى سريعة في العادة.
(17) ميزان موسيقي، يكتب في بداية المدرج الموسيقي على شكل كسر، ويحدد عدد التقطيعات الزمنية الموسيقية.
(18) بيمول: علامة تحويل تعني – 1/2، أي نزول النغمة الموسيقية نصف درجة. فحينما نقول سي بيمول، تعني نصف سي.
(19) عزف النغمة الموسيقية بإحساس واهتزاز نسبي.
(20) قطعة موسيقية تعزف بنغمات متتالية طول كل منها نصف درجة.
(21) جزء من الجملة اللحنية ذو زمن محدد. ويدون على النوتة الموسيقية على شكل خانات تبدأ وتنتهي بخط طولي من أعلى المدرج الموسيقي إلى أدناه. وتتحدد عدد أزمان المازورة الواحدة بالميزان الموسيقي الذي يدون على شكل كسر.
(22) الانتقال السريع والمتصل من نغمة موسيقية إلى أخرى.
(23) سولو: مقطوعة موسيقية يؤديها عازف منفرد.

في الصحافة الثقافية العالمية

ترجمة: جودت جالي

مسرح:
(تصميم للفردوس)... دراما عن النازيين في كل زمان

لقد ألهمت خرائبُ مزرعة مورفي، وهي بقايا مجمع يعود الى ما قبل الحرب العالمية الثانية يقع في شمال سانتا مونيكا، مسرحيةً جديدةً عنوانها (تصميم للفردوس) للكاتبة (لوريل م. ويتزورك) عرضت في هوليوود. كل واحد من ممثليها السبعة له قائمة طويلة من الأعمال في الأفلام والتلفزيون والفيديو، وقد وصلت المسرحية في العام 2015 الى القائمة ما قبل النهائية لمسابقة (هيومينيتاس) التي يجريها مركز (مسابقة جماعة المسرح). تقع أحداث (تصميم للفردوس) في أواخر سنة 1941 خلال الأسابيع التي سبقت معركة (بيرل هاربر) على أساس أحداث حقيقية، تخيلت (ويتزورك) فيها العلاقة بين المعماري الأميركي ذي الأصل الأفريقي (بول ريفير وليامز) الذي صمم العديد من البنايات الحكومية ودور نجوم السينما، وبين زوجين أميركيين كلفاه بتصميم مجمع وميدان تدريب للمتعاطفين مع النازية وأخفيا عنه طبعا حقيقة مشروعهما.

هذان الزوجان هما في الواقع (وينونا ستيفنس) وزوجها نورمان (إسمهما في المسرحية كلارا وهيربيرت تايلور) اللذان إشتريا 50 فدانا بقصد إقامة قاعدة مكتفية ذاتيا للنشاطات النازية في الولايات المتحدة مع مخازن للماء والوقود وملجأ من القنابل، ومنام بأربعة طوابق فيه 22 غرفة نوم، وملاجئ ومبان متنوعة.

لقد بنت (ويتزورك) مسرحيتها على أساس تاريخي وركزت على العلاقات العرقية وإخضاع النساء في السياق الأوسع للتفكير النازي، وخصوصا حركة التطهير التي تلقت دعما كبيرا من عدد من الشخصيات والهيئات في الولايات المتحدة بضمنهم إعلاميون وعاملون في مجال الصحة، والهدف هو «تحسين» المجتمع بإستئصال "المعاقين" و"ضعيفي العقل" و"المريضين عقليا" والفقراء الذين يعيشون من الأعمال الخيرية، وبكلمات أخرى تنظيف أميركا من غير البيض، والمسرحية تظهر كيف يقع الخدم تحت ضغط مزدوج باعتبارهم مهاجرين بالإضافة الى ما ينعكس عليهم من وطأة سيطرة سيد المنزل (الممثل ديفيد جان) على سيدتهم كلارا (الممثلة ميريديث توماس)، وتكون صدمة كلارا عظيمة

عندما يظهر المعماري بول وليامز (الممثل ريجي ديفيس) الذي نصحها الأصدقاء بتكليفه فإذا به أسود.
ترددت كلارا في الاتفاق معه ولكنها اكتشفت فيه اهتمامات مشتركة معها. تقول الكاتبة: "أردت أن أظهر كم هزت إنجازات وشخصية وليامز الأفكار المسبقة لديها عن الكيفية التي يجب أن يسير العالم بها". تكشف لنا ويتزورك عن المؤسسات والجمعيات التي تمولها الجماعات المؤيدة لألمانيا والمعارضة لدخول الحرب حتى 7 كانون الأول 1941، وتبين لنا أن من بين أركان آيديولوجية هذا الحشد غير الديمقراطي معاداة الشيوعية والنقابات... ولا عجب.
توجد من بين الشخصيات السبعة شخصيتان، العميل النازي ولفغانغ شرايبر (الممثل بيتر ماكغلين) الذي يعد هيربيرت باحتكار قطاع صيد السمك بعد سيطرة النازيين على الصناعة الأميركية، ورجل جنوبي غامض (الممثل ستيف مارفيل) ذو نشأة نازية تبدو شخصيته الوحيدة في المسرحية بحاجة إلى إيضاح أكثر. أدارت المخرجة (لورا شرايدر) هذا الفريق من المحترفين. تبدو بعض الشخصيات، مع كونها مطورة تماما، من الشخصيات النمطية التي تعود إلى الأربعينيات مثل الألماني النازي والخادمة الصينية. لكن الشخصيتين الأكثر أصالة ومرونة، نجدهما في الزوجين وليامز، وفي الواقع فإن جماليات الأربعينيات مهيمنة في المسرحية بمثابة تحية من المؤلفة لتلك الفترة، مع إشارات للفلسفة النازية وربط معاصر لها قصدا. إنها حكاية عما كان يدور في الماضي وما يمكن أن يحدث مستقبلا في البلد الذي نعيش فيه.

عرضت المسرحية خلال شهر أيلول 2016 في لوس أنجيليس
إريك غوردون/ جريدة بيبلز وورلد، جريدة الحزب الشيوعي الأميركي

شعر:

كلمات روبيرت إدواردز العاملة

"يا أيها النساء والرجال، نحن بحاجة الى فولاذكم./ أقدامكم هي الأسس وأذرعكم هي العوارض./ مواهبكم المسامير والملاط. إجلبوا كل ما تملكون، نحن نحتاجه كله لأن ما نصنعه هو أنفسنا".

تعبر قصائد روبيرت إدواردز عن نزيف حقائق الصراع الطبقي، ولكن رحلته الشعرية في الوقت نفسه ليست مستقيمة، وهي كالحقيقة تتميز غالبا بالصور المفاجئة والانعطافات وإيقاعات لغة أميركا الشمالية. تستمد مجموعة (العمل الكبير 1978 – 2004) قوتها من تكافلها مع الحركة العمالية وتستند الى مسلمة أن العمال يملكون القوة والمهارة والذكاء لحكم مجتمع، وتجزم بإمكان العمال خلق ثقافتهم العمالية الطبقية. إن ثقافة كهذه تتضمن إستخدام أكثر التقنيات الأسلوبية المطورة في ظل الرأسمالية ولكنها تتكلم بلسان الشغيلة وتعكس تجاربنا ونضالاتنا.

تنتهي قصيدة (يوم التنصيب كانون الثاني 2001) بسطر "كان الانقلاب ناجحا" والمقصود هو تسلم جورج دبليو بوش لرئاسة الولايات المتحدة بتلاعب الحزب الجمهوري وبالتواطؤ مع وسائل الإعلام التجارية والمحكمة العليا، وقصيدة (تحقيق) تنتهي بسؤال بلاغي تسبقه لوحة من الصور بقوة جداريات الرسامين العظام:

"رجال دولتنا، أولئك السياسيون البدينون بإحتقار الشعب/ ويحملون

مسدسا نوويا موجها/ الى رأس العالم الرهينة-/ لماذا يظلون يحفرون خنادق في (وول ستريت)؟/ ألا يرون الملائكة يهبطون/ من السماوات المغبرة، لا حول لهم/ ليأخذوا مكان العامل المصاب؟ ».

من ناحية أخرى فإن قصيدة (ظلام أميركي) هي قصيدة حب ورسالة رسمية معا: "ما رأيك أن أعطيك كأسا فارغا وأعد/ أن أملأه السنة المالية التالية؟/ هل تقول: لا شكرا؟ أعليك الذهاب؟/ أعليك أن تتأكد/ ان إنتاج الصمت قد عُزز/ في مصانع الموتى؟/ إنتظر، يا أبا النسور، لا تذهب!/ لدينا الكثير للتحدث عنه".

توجد قصائد كتبت تضامنا مع الحركات الثورية لأميركا الوسطى وجنوب أفريقيا: "حتى هنا، مصابيح خوذ عمال مناجم أفريقيا الجنوبية مثل عين ثالثة تنفتح تحت الأرض/ في أروقة استغلال منتصف الليل الجهنمية". في الوقت الذي يعتبر فيه الرأسماليون انهيار الإتحاد السوفييتي دليلا على "موت الشيوعية" فإن أدواردز يعيد تأكيد التزامه الماركسي، وفي الوقت نفسه يعكس التساؤلات المشتركة بيننا كلنا: "ألن يكون هناك تحقيق؟/ وألم يحن الوقت لطلب أجوبة من أيدينا؟ لاستنطاق أدواتنا؟".

في الوقت الذي تهيمن فيه على الشعر اليوم جمالية "ما بعد الحداثة" التي مادتها الحقيقية "الفن للفن" خلق إدواردز عملا مهما مقاما على يوميات الطبقة العاملة، وفي الزمن الذي تميز بأكبر نهب لثروة الطبقة العاملة من قبل الطبقة الرأسمالية تصدح قصائده لتدعو الجيل الجديد إلى (العمل الكبير)، وتؤكد دور الشعراء للإسهام في بناء الغد.

هذا طريق طويل وعبء ثقيل، ولكن إن كان هذا يعني نضالا متواصلا من قبل "قبيلة قوس قزح" ويعني بها الطبقة العاملة، فيوجد أيضا مرح ورفاقية وشعر وجمال وموسيقى، على طول الطريق.

المجموعة الشعرية:

The Big Job: Political Poems 1979-2003, by Robert Edwards (Red Dragonfly Press, 2016)

كريس بترز/ بيبلز وورلد، جريدة الحزب الشيوعي الأميركي

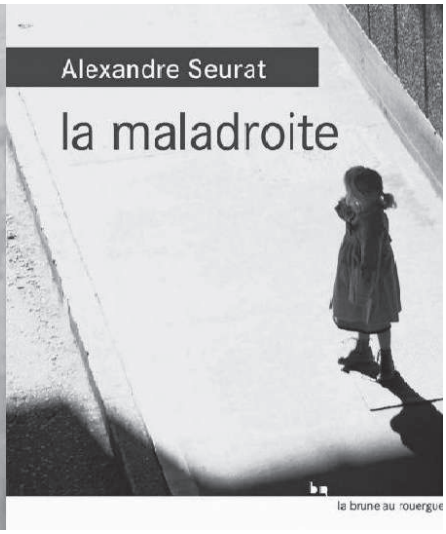

سرد:

(الخرقاء).... يوميات موت معلن

رحلت الصغيرة ديانا البالغة من العمر ثماني سنوات. ترسم معلمتها في مقدمة قصيرة صورة طفلة ترتدي ملابسها كما ترتدي البالغات، وتقف مصالبة ذراعيها على صدرها. تقول معلمتها والشعور بالذنب يتآكلها: "أعرف أن كل شيء متأخر جدا بالنسبة إليها، لا أستطيع فعل شيء، وأود أن تسامحني". إن حل العقدة معروف لأنها مستلهمة من حادثة وقعت فعلا في العام 2009 عندما توفيت طفلة بسبب التعذيب على يد والديها وحكم عليهما بالسجن ثلاثين سنة. إطلع (ألكسندر سورا) على أوراق القضية المتاحة لمن يشاء الإطلاع عليها، ولكن (الخرقاء) ليست الرواية الحقيقية لقصة نشرتها الصحف، والمؤلف لم يستثمر الأسلوب السايكولوجي، كما لم يجعل نفسه مكان الجلاد أو الضحية. إنه يحاول، بالخيال الأدبي وقوة مَلَكته، أن يفهم لماذا هذا الموت لم يكن ممكنا تجنبه، بإستعادة كلام الشهود، أفراد العائلة، والمعلمين، والأطباء والشرطة، ولكن ليس للأبوين صوت خاص بهما، وكلماتهما لم تكتب إلا تحت شكل كلام منقول.

قصة ديانا تراجيديا قديمة يلزمها لكي تُدرَك جوقة منشدين، كل منهم يأخذ دوره في الكلام، ويعطي وجهة نظره، مشكلين دوائر مشتركة المركز حول الطفلة، خالقين جوا خانقا، وتضيق الحلقة، وماكنة العنف المجنونة تدور بأقصى سرعتها. السؤال هنا ليس عن أصل إساءة المعاملة ولكن عن العجز الجماعي واللامبالاة اللذين منعا كل ردة فعل من الآخرين. كل الشخصيات الرئيسية مذنبة بأنها لم تفعل شيئا لتمنع الأذى عن الطفلة. تم سرد السنوات المبكرة

من عمرها بلسان جدتها وعمتها اللتين كبلهما الخجل من كشف الأمر والخوف من تدمير العائلة إذا ما فضحتا الذي يحدث. ولدت ديانا لأبوين غير متزنين إنفصلا قبل ولادتها، وقد إدعيا أنها ولدت ميتة لكي يتمكنا من التخلي عنها، ثم إستعادتها أمها التي عادت مع رفيقها الذي رزقت منه بثلاثة أطفال آخرين، وكما يروي أكبرهم في المحكمة فإن أخوة ديانا لم يقاسوا أي عنف جسدي.

يسمح الشكل الكورسي للسرد باستكشاف كل وجهات النظر وتسليط الضوء على عيوب نظام حماية الطفولة: بيروقراطية الإجراءات، التغاضي، كتم الأبوين لصوت الطفلة التي تضيع في صمتها مبتسمة: تردد قائلة: "أنا خرقاء". وهي تستمع الى جدالات الكبار. إن وقوف الشرطة عند جثة ديانا والوصف الدقيق لجراحها لا يحتملان. تموت ديانا تحت ضربات أبيها ولكنها كانت من خلال السرد عبر الرواية كما لو أنها تروح في ثقب أسود، كما لو أنها تتبخر.

الكتاب:

La Maladroite, d'Alexandre Seurat. Le Rouergue, collection "la Brune".112 pages.

صوفي جوبير/ جريدة "لومانتيه" الفرنسية

تاريخ ثقافي:

بيبلوغرافيا النضال الثقافي للحزب الشيوعي البريطاني

هذه هي المحاولة الأولى لوضع فهرس للمطبوعات التي أصدرها الحزب الشيوعي في بريطانيا العظمى CPGB طوال وجوده، وقد إستند الى بحث مدقق إستمر سنوات حققه (ديف كوب). يندر أن يوجد شخص مؤهل أكثر من ديف كوب لإنجاز هذه المهمة فقد كان سابقا سكرتير الحزب للشؤون الأدبية ومدير العديد من محلات الكتب التابعة الى الحزب، وهو الآن مالك ومدير شركة (ليفت أون ذي شيلف) المتخصصة بأدب الجناح اليساري والتذكاريات. يشرح في مقدمة غنية بالمعلومات كيف أن الإهتمام بالحزب الشيوعي البريطاني قد إنتشر في السنوات الأخيرة ما يجعل الحاجة الى هذه البيبلوغرافيا ماسّة.

لقد تم تكوين مجموعة شيوعية مختصة بالدراسات السياسية حيث يقود (كيفن مورغان) وجامعة مانشستر وحدة متخصصة في التاريخ الشيوعي، ويوجد العديد من المعارض حول الحزب وأصبح موضوع دراسة عند عدد كبير من الأكاديميين. يحصر كوب بحثه في هذه البيبلوغرافيا في السنوات ما بين تأسيس الحزب عام 1920 وحله لنفسه سنة 1991، ولأسباب مختلفة لم يشمل البحث ظهور الحزب الشيوعي البريطاني الحالي CPB ودور وزوال اليسار الديمقراطي اللذين إنبثقا من صفوف الحزب القديم بعد حلّه.

ربما لم يستطع الحزب الشيوعي بناء

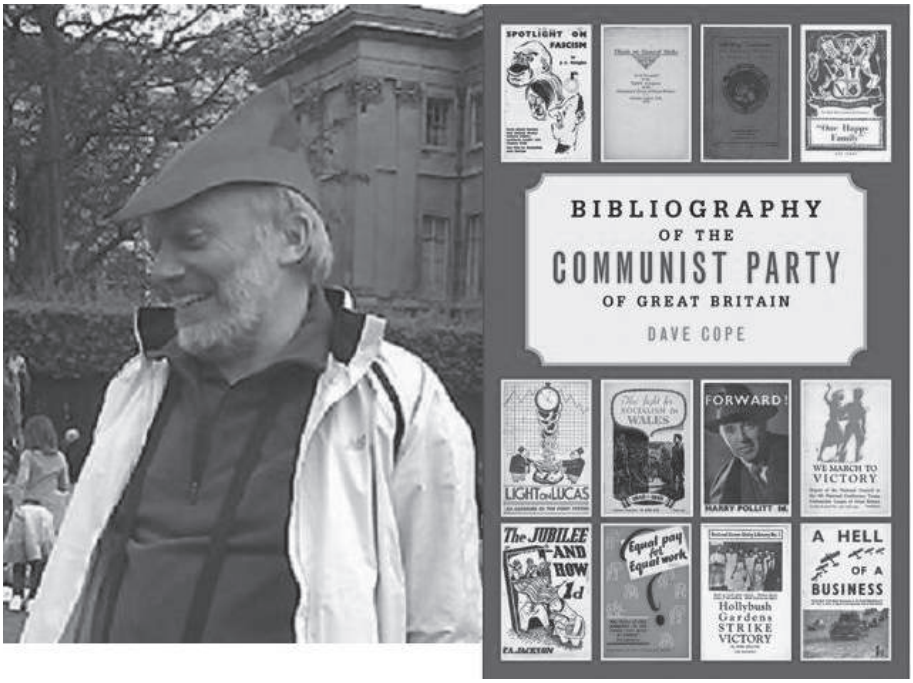

المجتمع الاشتراكي في بريطانيا ولكن الحركة الشيوعية نفسها أنتجت إرثا غنيا لا يزال صداه الى اليوم، وكمثال على تركيز الحزب على الأدب والتعلم ذكر الباحث محل بيع الكتب التابع للحزب في ليفربول الذي باع لوحده حوالي 3000 عنوان بغلاف ورقي و 500 عنوان مجلد خلال السبعينيات. لقد طبع الحزب الكثير من النتاجات الأدبية على شكل كتب وبيانات وكراريس أكثر من أي حزب في بلد آخر. رفد المقدمة والقسم المخصص للفنانين الذين كانوا على علاقة بالحزب بملحقات تقديمية عن الحزب الشيوعي في الخيال الأدبي بقلم أندي كروفت والتي توفر قائمة مفيدة عن الروايات التي كان الحزب الشيوعي فيها جزءا من موضوعها، وقد فعل (بيرت هوكنكامب) الشيء نفسه لحساب فيلم، وكتب (كيفن مورغان) دراسة تاريخية موجزة. هذا ليس كتابا للقراءة في جلسة واحدة من الغلاف للغلاف فليس الهدف منه هذا بل هو عمل مرجعي يعود اليه المهتم بالموضوع عند الحاجة وسيبقى دون شك مرجعا معتمدا الى سنوات مقبلة.

الكتاب:

Bibliography of the Communist Party of Great Britain, by Dave Cope

ديفيد غرين/ جريدة "ذي مورننغ ستار" البريطانية الاشتراكية

سينما:

ميموزا... طريق الأطلس

إن فيلم (ميموزا، طريق الأطلس) للسينمائي الشاب ذي الأصل الفرنسي المقيم في المغرب (أوليفيه لاكس) الذي بدأ عرضه في فرنسا يوم 24 آب 2016 كان له صدى طيبا خصوصا في الصحافة الإسبانية التي أبدت له حماسا خلال مهرجان كان. يصور المخرج (34 عاما) مغامرات قافلة تحمل شيخها المريض (شيخ طريقة صوفية) الى مثواه الأخير في الجانب الآخر من الجبال، عبر الدروب الميسمية الجبلية المغربية الخطرة. سرعان ما يموت الشيخ خلال الطريق فيقفلون راجعين مفضلين عدم التعرض الى مخاطر الطريق، ولم يبق سوى سعيد (سعيد عَجلي) وأحمد (أحمد حمود) وهما لصان محتالان أتت بهما الأقدار ليسيرا مع القافلة، تعهدا بإيصال جثمان الشيخ الى مقبرة قريته الأم.

يظهر عندها شكيب (محمد شكيب بن عمر) كما لو من عالم آخر، وهذا الشاب الذي يلم بطرف من الميكانيك وشيء من القدرة على التنبؤ هو على نحو ما (دون كيخوته) يرتدي جلابية، إختار أن يقود الرجلين ومعهما جثة الشيخ الى بر الأمان. من بعثه يا ترى... مشيئة إلهية أم قريب يفضل إبقاء إسمه سرا؟ لقد ساعد المجموعة، برغم هجمات قطاع الطرق، والوعورة الجغرافية، والإحباط، للوصول الى بلدة سجلماسه وهي بلدة من القرون الوسطى كان يسكنها البربر وهجروها.

من الصعب القول في أية فترة تقع هذه الأحداث والنتيجة كما تقول جريدة البايس الإسبانية: فيها مسحة ملحمية صوفية. إلا أن المخرج يفضل تعريف الفيلم على أنه "ويسترن ديني" أما الجريدة فتفضل اعتباره ميلا الى رسم الإسلام بطريقة محترمة بعد ما تعرض له في الغرب

من تجريح ورسوم كاريكاتيرية، فهنا نجد الروحانيات والإيمان والدين، ولكن ليس هذه هي الأشياء الوحيدة في الفيلم بل أيضا الإيمان بالإنسان وبالخلق... السينمائي خصوصا.

إنه إستكشاف وما يلاقيه عبر الصحارى وعبر غيوم الرموز قيمة معينة للصمت وقيمة معينة للنور، وما ترسله وسائل السينما المتواضعة من رسائل. ما يزعم الفيلم أنه يقدمه لنا ليس هو التجربة الصرف (وليس المنظر الطبيعي أو السماوي) بل الصعوبة السامية في ترجمة علاماتها. إنها محنة وقوف الإنسان وحيدا أمام خياراته، ووعيه بأن الطريق غير مطروق جيدا وما هو إلا مسافة خالصة، مسافة علينا العثور عليها، ولا يكون هذا إلا بشجاعة المجانين الخالصة، وفعل السلاح، وبطولة الكشف.

ملاحظة: Mimosa في المعجم تعني في الأصل نوعا من الأشجار المدارية وشرابا، وهي أيضا كوكتيل شراب، وكذلك تعني الطريق الذي تحفه أشجار الميموزا- م

لوك شيسيل/ جريدة "ليبراسيون" الفرنسية

بمناسبة صدور كتابين جديدين بالفرنسية للمناضلة أنجيلا ديفيس
من هي أنجيلا إيفون ديفيس؟

أنجيلا ديفيس تلقي خطابا في تجمع للشبيبة الأميركية من تجمعات سبعينيات القرن الماضي

ناشطة سياسية، ومؤلفة، وأستاذة، وقيادية في الحزب الشيوعي الأميركي، وكانت خلال الستينيات والسبعينيات رمزا لحركة تحرر السود. ولدت في بيرمنغهام بولاية ألباما يوم 26 كانون الثاني 1944 وهي البكر لعائلة لا بأس بمستواها الإجتماعي بين سكان المدينة السود. كان أبواها معلمين ثم إشتريا وشغلا محطة خدمة. إنتقلت العائلة عندما كانت أنجيلا في الرابعة الى خارج مجمع السود فتبعتها عوائل أخرى ما أثار حفيظة عوائل البيض فأخذوا يرسمون خطا فاصلا بين السود والبيض ويحاولون رد السود على أعقابهم برمي القنابل على منازلهم فسميت المنطقة (ديناميت هيل).

إنتمت أم أنجيلا الى الحركات المناوئة للعنصرية وتعرفت من خلالها على متعاطفين بيض مع قضية السود، وقد علّمت هي وزوجها إبنتهما أنجيلا أن هذه العداوة بين السود والبيض مصطنعة ومرتبة مسبقا. عاشت الفتاة طفولتها في الفترة التي لا يسمح للسود فيها إلا التعلم في مدارس خاصة بالسود ولا يمكنهم إلا الجلوس في المقاعد الخلفية للحافلات أو التسوق إلا من الأبواب الخلفية للمحلات. عندما بلغت أنجيلا مرحلة المراهقة كانت حركة حقوق السود قد بدأت تصل الى بيرمنغهام. تركت المدرسة الثانوية

ودخلت برنامج دخول مبكر في جامعة فيسك وبرنامجا تجريبيا يمكن الطلبة من الجنوب الدراسة في ثانويات مختلطة في الشمال. إستقلت في الخامسة عشرة من عمرها القطار الى مدينة نيويورك، وهناك عاشت مع عائلة بيضاء يرأسها أسقف طرد من عمله لأنه تحدث في خطبته ضد معاداة الشيوعية التي ينتهجها جوزيف مكارثي.

تسجلت أنجيلا في ثانوية (إليزابيث إروين) التي كانت أصلا مدرسة حكومية ذات برنامج تجريبي في التعليم التقدمي فلما قُطع عنها التمويل حولها أساتذتها الى مدرسة أهلية. في هذه المدرسة اكتسبت معلوماتها عن الإشتراكية ودرست باهتمام (البيان الشيوعي) وكذلك إنتمت الى منظمة شبيبة ماركسية – لينينية تسمى (التقدم) لها صلات مع الحزب الشيوعي.

في أيلول 1961 دخلت جامعة براندیس وقد شعرت بالعزلة والوحدة لكونها واحدة من ثلاثة طلبة سود فقط في السنة الأولى. حضرت في السنة التالية تجمعا للشبيبة الشيوعية في هلسنكي بفنلندا وهي متشوقة للقاء شباب ثوريين من بلدان أخرى، فأعجبتها العروض الثقافية للوفد الكوبي. وجدت أيضا أن المخابرات الأميركية قد بثت عملاءها في المهرجان، وقد حققت معها وكالة التحقيقات الفيدرالية (أف بي آي) عند عودتها الى الولايات المتحدة. إن الإلتقاء بأناس من مختلف أنحاء العالم أقنع أنجيلا بتحطيم الحواجز الثقافية كاللغة وغيرها وقررت التخصص باللغة الفرنسية في دراستها بالكلية، ودرست الأدب الفرنسي المعاصر في السوربون بباريس، وعندما عادت الى براندیس درست الفلسفة مع الفيلسوف الألماني هيربرت ماركوز، وفي السنة التالية حصلت على زمالة لدراسة الفلسفة في فرانكفورت بألمانيا حيث ركزت على أعمال عمانوئيل كانت وهيجل وماركس.

خلال السنتين اللتين قضتهما أنجيلا في ألمانيا كانت حركتا تحرير السود وحركة القوة السوداء تبرزان في الولايات المتحدة، وتشكل حزب الفهود السود للدفاع الذاتي في أوكلاند فقررت أنجيلا في العام 1967 العودة الى الوطن لتلتحق بالحركتين. عملت مع منظمات أكاديمية وإجتماعية لبناء تحالف يتعامل مع قضايا السود في المجتمع الأميركي، وقد تلقت إنتقادات كثيرة من ناشطين سود لقيامها بأدوار قيادية يرونها خاصة بالذكور. في العام 1968 إنضمت الى منظمة جماعية هي (لجنة الطلبة اللاعنفية للتنسيق) لتحقق هدفها في تنظيم الناس للفعل السياسي، ولكن بعد طرد صديقها فرانكلين كينارد من قيادة المنظمة لإنتمائه للحزب الشيوعي تركت أنجيلا المنظمة، وفي تموز 1968 إنضمت الى نادي (تشي جيفارا – لومامبا) وهو خلية السود المرتبطة بالحزب الشيوعي في لوس أنجيليس.

عينت في العام 1969 أستاذا مساعدا في الفلسفة بجامعة كاليفورنيا. في تموز 1969 التحقت بوفد للحزب الشيوعي دعي لقضاء شهر في كوبا وهناك عملت في حقول القهوة والسكر وزارت المدارس والمستشفيات والمواقع التاريخية، وكانت أينما ذهبت تشعر بالإعجاب للمكاسب التي تحققت للشعب الكوبي وللإنتصار على العنصرية، مشكلة السود الأميركيين الرئيسية، وقد شهدت سودا يتسنمون مناصب قيادية في كل أنحاء البلاد فإستنتجت أنه في ظل النظام الإشتراكي فقط كالذي أقامه الكوبيون يكون الكفاح ضد العنصرية ناجحا.

عندما عادت وجدت الصحف تكثر من الحديث عن عضويتها في الحزب الشيوعي وتتهمها

بنشاطات مثل توفير الأسلحة لحزب الفهود السود. أصدر رونالد ريغان× الذي كان آنذاك حاكما لكاليفورنيا تعليمات للجامعة بعدم تعيين مدرسين شيوعيين فردت عليه أنجيلا بتأكيد عضويتها في الحزب الشيوعي، وأخذت تنهال عليها رسائل الكراهية والتهديدات من خلال الهاتف، وتضاعفت التهديدات حين كسبت قرارا قضائيا ببطلان قرار أعضاء مجلس الجامعة بطردها. تلقت تهديدات بالقتل بالقنابل الى درجة أن شرطة الجامعة كفوا عن الكشف على سيارتها وأجبروها على تعلم الكشف بنفسها. في السنة الثانية لم تجدد الجامعة العقد معها على أساس أن تصرفاتها وخطبها خارج قاعة الدرس لا تتناسب ومكانة أستاذ جامعة.

وجهت اليها تهم ملفقة بالإختطاف والقتل والتآمر، فهربت متخفية في عدة ولايات، وألقي القبض عليها في تشرين الأول 1970وقضت 14 شهرا في السجن إنتهت بتبرئتها من كل التهم بعد حملة عالمية لإطلاق سراحها. واصلت عملها التدريسي وحافظت على إنتمائها الى الحزب الشيوعي. حصلت في العام 1979من الإتحاد السوفييتي على جائزة لينين، ورشحها الحزب الشيوعي الأميركي لمنصب نائبة رئيس الولايات المتحدة في حملتيه الإنتخابيتين في العامين 1980 و1984. أسست وإنتمت الى العديد من المنظمات والجمعيات الناشطة في مجال الحقوق وتحسين الأوضاع الإجتماعية، النسوية والطفولة خصوصا، كما أصدرت الكثير من المؤلفات منها: أنجيلا ديفيس: سيرة ذاتية (1974) والمرأة والعرق والطبقة (1983) والنساء والثقافة والسياسة (1989) وإرث موسيقى البلوز والفيمينية السوداء (1998). تزوجت المصور هيلتون بريثويت في العام 1980 وتطلقا بعد سنوات.

وجدت نفسها في العام 1994 من جديد في مركز الجدل عندما كوفئت بمنصب رئيس جامعة كاليفورنيا الذي يوفر لها سنويا 75 ألف دولار لتطوير الدراسات الإثنية، فغضب بعض المشرعين في الولاية ولكن لم ينجحوا في إلغاء التعيين في المنصب الذي إحتفظت به أنجيلا حتى العام 1997.

في أواخر التسعينيات وبداية الألفية الثالثة كانت أنجيلا لا تزال تكتب عن محنة من تعدهم سجناء سياسيين كالناشط الهندي (ليونارد بيليتير) والعضو السابق في حزب الفهود السود موميا أبو جمال المدانين بقتل ضباط شرطة، وحاضرت في معوقات إصلاح السجون، وفي العام 1997 ساعدت في إيجاد (المقاومة الحاسمة) المنظمة التي تسعى الى بناء حركة عالمية لإصلاح السجون. تلقي أنجيلا منذ السبعينيات خطبا ومحاضرات في أنحاء الولايات المتحدة وبلدان أفريقية وأوربية وآسيوية، وتبقى كاتبة غزيرة الإنتاج.

*** (كان ريغان في أول شبابه يساريا تقدميا وتحول الى يميني رجعي، لعب دورا مدمرا ليس في الولايات المتحدة فقط بل في أنحاء العالم عندما أصبح رئيسا ومن بين أدواره هذه رعاية سرطان التمرد المسلح الديني المتطرف المتمثل بالقاعدة وطالبان في أفغانستان ومساعدتهما على إسقاط الحكومة الثورية الاشتراكية وإغراق البلاد في الدم والظلام - م).**

عن موقع فرونت لاين.

إصدارات:

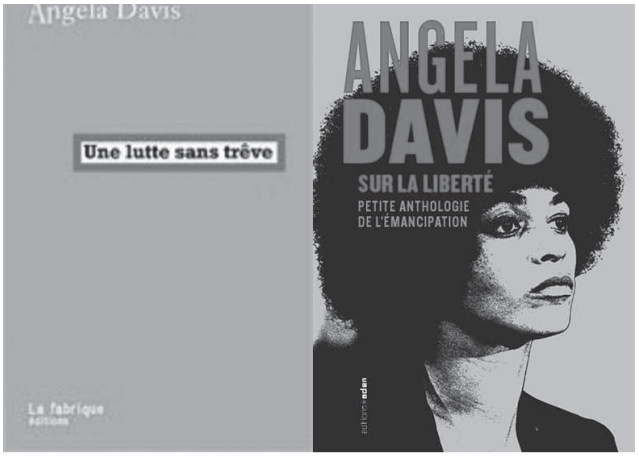

النسختان الفرنسيتان من كتاب (في الحرية، أنثولوجيا صغيرة عن التحرير) وكتاب (كفاح بلا هوادة)

في الحرية

من خلال تجربتها كإمرأة سوداء وشيوعية لم تنقطع المواجهات بينها وبين مختلف أشكال القمع التي تشكل مجتمعاتنا. إن مسيرتها سواء الفكرية أو السياسية تظل مشغولة بهذا السؤال: ما هي الحرية؟ تؤكد أنجيلا ديفيس التزامها المعروف على تناقضات مجتمع نيوليبرالي يهتف باسم الحرية في الوقت الذي فيه يرسخ القمع ضد المهاجرين والأفرو-أميركيين والنساء والطبقة العاملة.

تبين المؤلفة بأنه شيء أساسي أن نربط بين كل أشكال النضال لحماية كوكبنا. تساعدنا أنجيلا لتوسيع أفق فهمنا للحرية وبالنتيجة توسيع ميدان معاركنا. هذه النصوص المترجمة الى الفرنسية (في الحرية، أنثولوجيا صغيرة عن التحرير) تضم العديد من النصوص التي لم يسبق نشرها.

الكفاح بلا هوادة

لا تزال أنجيلا ديفيس، وهي في الثانية والسبعين من عمرها، ترفع قبضتها بوجه الظلم. في كتابها (كفاح بلا هوادة) تحلل القيادية في الحزب الشيوعي الأميركي منذ 1968 والقيادية السابقة في حزب الفهود السود تحولات الحركات الإجتماعية. في حين أن هذا الكتاب يصلح أيضا أن يكون سيرة ذاتية لها (الجدير بالذكر أنه قد أعيد هذه السنة أيضا نشر السيرة الذاتية التي صدرت في العام 1974)، إلا أن الحاضر يبقى هو الذي يحظى بأكبر إهتمام منها.

في المجموعة مؤتمرات صحفية ومقابلة تتناول مسألة حركة (بلاك لايفز ماتر)

وحركات (أوكيوبي) ومجموعات الدفاع عن الحرية الجنسية والكفاح للحصول على الإعتراف بالإبادة الجماعية للأرمن. تقر أنجيلا بالفشل النسبي لبعض المعارك فالعنصرية تترسخ، ونظام السجون يتسع، وفي مخيمات المهاجرين تجري عسكرة المدارس، والقضية الفلسطينية التي دافعت عنها منذ زمن طويل لم تحقق تقدما كبيرا. فما العمل؟ تقول أنجيلا نبني ردا عالميا، فلن تستطيع الحركات أن تبقى متفرقة والمهمة الكفاحية الكبرى اليوم هي "مفصلة الكفاحات" يعني ربط الحركات ببعضها البعض وتبنّي قضية العمل الجماعي، وكذلك تطوير الفكر السياسي.

تشرح لنا هذا بشكل بارع وتولي إهتماما خاصا بمفهوم جاء من الحركة النسوية هو "التداخلية" عندما كانت النسويات في الثمانينيات أكثرهن من الملونين وأخذن يفكرن في أن الهم الجنسي ليس هو مشكلتهن الوحيدة فهن يعشن المسائل الطبقية والعنصرية. تقول أنجيلا بأن التداخلية اليوم تتطبق أيضا على الحركات الإجتماعية إذ على هذه الحركات تعلم مفصلة المشاكل التي تبدو لها منفصلة. هكذا تشرح للناشطين في (فيرغوسون) كيف أن القمع البوليسي العنصري الذي يواجهونه يمكن أن يكون هو والاحتلال في فلسطين شيئا واحدا إذ أن الشرطة الأميركية تتعلم وتتبنى نفس تقنيات وأساليب الجيش الإسرائيلي في القمع، وبالمقابل يطلع الشبان الفلسطينيون من خلال تويتر على تظاهرات فيرغوسون، وتقول بأن "تداخلية الكفاحات" هي مستقبل الحركات. إلا أن إهتمامها بمعاصريها لا يمنعها من العودة الى الإرث النضالي الذي شكلت هي جزء منه، والذي تحاول الذاكرة الرسمية تشويهه بتصويرها النضال من أجل الحقوق المدنية بطريقة سطحية ومجتزأة، وتذكر أن النضال من أجل الحقوق المدنية يتسجل ضمن تاريخ طويل من المعارك يرقى الى القرن التاسع عشر ويتواصل اليوم في الكفاح ضد نظام السجون، وإذا كانت أنجيلا تذكر بكل إحترام مارتن لوثر كنغ ومالكولم أكس فإنها تؤكد في الوقت نفسه أنهما لم ينجزا ما أنجزا بمعزل عن الآخرين، عن آلاف المجهولين، بضمنهم الكثير من النساء.

إن كتاب (كفاح بلا هوادة) كالموشور للحركات المعاصرة ودرس سياسي للزمن الحاضر، وهو كذلك جسر بين جيلين من المناضلين.

Sur la liberté*
Petite anthologie de l'émancipation, 140 p.
***Unelutte sans trêve, par Angela Davis,**
La Fabrique, 180 p.

كلير ريتشارد/ مجلة "لو نوفيل أوبسرفاتور" الفرنسية

أنجيلا الايقونة

في 18 آب 1970 أضيف إسم أنجيلا ديفيس الى قائمة أخطر عشرة مطلوبين من قبل وكالة التحقيقات الفيدرالية. تعقبها رئيس الوكالة إدجار هوفر لجريمة لم تقترفها وقد جعلت منها هذه المطاردة أكثر شعبية وشهرة حالها حال الثوريين تشي جيفارا وماو.

لم يجر بيع بوسترات لشخصية بالمقدار الذي بيعت بوسترات تحمل صورتها خلال الشهرين اللذين قضتهما هاربة، وحتى البوستر الذي يحمل صورتها وقد كتب فوقها (مطلوبة) وألصق على جدران دوائر البريد والجامعات في أنحاء الولايات المتحدة جعل منها ايقونة وأعيد طبعه بالآلاف. إنطلقت وهي في السجن حملة (أطلقوا سراح أنجيلا) العالمية وأضيفت اليها عبارة (وكل السجناء السياسيين)، وقد سجل جون لينون× وزوجته يوكو أونو أغنية (أنجيلا) في ألبومهما (ذات مرة في مدينة نيويورك)، وكتب ميك جاكر وكيث ريتشارد (أنجيلا السوداء الجميلة) لألبومهما (منفى في الشارع الرئيس)، ورسم فيليكس بيلتران عن صورة كراوفورد الفوتوغرافية صورة أنجيلا ديفيس الثلاثية وطبعت لأول مرة في كوبا في العام 1971.

لقد تشكلت مئات اللجان المحلية في الولايات المتحدة لإطلاق سراحها وكانت أدواتها الرئيسية هي البوسترات والنشرات الإعلانية والحفلات الموسيقية. كانت بوسترات أنجيلا الطريقة الأساسية التي نشر بها أنصارها رسالتها في تلك الفترة التي سبقت ظهور الأنترنيت. صورة أنجيلا التي كانت أكثر الصور طباعة هي التي تمسك فيها المايكروفون أمام تجمع في العام 1970 ونشرتها مجلة لايف على الصفحة 24 في مقالها الرئيس عن أنجيلا ديفيس. الطريف هنا أن المصور الذي إلتقط هذه الصورة المميزة مجهول!

بن ماركس/ مجلة كوليكتور ويكلي

*** (جون لينون كان عضوا في فرقة البيتلز البريطانية ثم إستقل بنشاطه الفني، إغتاله شخص تظاهر بأنه أحد معجبيه بأربع رصاصات في الثامن من كانون الأول 1980 في نيويورك بينما كان لينون منشغلا يوقع على أحد ألبوماته - م)**

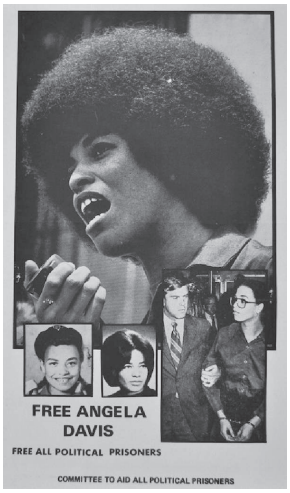

إعلان طلب القبض على أنجيلا بتهمتي القتل والإختطاف

رئيسة لجنة المرأة السوفيتية فالنتينا تريشكوفا (رائدة الفضاء) تسلم مذكرة الى عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأميركي

أنجيلا ديفيس وبجانبها تجلس شقيقتها فانيا في أحد المؤتمرات سنة 1972

مع فيدل كاسترو ..

ومع رئيس ألمانيا الديمقراطية إريش هونيكر

احتفالات استذكارية:

جيفارا مناضلا وشهيدا

أعلن الرئيس البوليفي إيفو مورااليس بأنه ستقام عدة فعاليات ثقافية في بوليفيا السنة القادمة بمناسبة مرور 50 عاما على موت أرنستو تشي جيفارا معدوما في الجبال البوليفية سنة 1967 حيث قال خلال مراسم إنشاء مركز ثقافي لاتيني – أميركي بمناسبة مرور 49 عاما على وفاة جيفارا الثوري العظيم: "لا بد أن تنظم السنة القادمة نشاطات ذات طبيعة فولكلورية وموسيقية وثقافية مع قصائد تحية الى تشي، والى الثورة الكوبية، والإشتراكية والشيوعية، والى الإنتفاضات والثورات العظيمة ضد الرأسمالية". إن مورااليس أحد قادة التيار اليساري في أميركا الجنوبية، وهو يتمنى أيضا لو يكون بإمكان كاسترو أن يحضر في العام المقبل الى بوليفيا.

جريدة "لومانتيه" الفرنسية

بكّين
جوهرة الصّين

محمود سعيد *

كانت السّاعة في حدود العاشرة ليلاً عندما رأيت في أحد شوارع بكّين، امرأة شابة أمامها بسطة عليها أنواع اللحوم، والى جانبها منقل شواء. تلفت أبحث عن مرافق لها أو شريك، فلم أجد، لم أصدّق عيني. وحدها ليلاً من دون حام؟الْ تخاف؟ يا لشجاعتها! لو كانَت هذه المرأة في شيكاغو لكمّمت وسُحبت الى زاوية مستترة، واغتصبت، ثم سرقت، وإن قاومت قتلتْ، ولو كانت في بغداد لأخذت رهينة من قبل إحدى العصابات، ليدفع أهلها مئات الوف الدّولارات، أو بقيت سنين لا حصر لها، في سجون سريّة خاصة لا يعرفها غير أصحابها، تغتصب فيها الفتيات، ليل نهار، ولا من منقذ، ولا من نهاية لها الّألموت.

خرجتْ شابة من حانة ليلاً، في شيكاغو، لكنّها أوقفت من قبل شرطيّين اثنين، وعندما عرفوا أنّها راجعة الى بيتها عرضوا عليها توصيلها، حماية لها، لكنّهما أغتصباها، ولم يقتلاها لأنّها لم تقاومهما. وهكذا يصبح حاميها "حراميها" جانياً في أقوى دولة في العالم، في هذا العصر.

قبل زيارتي للصّين بيوم واحد زارني صديق " تايواني الْأصل" ليودّعني، وأثناء تناولناالشّاي، حذّرني الْأ أحمل معي أكثر من بضعة دولارات ليلاً، فقد ازدادت الجريمة في الْأونة الْأخيرة، قتل أكثر من عشرة أشخاص في أقل من أسبوع، بسبب السّرقة. عندئذ تذكرت ما كتبه ابن بطوطة قبل سبعة قرون عن الصّين. يقول الرّحالة: "وبلاد الصّين أأمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافر، فإن الْأنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الْأموال الطّائلة فلا يخاف عليها الخ". اذن فالمحافظة على الْأمن والْأمان قديماً في الصّين، توارثهاالصّينيون جيلاً بعد جيل، حتى أصبحت المحافظة على الْأمن مسؤولية الجميع، وميزة وطنية، وخصلة يرثها الْأنسان، وشعورايجري مع الدّماء في الشّرايين، وسمة تمتاز بها هذه البلاد الشّاسعة.

من نافلة القول أن نذكر أن كلمة الصّين تأتي بالعربية مرادفة للصّناعة، والعلم، ساد ذلك في لغتنا منذ القدم، وينسب الى الرّسول محمّد قوله: "أُطلبوا العلم ولو في الصّين". ، وكتب الجاحظ "775 – 868": "ميزة سكان الصّين، الصّناعة، فهم أصحاب السّبك، والصّياغة، والْأفراغ، والْأذابة، والْأصباغ العجيبة، وهم أصحاب الخرط، والنّحت، والتّصاوير، والنّسج" وقال ابن

بطوطة 1304 – 1368: أهل الصّين أعظم الْأمم إحكاماً للصّناعات، وأشدّهم إتقاناً فيها، ،

وذكرت في مقالة لي في التّسعينات أنّالعراق في العهد العباسيّ كان يستورد من الصّين اثنتين وأربعين مادّة منها الحرير، والحبر والورق، والْأقمشة المطرزة، والْأقفالالحديد والفرند، والكيمخت (أي الحرير المشجر) والمسك، والعود، والسّروج، والغضار، والفلفل، والدّار فلفل، والنارجيل، والهرنوة، والقاقلة، والدّار صيني، والخولجان، والبسباسة، والإهليلجيات، والأبنوس، والذّبل، والكافور، والجوزبوا، والقرنفل، والكبابة المتخذة من الحشيش، والثياب العظيمة المخمّلة، وأنياب الفيلة، والرّصاص القلعي، والقنا، والخيزران الخ، ويبدو أنّنا مازلنا نستورد بعضها الى حدّالْأن،وحسبما يذكر هادي العلوي أنّنا في العراق أخذنا اسم الرّز، من الصين "التّمن"،. وأيّ سوق كبير أو صغير تدخله في الولايات المتحدة، أوربا، في أيّ مكان في العالم تجد عدداً لا يحصى من المنتجات الصّينية.

بدأت الصّلات التّجارية بين العرب والصّين منذ عهود قديمة، فيذكر المؤرخ المسعودي غير مرّة: (كان البحر حينئذ في الموضع المعروفاليوم بالنّجف وكانت تقوم "ترسو" هناك سفن الصّين والهند)التي تنقل البضائع.

أماالصّلات الرّسمية بين العرب والصّين فبدأت 1400 سنة، وكانت بداية الحوار الحضاريّ بين الْأمتين، إذ أرسل الخليفة عثمان بن عفان مبعوثين الى الصّين لمقابلة إمبراطور أسرة تانغ، "قاو تسونغ في تشانغآن" (شيآن حاليا) في أغسطس عام 651 ميلادية، وسجلت هذه المقابلة رسميا في المجلد الرّابع من ((كتاب أسرة تانغ القديم)).

لا أحد يستطيع أن يحدد متى بدأت التجارة بين الصين والعرب، لكنها ازدادت بعد الأسلام، وبخاصة من عمان والبصرة، إذ يرد اسم التّجار "أبو عبيدة" وعبهرة الربان" وغيرهم، وذكر الطّبري، والقاضي الرشيد بن زبير أنّ ملك الصّين أرسل رسال إلى معاوية بن أبي سفيان، مع هديّة "كتاب في العلوم"، والرّسالة من أطرف الرّسائل في التّاريخ: " من ملك الملوك الذي تخدمه بنات ألف ملك، والذي بنيت داره بلبن الذّهب، والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران يسقيان العود والكافور، الذي يوجد ريحه من عشرين ميلاً.إلى ملك العرب الذي يتعبد الله ولا يشرك به شيئاً." ويقال أن كتاب العلوم ورثه حفيد معاوية خالد بن يزيد، ليكون أوّل خطوة في بدء، تاريخ العلوم عند العرب.

ثم توالت علاقات العرب مع الصّين، فقد استقبل عمر بن عبد العزيز وفدا صينيّاً سنة 726، ثم سنة 757 حين طلب إمبراطور الصّين (هاسو تسينغ) من الخليفة المنصور مساعدته، لمواجهة ثورة عارمة كادت تعصف بحكمه. فأرسل المنصور جيشا عربيّاً كان في خراسان، استطاع استرجاع العاصمة آنذاك "سينغو ((Si-mqan-fu ومدينة أخرى: ننغو(Ho-nan-fu) وتثبيت حكم الْأمبراطور، ولعل أهم لقاء يبرز حكمة ملوك الصين، وسعة تفكيرهم، ورغبتهم برعاية شعبهم وعدم تعريضهم للمخاطر، هو تصرّف إمبراطور الصّين مع قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي توغّل في الصّين بجيشه، حيث أنهى الصّراع قبل أن يبدأ، بإقناع قتيبة بالسّلام، ونبذ الحرب، وتبدو حكمة امبراطور الصّين في حادثة

أخرى، فقد طلب وهب بن الأسود القرشي، مقابلة الأمبراطور مدعيّاً، أنّه من عائلة النّبيّ، فأكرمه هذا، لكنّه طلب من معاونيه، استقصاء الأمر من العرب الموجودين في المدينة، وعندما تأكّدوا من ذلك بالغ في احترامه.

ولكثرة زيارة المثقفين العرب للهند والصّين، فقد كتبوا عنهما الكثير، وقارنوا أوضاع البلدين، مركّزين على الثّقافة كونها الأسلوب العام لحياة الجماعة، ونشمل كلّ ما يرتبط بالحياة الاجتماعيّة أو الفرديّة بالبيئة الاجتماعيّة، كالعادات والمعتقدات والطّقوس والآداب، ونظام الحكّم، وعادات الكلام والطّعام والنّظافة والعقائد والطّب، والفلسفة، وعلم النّجوم، وبناء المدن وتحصينها، والأخلاق، ولعل أطرف ما ورد في هذا المجال، ما ذكره السيرافي: "وبلاد الصّين أصحّ وأقلّ أمراضاً وأطيب هواءً، لا يكاد يُرى بها أعمى ولا أعور ولا ذي عاهة، وهذا كثير في بلاد الهند" وتصديقاً لهذا فأنا لم أر في تجوالي أيّاًعمى أوأعور أو ذي عاهة، لكنّي رأيت أحولاً واحداً، ولا أعتبر ذلك عيباً، فعيني اليمنى تحوّل بين حين وآخر.

بكّين

المدينة أنثى، تقع بغرام امرأة لسبب لا تدريه، تهيم بها وأنت ذاهل، بينما ترى كثيرات فتعافهن، وبكّين تدخل القلب كما لو كانت إمرأة جميلة من دون استئذان، فتحبّها، وكم ندمت لأني لم أجعل زيارتي تمتد ثلاثة أسابيع أخرى في الأقل، بالرّغم من أنني أعتقد أن شهراً فيها أقلّ من القليل، فما السّبب؟

يبدو أنني لست العربي الأول الذي يقع في غرام بكّين، فقد سبقني عراقي آخر "جلال الحنفي"، وهو أسعد مني إذ بقي نحو أربع سنين، وتزوج امرأة عراقيّة كانت تعيش فيها،وسبقني أيضاً الصّديق المشهور هادي العلويّ، الذي يعتبر أهمّ من عرّف القارئ العربيّ على الصّين والحضارة الصّينية، وأهميّتهما، وعمقها الفكريّ، ومنجزاتها الجبّارة، بكتابات كثيرة أهمّها المستطرف الصّيني، والذي اتخذ له اسماً صينيّا هو "لاو هاي"، كما ذكر الأستاذ المبرز "البروفيسور" د.شوي تشينغ قوه، عميد كلية الدراسات العربيّة في جامعة الدّراسات الأجنبيّة، في بكّين، في مقالة رائعة، في جريدة الشّعب الصّينيّة، وكان يسمي نفسه "سليل الحضارتين العربيّة الصينيّة"، وسبقهألاف الجنود العرب، أرسلهم الخليفة المنصور، لنجدة الإمبراطور الصّينيّ، ولا بدّ ومن عشاق الجمال، ولا بدّ أن جمال نساء الصّين، وحسن المعاملة شدّهم، ففضلوا الْأقامة، وتزوجوا من الصّينيات. ويقال أنّهم الآن يشكّلون قومية (الهوي).

وكتب «شو– جو – كوا» وهو موظف في جمارك ميناء كانتون، مصنّفاً في القرن الثّالث عشر الميلاديّ، عن القادمينالى الميناء، وحياتهم، ويبدو أنّه يعرف العربيّة، واستطاع جمع أخبارهم، من خلال المعلومات التي كانوا يدلون بها. ومن أخبارهأنّ تاجراً عربياً، أحبّ الصّين، وقدم الى كانتون، واستقرّبها، وكان ذا طلعة بهيّة، مهيبة، فاحتفى به الْأمبراطور وأكرمه، ومنحه رداء حرير وحزاماً فضّة، وأنّه عاش حتى بلغ المئة والثّلاثين.

بكّين بالغة العمر، عتيقة، لكنّها نشيطة كأيّ شابة، تستيقظ في السّابعة صباحاً، وفي الثّامنة تكون في أوج نشاطها، بينما عواصم عدة في العالم كنيودلهي والقاهرة ماتزالان تغطّان في نومهما، ولعلّ هذا أحد أسباب

تمكُّن الصّين من تجاوز التّخلف والسّير في طريق التّفوق الذي يشهد عليهالعالم كلّه.
في بكّين نحو ستة ملايين عجلة، بين سيّارة فاخرة كالسيّارات الْألمانيّة، وسيّارات عادية كالسيّارات الكوريّة، إضافة الى سيّارات العجلات الثّلاث بأنواع يعجز المرء على إحصائها، متراوحة بين بدائية خشب،وفائقة التّطور، مع دراجات نارية متنوّعة وأخرى هوائية، لكن انسياب المرور مع هذه العدد الهائل من العجلات يبقى جارياً، مع اختناقات قليلة لا تزيد على اختناقات شوارع شيكاغو على سبيل المثال، وربما وجود جسورللمشاة، تقطع شوارع بكّين بين مسافة وأخرى، يخفّف الكثير من المعاناة للمشاة، وهذا ما ينعدم في مدن كشيكاغو ونيويورك وواشنطون ونيودلهي والكثير من مدن العالم، إضافة إلى أنّك لا ترى ما يعرقل السّير كعربات تدفع باليد، أو تجرّها الحيوانات كما في نيودلهي، والقاهرة على سبيل المثال، ولعل مما يسهّل التّنقل وجود عدد هائل من سيّارات الْأجرة، زهيدة التّكاليف، بالرّغم من أن الصّين دولة مستوردة للنّفط، مقارنة بمثيلاتها في بغداد ودول الخليج المنتجة للنّفط، وهذه النّقطة تحسب لصالح بكّين من وجهة النّظر الْأنسانية.
وإن كنت تسير في شوارع بكّين فلاشكّ أنّك ستدهش للنّظافة الفائقة التي تتمتّع بها هذه المدينة العملاقة، وفي هذا الحقل تفوق جميع المدن التي رأيتها الْأ بعض أحياء بون.
في بكّين ترى الْأنهار شعبيّة بإمكان أيّ إنسان يتمشى على رجليه التّمتع بجمالها ورونقها عكس أنهار أمريكا المحجوبة بالبنيات، لا يراها الى رواد الفنادق الفخمة، وسكان العمارات الفاخرة، أنهار بكّين لجميع النّاس، مصانة، غير ملوّثة، كأنهار ماليزيا والعراق ومصر ،فعلى الشّاطئ جدار يمنع سقوط الْأوساخ في الماء حين تهب الرّياح، لذا يبقى النّهر صافياً، نظيفاً يعكس أشعة الشّمس بصفاء.
يعجبني في أيّ مدينة أصل اليها، التّمشي في الدّروب الخلفيّة والشّوارع الضّيقة التي تتيح لي روية النّاس على حقيقتهم، ولعلّ هذا أحد أسباب إعجابي ببكّين. بعدالسّابعة من مساء كلّ يوم، تسكعت في شوارع كثيرة شبه خالية، لا تكاد تمرّ فيها سيّارة، يبدو أن أصحابها رجعوا الى بيوتهم للرّاحة، وركنوا سيّاراتهم أمام أبوابهم، لكنّهم لم يمكثوا في البيوت، خرجوا جميعاً الى الدّرب الضّيق، في بداية كلّ طريق هناك غير محل للشّواء، والصّينيون يحبون الشّواء في مطاعم الطّرق الصّغيرة، تراها تنبت في أيّ مكان، وكأن مطعم الدّرب جزء من هذه البيوت، أو ملحق بها، يجلسون فيها أزوجاً ومجموعات، نساءً ورجالاً، يلعبون الورق، ونوعا من الدّاما" انقرض في بلداننا، يشارك غير واحد في اللعبة أو يتفرّج عليها، وهم يدردشون، يضحكون،يأكلون، يحتسون المشروبات. هذا المنظر جعلني أحسّ أن النّاس في بكّين أشبه بعائلة واحدة، يمارسون طقوساً جليلة وبحيميميّة بالغة تظلّلها سعادة فائقة.
شاهدت مثل هذه المطاعم في بغدادالقاهرة دمشق عمان الدار البيضاء الخ، وكثيراً من مدن الشّرق والمغرب العربي، وإسبانيا،لكنّها هناك باردة ميتة لا حياة فيها، تجري عملية تناول الطّعام من دون طقوس حيويّة ، تخلو من التّواشج والمرح، يتمّ فيها ملء المعدة كما يعبّأ خزّان السّيّارة بالوقود، لا بهجة، ولا مرح، يزدرد فيها المرء لقيمات، بشكل ميكانيكيّ، كأيّ غريب، يمرّ

ولا يتوقّف، ثم يتلاشى. غريباً جاء، وغريباً رحل. لكنّي في بكّين وأنا أسمع الدّردشة وضحكات النّساء والرّجال،وحماسهم وصخبهم، وصياح الأطفال، شعرت أنّهم يعيشون طقساً مرحاً مقدّساً، تفيض بهجته اليّ، فكأني واحد منهم بالرّغم من أنّني زائر أولاً، ولا أعرف اللغة ثانياً.

كل هذا في جانب وآثار الصّين العملاقة في جانب، فثنايا المدينة المقدسة وممرّاتها تجبرك على تذكر قصر وساحات وحدائق وممرّات فرساي الباريسيّة، فهناك تشابه في العظمة والجمال والآثار ترجع بك الى أعماق التّاريخ، وحين زرت متحف بكّين ذي الطّوابق الأربع تذكرت بالرّغم مني فرنسا مرّة ثانية، ومتحف بومبيدو للفنّالحديث، فهو من أربع طوابق أيضاً، لكنّه مختلف تمام الأختلاف في معروضاته، فمتحف بكّين خاص بآثارها منذ أن سُكنت أوّل مرّة قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة والى حدّالأن.

أمّا أعظم ما في الصّين الى جانب شعبها فهو السّور العظيم، كنت أحلم بزيارته طيلة حياتي، ولن أنسى مطلقاً ما صرّح به أحد رائدي الفضاء اللذين نزلا على القمر، للمرّة الأولى، يوم 21 تموز 1969، أنّالشّيء الوحيد الذي أقامه الأنسان، ويمكن أن تراه العين المجرّدة من القمر هو سور الصّين العظيم. منذ ذلك الوقت أخذت أحلم برؤيته، وعندما شاهدته رأيت إنجازاً يفوق الخيال. ترى كم مليون إنسان ساهم ببنائه؟ وأيّ جهد بذلوا؟ وأيّ تضحية قاموا بها؟ إنّه عمل يظهر عظمة ومهارةً وفنّ هذا الشّعب العريق، لكنّه يكشف وطنيّته قبل كلّ شيء، فمثل هذا البناء الضّخم الجبار، لا يمكن أن يتم بناء على أوامر سلطة حسب، بل على حبّ كلّ من ساهم به لوطنه، ورغبة بصيانته ليعيش حراً وينعم بالسّلام، وإن كان هذا لا يعني وجود سخرة أو ما يشبهها، كونها سائدة في العالم كلّه آنذاك.

في الصّين وحدها ترى النّاس يشوون الخضار، ويسلقونها، ويقلونها حسب ما يبغي الزّبون، حتى الكرّاث، يعلقونه على الشّيش، ويشونه قليلاً ثم يأكلونه، رأيتهم يسلقون ويشوون الفول السّوداني، قبل استخراجه من قشره، وكذلك يفعلون مع اللحوم والمحار والأربيان والأسماك، ولعل المائدة الصّينيّة أغنى مائدة طعام في العالم بما تحتويه من أنواع اللحوم والطّيور وما يعيش في البحر، من سمك، وقواقع، وسرطانات، واخطبوطات متنوّعة الخ، وهذا يدّل على عراقة بالتّحضّر والمدنيّة، وتطور عالٍ بذائقة فائقة. لا يدلّ التّنوع على سعة المطبخ الصّيني حسب، بل على فوائده الصّحيّة كذلك، فمعظم الأكلات تقدّم خالية أو شبه خالية من الملح.

أجمل ما في بكّين أطفالها ونساؤها، فالأطفال يرفلون بالشّوارع والأزقةبملابس زاهية، نظيفة، تبرق بشكل آخاذ. يتبختررون كدمى فائقة الجمال تتهادى على الأرض، تلمع عيونهم صحّة وعافية، وتتورّد خدودهم البيضاء النّاصعة مشكلة مع سواد شعورهم لوحات فنيّة يعجز عباقرة الفنانين على إنجازها،يجذبون أنظارك فلا تستطيع عنهم فكاكاً.

بشرة الصّينين وبخاصة النّساء إمّا بيضاء ناصعة مشربة بحمرة قانية، يكاد الدّم ينبثق منها، أو سمراء كضوء الفجر معجونبعصير الرّمان، بتقاطيع متناسقة تجعل من ابتسامتهن فجراً مشرقاً، مع أجساد رشيقة معتدلة متناسقة، أمّا سيقانهن فمصبوبة بقوالب فريدة تنساب بتناسق متميّز يشعّجاذبيّة وإثارة، وأيّ

مقارنة بين النّساء والْأطفال في أمريكا والصّين، في الجمال والْأناقة ترجّح كفة الصّينين، إذ أن لهن مقدرة فائقة لا تطاول، على تنسيق الْألوان في الملابس والتّلاؤم بينها، ومما يزيد جمال المرأة الصّينية أنّالطّبيعة حبتها بشعر ينساب كخيوط الحرير ليصل إلى خاصرتها، يتماوج تحت أشعة الشّمس في كلّ حركة تتحرّك بها، ويبدو أن الطّبيعة وضعت عبقريتها كلّها في إبداع جمال المرأة الصّينية، إذ توقفت بعدئذ، ولم تستطع خلق أجمل منها إطلاقاً، ولعلي لست الوحيد الذي يطري ما في الصين، فقد شاركني القزويني في ذلك " كثيرة المياه، كثيرة الأشجار، كثيرة الخيرات وافرة الثمرات، من أحسن بلاد الله وأنزهها، وأهلها أحسن الناس صورة، وأحذقهم بالصناعات الدقيقة، لكنهم قصار القدود عظام الرؤوس، لباسهم الحرير الخ"

حضرنا حفلة في الجامعة، توالى فيها راقصون وراقصات، ومغنون كثر، ومما يلفت الْأنتباه أنّالصّينيين يعزفون بآلة شبيهة بالعود العربيّ، يسمونها "بيبا" يعزفون بها بأناملهم،من دون ريشة، وعندهم نوعان من القانون، أحدهما مربع ضخم، يحمله إثنان ويضعانه على منضدة أمام العازف، والنّوع الثّاني بطول متر ونصف تقريباً، بيضوي الشّكل، ويعزوفون عليه بالْأنامل أيضاً، وصوتهما شبيه بصوت آلةالقانون لدينا. وألحانهم جميلة، أقرب الى ذائقتنا من الْألحان الغربيّة، والصّينيون يشبهوننا ليس بآلاتالعزف بل حتى بالعادات، فهم يساومون البائع عندما يشترون، ولقد قضت الدّليلة التي رافقتنا الى زيارة سور الصّين ربع ساعة تحذّرنا من شراء أيّ شيء من دون مساومة.

كان ضمن خطة المؤتمر أن نتعرّف الى أربعة شباب، يدرسون اللغةالعربيّة، أحدهم يجيد العربيّة، كتابة ونطقاً، كمن حصل على شهادة الدّكتوراه بها. لكنّه في بداية دراسته للماستر،متخصّصاً في أحد أصعب حقول العربيّة: "العروض والتّفعيلات"، أمّا الثّلاثة الْأخرون فمازالوا في السّنة الثّالثة من التّعليم الجامعيّ، وهم في وضعهم الحاليّ يعادلون الطّلاب العرب فيالمرحلة نفسها، إذ يستطيعون القراءة، والكلام، والكتابة بشكل جيّد وكأن العربيّة لغتهم الأمّ، لكنّهم يفوقون أمثالهم الذين درسواالعربيّة في الولايات المتّحدة لنفس المدّة بما يعجز اللسان عن وصفه. كيف تأتى لهم ذلك؟ لكي يصل الْأمريكيّالى المستوى نفسه عليه أن يدرس اللغة العربيّة مدّة سبع سنين في الْأقل، مع مكوث سنة أو أكثر في أحد البلدان العربيّة كمصر، والمغرب، والْأردن. فلماذا نجح تدريس اللغة العربية في الصّين، وفشل في الولايات المتحدة؟

إذا استبعدنا الذّكاء الشّخصيّ، والْأهتمام، والمثابرة عند الطّلاب، وتشابه المناهج ومواد الدّراسة لأنّها متماثلة في جميع الْأمكنة والبلدان، بفروق لا تكاد تذكر، عندئذ لا يبقى سوى احتمالات أخرى علينا التّفكير فيها. حسب رأيي، يعود إتقان اللغات الْأجنبية في الصّين الى القدرات المكتسبة التّعليميّة لدى الطّلاب من بيئتهم، لماذا؟ لكي يتعلّم الطّلبة الصّينيون لغتهم، كتابة وقراءة عليهم أن يحفظوا في ذاكرتهم، نحو ألفيْ مقطع في المرحلة الْأبتدائيّة، ونحو ستة آلاف مقطع في المرحلة الْأعداديّة أو الثّانوية، يعني أن التّلميذ في الصّين يحفظ في دماغه مقاطع لغة تعادل 71 مرّة أكثر من حروفنا العربيّة، وطالب المرحلة الْأعدادية،

يحتفظ في ذاكرته،بمقاطع تعادل 214 مرّة،أكثر ممّا يحفظ طالبنا، ولذلك فعندما يُقدم الصّيني على تعلّم لغة أجنبية لا تزيد حروفها على 28 حرفاً، أو أقل أو أكثر قليلاً، فهو يعتبر نفسه في نزهة تعليميّة، كشخص يطلب منه أن يطفر مسافة نصف متر، بينما هو معتاد على طفر سبعة أمتار، كلّ يوم مئات المرّات. إنّ ميكانيكيّاً اعتاد أن يتعامل مع ستة آلاف آلة معقدة، طيلة اثنتي عشرة سنة، ليسهل عليه التّعامل مع 28 آلة مهما صعب استعمالها، فهو يبذل جهداً أقلّ سبعين مرّة من بذله لتعلم لغته، أيّ أنه لا يكاد يتعب نفسه تقريباً. وهنا يسقط تباهينا وتباهي غيرنا،الذي يرافقنا طيلة حياتنا، كوننا نستعمل أبجديّة سهلة تقلّ حروفها على الثّلاثين. ترى متى سيعترف العالم بجدوى القيمة التّعليميّة للكتابة المقطعيّة، ودورها في تنمية المهارات والذّكاء؟ أعرف أحد رؤساء تحرير صحيفة عراقيّة، قال لي: إنّني أضع أمامي جدولين للكلمات التي تحوي الظّاء، والضّاء، عندما أحرّر ما يردني. فضحكت على بلاهته وشرّ البليّة ما يضحك، لكن مأساة هذا لا تقارن بمأساة وزير عراقي، حاصل على الدّكتواره في الذّرة، وكتابه مليء بالأخطاء الإملائيّة.

ويبدو أن إتقان الصّينيين لهذه الْأبجديّة كانت القاعدة الفكريّةالرّئيسة لقادة الصين، فقد تمكّنوا من تقليصالهوّة الثّقافيّة والعلميّة والصّناعيّة الجبّارة التي كانت تفصلهم عن أوربا والولايات المتّحدة، والتي ستمكّنهم من تجاوزها كليّة بعد فترة قصيرة، ليقودوا العالم برمته.

كلمة بيجين "بكّين" تعني العاصمة الشّمالية، لأنّ هناك أكثر من عاصمة قديمة في الصّين، وكلمة الصّين تعني المركز، أيْ مركز العالم، ومرّت الصين كأيّ دولة بفترات رخاء وأخرى عجاف، ويجمع الصّينيّون على أنّ أتعس أزمنتها هي سنوات "الثّورة الثّقافيّة"، كانت انتكاسة حضاريّة لا مثيل لها، لكنّها لحسن الحظ انتهت بتسلّم دينج شياوينج القيادة خلفاً لماوتسي تونغ. استطاع دينج ومن جاء بعده، من دفع الصّين الى الْأمام، ووضعها في الطّريق الصّحيح، في وقت قياسيّ،38 سنة مقابل 247 سنة قضتها أوربا. لتنطلق البلاد نحو المستقبل، بدون توقّف، ولا شكّ أنّنا سنرى الصّين غداً، في موقع الصّدارة من دول العالم أجمع، لتصبح مركز العالم، كما يعنيه اسمها "المركز"، وليس الغد لناظره بعيد.

* روائي عراقي معروف مغترب

أوراق أوكرانية
بقية مجد مضى

ياسين طه حافظ *

هذه هي الشقة التي اختيرت لأسكن فيها، جميلة نظيفة وأنيقة في الطابق الثامن والأخير من المبنى. لا أستطيع تحديد زمن البناء ولكنه لا يبدو قديماً. هو من خمسينيات القرن الماضي في تقديري أو هو دون ذلك. المصعد روسي، واضح وأنا أعرف المصاعد الروسية قوة وعتمة لونٍ ولا اهتمام بالجمال. صنع لا ليكون جذاباً ولكن ليكون معمّراً، عمل شغيلة كادحين.

أمام وخلف البناية مدّ من الأشجار، حديقة أو بقية غابة إلى جوانبها بضع مصاطب.

في اليوم الأول، الثاني، الثالث، ... اصعد وأنزل مغادراً تواجهني من الطابق الأرضي إلى اليمين منه باب عتيق الطراز مغلق. باب حديد بنقش بارز تغطيه عتمة من ظلام سنوات بعيدة، طيلة بقائي لم أرها مفتوحة، بقدمها والغموض الراكد عليها تبدو كأنها بقية عن مبنى أثري، كأنها فتحة لممر يأخذك للعالم القديم، الذي اختفى.

فضول ما دفعني لأعرف سرَّ هذا الباب الحديد الأسود المغلق واختلافه في الريازة والشكل عن بقية المبنى. قلت لأسترح على مصطبة قبالته في شمس هذا النهار الذهبية ولأنتظر، ربما تكشف سر باب هذه الشقة بالغة القدم الغريبة المختلفة بين كل ما في المبنى. أنا أهجس سراً.

لكن وأنا أخرج من المصعد، انتبهت إلى أن الباب فتح وأن عجوزاً بيضاء الشعر كأنها من عالم قديم خرجت، وهرع نظري إلى داخلها مستعجلاً، لأرى قبل أن تغلق الباب، فإذا بأثاث قديم ومصباح صغير موقد، ينطفئ لحظة غلق الباب.

بهدوء، تريثت بعيداً لأرى ما سيتم، أغلقت الباب، الباب الحديد القديم ما عاد لأي من مساميره رونق، لكنه بارز يؤكد أنه حاضر، بعد لم يغب وإن فقد اللمعان.

العجوز رثة الثياب قديمتها، لا تدري بأن ما في غرفتها أثاث قديم لا قيمة له وأن الفقر واضح بكل يباسه عليها، وهي تخرج أحكمت غلق الباب بمفتاح في جيبها مما جعلني أظن أنها ستغادر إلى مكان بعيد وإذا بها تحبو إلى مصطبة قريبة لشقتها أو غرفتها لتأخذ حصتها من الشمس. كل هذا الحرص وإحكام غلق الباب للذهاب إلى مصطبة لا تبعد أكثر من ثلاثين متراً، لهو الحرص القديم والتشبث بالاطمئنان و بلا خسارات أخرى.

أكيد سيطالبني القارئ بكشف التفاصيل: أنا أدركت منذ البدء أن هذا الباب مقوس الأعلى، ذا المسامير شكل كرات، والذي هو

ليس مستطيلا، كالأبواب، بل محن مقوس مثل أبواب الكنائس أو بيوت الأثرياء القدامى، هو من بقايا وجاهة وملك، لكن هذا يبقى حدساً أو تخيلاً والحقيقة ليست مؤكدة في كل حال، انتظرت ولدي، اتصلت به ليعجّل قبل أن تغادر العجوز الشمس وتعود تختفي في ظلمة الغرفة القديمة.

سلاماً .. أيتها العجوز الطيبة..

سلاماً ، من أنت لغتك ليست أوكرانية سليمة، أنت غريب؟

أقيم هنا.

أقم، كثر الغرباء، بعضهم طيبون.

والدي لديه سؤال، هل أزعجك؟.

الأسئلة لا تزعج، الأجوبة هي التي قد تزعج...

وتكشفت الحقيقة، لم أكن بعيداً عنها ولكنها الآن واضحة: "هذا ملك قديم، بيع كله وصار شققاً، رمموه، أعادوا البناء.. ولكني احتفظت بحصتي، لم أبعها، هل تفهم؟ لم تضع الدار كلها، ما أزال أحتفظ ببعض منها، لم أسمح بضياعها، ها أنا أعيش فيها وكما كانت وسأبقى، عليهم اللعنة، اللعنة على نقودهم، لم يتمكنوا منها، ما أزال أنا فيها، وسأبقى، أما بعد أن أرحل، فذلك شأن الحياة! المهم أنهم لم يأخذوها وأنا في الحياة!"

يا للبسالة، يا للقوة الباهرة، ويا لهذا الصمود، من أجل البقاء، من أجل الاحتفاظ بالملك القديم أو ببقعة عزيزة من الوطن! هذه الشقة التي بأربعين متراً، هي بقية المجد الغابر وهذه العجوز المجيدة بقية من الازدهار الذي مضى!

---

* شاعر عراقي معروف

منبر العقل في الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق
مؤتمر العراق ما بعد داعش
(ماذا حدث؟ ماذا نصنع؟)
التوصيات الختامية

تواصلاً مع أعمال المؤتمر العلمي الأول لمنبر العقل في الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، الذي انعقد ببغداد في 15 تشرين الأول 2016، تحت شعار (ماذا حدث..؟ ماذا نصنع..؟) بواقع جلستين بحثيتين وبمشاركة أكثر من عشرين متخصصاً في الشؤون السياسية والاجتماعية والانثروبولوجية والفكرية والفلسفية والأدبية . يوصي المؤتمرون ما يلي:

ندعو إلى ضرورة مواصلة هذا العمل الثقافي، وتبني توجهاته على وفق مشاركة أوسع للمثقفين العراقيين في عملية البناء المجتمعي، وترصين قيم الدولة المدنية، وتحولاتها الديمقراطية في مرحلة ما بعد (داعش)، بوصف هذه المرحلة مجالاً ثقافياً وسياسياً واجتماعياً يتطلبُ أقصى درجات المسؤولية والتفاعل مع أهداف البناء المجتمعي، ومن هنا اتفق المشاركون في هذا المؤتمر على التوصيات الآتية، آملين أن تكون منطلقات عمل ، وأهدافاً مستقبلياً ندعو من خلالها المؤسسات الرسمية والمدنية لدعمها وتحقيق ما ينبغي منها:

1 . العملُ على تأطير المشاركة الثقافية في مجالات التصدي لثقافات الإرهاب، والعنف والتكفير، والتهميش من خلال متبنيات مؤسساتية، وإيجاد شرعنة قانونية لها، لإيماننا بأن العمل المؤسسي هو الأفق الذي يمكنُ التواصلُ معه ومن خلاله.

2 . العمل على تبني ثقافة التسوية التاريخية بين مكونات الشعب العراقي، وعلى أسس مقتضيات وطنية واضحة، تتعمقُ من خلالها المواطنة والمشاركة والتفاعل.

3 . الاهتمام بالمؤسسات التعليمية، وإعادة النظر بمناهج الدراسة الإنسانية، لا سيما ما يتعلق بالتربية الوطنية، والتربية الإسلامية، باتجاه مراعاة التنوع، والتعدد المكوناتي/ الديني والقومي والعرقي في العراق .

4 . ضرورة تسليط الضوء من قبل الجهات المعنية الحكومية، وبالمستويات الإعلامية والثقافية والخدماتية على ما يسمى بالحواضن الاجتماعية، والتي كانت – طوال سنوات – مجالاً لنشوء أفكار التطرف والكراهية والعزلة المجتمعية .

5 . الاهتمام بثقافة التنوير والاصلاح في مجالات الخطاب الديني، والتعليمي والإعلامي، لا سيما الجامعات الحكومية، والأهلية والقنوات الفضائية، وإشاعة ثقافة الحوار والتأكيد على أهمية الاستعاضة عن صناديق السلاح، بصناديق الديمقراطية، عبر الاقتراع الانتخابي والمشاركة المجتمعية.

6 . دعوة المثقفين في مراكز البحوث للعناية بقيم الدولة الحديثة بوصفها المؤسسة الدستورية والحقوقية الضامنة للجميع.

7 . العمل على دعوة الحكومة العراقية لدعم الملف الثقافي وإعطائه الأولوية، مثلما هي أولويات الملفات السياسية والاقتصادية والأمنية، لاعتقادنا بأن الإرهاب والتكفير، وظاهرة (داعش)، هي ظاهرةٌ ثقافية ذات مرجعيات تراثية.

8 . دعوة المثقفين في مؤسساتهم، وفي كتاباتهم، وبحوثهم إلى إعادة النظر بالمناهج التي تتعلق بالحكم والدولة والهوية والحرية. ذلك ان منطلق هذه المناهج ينبغي أن يؤسس على وفق معطيات علمية مدروسة بدقة و هدوء، وضمن سياقات بناء الدولة العراقية الجديدة، فضلاً عن الدعوة إلى تعزيز قيم النقد العقلاني والتعاطي مع المشكلات التي تواجه الشعب العراقي بمسؤولية النقد الفاعل والصريح والواضح.

9 . الدعوة إلى المزيد من التنسيق مع ممثلية منظمة الأمم المتحدة في العراق، كذلك اليونسكو باتجاه دعم برامج المصالحة المجتمعية لمرحلة ما بعد (داعش).

10 . العمل على دعم الصناعات الثقافية، لا سيما مجالات الفن الدرامي والغنائي، لما لها من تأثير اجتماعي على الشباب، وعلى صناعة رأيٍّ ثقافي فيه سعةٌ من الأفكار والمعلومات والتصورات.

11 . ضرورة تجفيف منابع الإرهاب – وينابيع نشوء إرهاب قادم – عن طريق العدالة الاجتماعية، وإزالة التمايز الطبقي والفئوي.

بغداد ـ فندق بغداد
15 تشرين الأول 2016

مطبوعات وصلتنا :

• د.عبد المنعم كاظم الشمري، المرتكزات السياسية للنظام الاعلامي وللإرهاب السياسي، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمّان 2016.

• طه سالم، مسرحيات طه سالم (المجلد الثالث)، مكتبة فضاءات الفن، بغداد 2016.

• حميد حسن جعفر، كائنات الوهم.. كائنات الشعر.. ثقافة الهامش: الكوت انموذجا، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد 2016.

• علوان السلمان، حلمية النص الشعري البابلي، دار الفرات للثقافة والاعلام، الحلة 2016.

• د.محمد رضا مبارك، ثلاثون قصيدة وثلاث متاهات، دار الجواهري للنشر والتوزيع، بغداد 2016.

• د.حسين علي يوسف، تمثلات السيرة الذاتية في روايات أحمد خلف، دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة 2016.

• د.ليث بدر يوسف، المسؤولية الاجتماعية في الصحافة الالكترونية، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمّان 2016.

• حمدي العطار، ايران في عيون صحفي عربي، دار أمل الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2016.

• ابراهيم الخياط، مجلة "الثقافة الجديدة" ودورها الثقافي في العراق/ دراسة تحليلية لمضامين الفنون الصحفية فيها لمرحلة العهد الملكي، رسالة ماجستير (مخطوطة) نوقشت في كلية الاعلام – جامعة بغداد 2016.

• نعيم نصار، رجل من بيوت القصب، رواية، دار نشر:فيشون ميديا، فكشو، السويد، 2016